

من بدائع الأدب الإسلامي

دراسة نقدية لنصوص من الخطابة والقصة والشعر

الدكتور

محمد بن سعد الدبل

أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الطبعة الثانية

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

من بدائع الأدب الإسلامي

دراسة نقدية لنصوص من الخطابة والقصة والشعر

الدكتور / محمد بن سعد الدبل

أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الثانية

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



ح محمد سعد الدبل ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدبل ، محمد سعد
من بدائع الادب الاسلامي دراسة نقدية لنصوص من الخطابة والقصة والشعر. / محمد سعد الدبل - ط٢. - الرياض ، ١٤٣١هـ
..ص ؛ ..سم

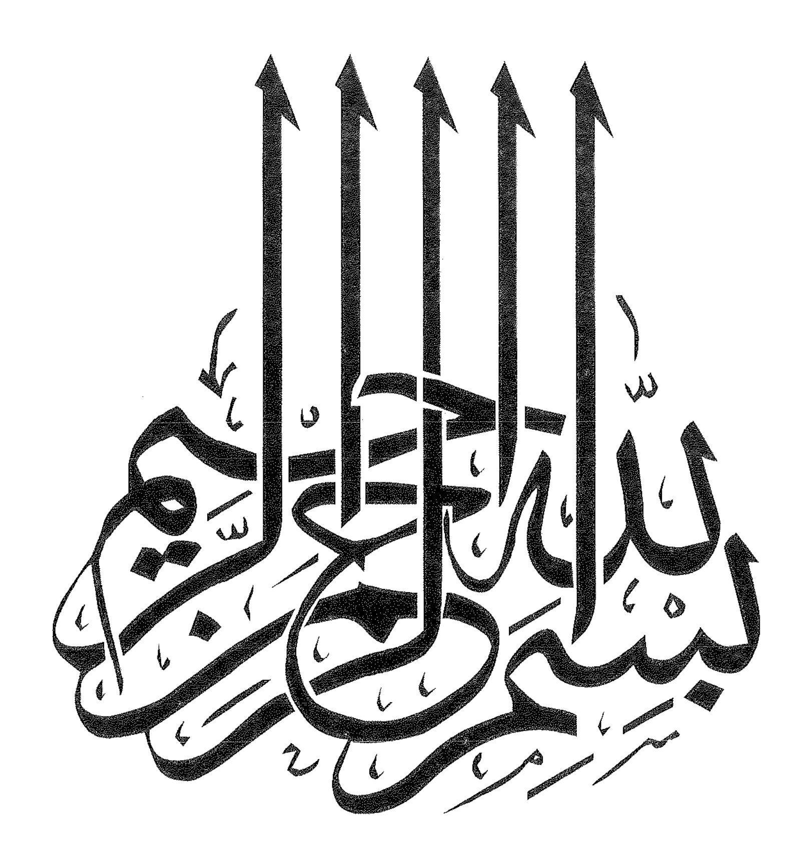
ردمك: ٨-١٧-٥٠١٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الادب الاسلامي - نقد أ. العنوان

ديوي ٨١٠,٩ ١٤٣١/٣٥٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣١/٣٥٥٠
ردمك: ٨-١٧-٥٠١٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨




بسم الله الرحمن الرحيم


الجديد
NEW & EXCLUSIVE


الجديد
و
الحصري
NEW & EXCLUSIVE



مقدمـــة :

ما الأدب الإسلامي ؟

وما خصائصه ؟

وما مدى وجوده بين مرحلة المنهج ، ثم مرحلة النظرية والتطبيق ثم مرحلة العطاء المتفاعل الحي النافع ؟

وما مدى وجوده بين المثالية و الواقعية و الالتزام ؟

تساؤلات و استفهامات يجيب عليها الأدب الإسلامي نفسه من خلال إطاره و مضمونه بأنه ذلك اللون الأدبي الذي لا يتجاوز كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

وإذا كان هذا اللون من الأدب قد تخطى مرحلة المنهجية ، إلى مرحلة النظرية و التطبيق ثم استوى على سوقه مرحلة عطاء يسهم في انتشال البشرية من واقع الضياع و الهلاك إلى واقع الحياة السعيدة الكريمة في ظل تشريعات الإسلام و أحكامه العادلة ومثله الرشيدة .

إذا كان هذا هو مفهوم الأدب الإسلامي – ولا أخال لمفهوم سواه فإنه لم يعد لهذه التساؤلات و الاستفهام و التردد أي معنى يمكن أن يقف أمام هذا العطاء الأدبي الزاخر الذي مكن لهذا الأدب ومكن لوجوده وجدواه وصحته ومذهبيته حتى أصبح واقعا ملموسا أخذا في استنكاء خصائصه وقيمه الفنية



من خلال الدراسات النقدية الأدبية التي تزن الأعمال الأدبية بمعايير الحكمة والعدل و الأنصاف والتوجيه الصائب والرأي السديد .

وإذا كان الأدب الغائي الهادف يرقى بالوجود وبإنسان هذا الوجود من خلال الخصائص الفنية لأي لون من ألوانه فإن من أجل خصائص الأدب الإسلامي : المثالية ، الواقعية ، والالتزام ، لأن هذه الخصائص ذات أثر كبير في توجيه الأدب و الأديب.

أما المثالية فتعني أن الأدب الإسلامي هو اللون الأدبي الذي أمكن أن ينتقل بالإنسان البشري الذي استخلفه الله تعالى في عمارة الكون واستصلاحه لخدمته و منفعته في ظل التصور الإسلامي السليم وكان لزاما أن يتخرج في مدرسة هذا الأدب إنسان مثالي يحتكم في عطائه الأدبي إلى مقومات الأدب الغائي النبيل الهادف الملتزم الذي يجمع في خصائصه الفنية قوة العقل وسلامة الفن و صفاء المعتقد .

وأما الواقعية في هذا اللون من الأدب فتعني الانتقال بالفكر الإنساني. وبالعطاء الأدبي من مراحل ظلت الدراسات الأدبية والنقدية تعيش في متاهاتها زمنا طويلا بين مذاهب متباينة مختلفة لا تستقر على قاعدة ثابتة "كلاسيكية" تلك المذهبية التي تبتعد عن واقع الأكثرية الاجتماعية إلى "رومانسية" تقترب منها، لكن في الخيال دون العقل متوجهة إلى العواطف الإنسانية لكن بواقع سلبي في النظرة إلى الحياة فكان لزاماً أن يكون عطاء هذه المذاهب هدماً لا بناءً .



وأما الالتزام : فقضية تستدعي إيراد بعض النقاد المعاصرين حول قضية "الفن للفن ، والفن للحياة ، لأن أكثر هؤلاء النقاد وحين يعرضون للأدب الإسلامي من خلال مناقشة هذه القضايا تراهم يطلقون أحكاما تتغشاها نظرات عجلى فيقولون : هذا قيد متين ، وهذا هدم و بناء ، وهذا تقليد واتباعية ، وهذا إلزام إلى غير ذلك من الأحكام السريعة التي يمليها حب التشبث بالنقد من غير معيار صحيح يوزن به العمل الأدبي .

ولقد بسط النقاد المعتدلون المنصفون القول في الالتزام والقول في قضية "الفن قيد و قضية " الفن للفن ، والفن للحياة ، وفي جملة هذه الأقوال الصائبة ما حدده الدكتور / صالح أدم بيلو إذ قال :

" يشيع عند بعض الناس: أن الأديب الفنان لا يستطيع أن يبدع إبداعه الحق ، ويتجلى تجليه الواسع المدى ، إلا إذا رفعت عنه الحواجز و القيود و السدود حتى ولو كانت قيودا فنية تقتضيها طبيعة فنه ، وأزيلت من قدامه كل عوامل الحجر والحظر عن كل شيء ... بدعوى أن هناك موضوعات لا يصح أن يرتادها الأديب لأنها تمثل قيما دينية ، أو أخلاقية ، واجتماعية .

والأديب المبدع لا يستطيع ، بزعم هؤلاء أن يعطي أروع عطائه ويجود بأجمل تجلياته إلا حين يكتسح كل هذه العوائق والحواجز اكتساحا و يخترقها اختراقا لا يبالي بشيء منها .



ومن هنا تمادوا في حكمهم المتسرع المغلوط ، فقالوا أيضا : أن القصيدة المعروفة عربيا قيد شديد الوطأة ، أليم الإسار ، ضاغط على الأديب المعاصر غير صالح لاستيعاب أفكاره ومشاعره ، وأحاسيسه ، يكبح انسيابه وتدفق ينابيعه ، لهذا ينبغي تجاوز هذه العوائق ، و تعدي القيود الأسرة التي تفرضها .

وواضح لكل ذي عين ، ولكل ذي قلب ، ولكل ذي دين وإيمان أن هذه المسألة بهذا التصور فيها شيء كثير من الغلط و المغالطة ، لأنها تعني أن الحياة لا تجمل ويحلو طعمها ويلذ إلا حين تباح على إطلاقها فلنترك للأديب يرتع فيها كيفما يشاء دون تمييز بين طيب و خبيث ، و حسن و قبيح ، وهو بارتياده لكل هذه الأودية سيمتعنا و يشركنا معه فيما يجد ويلقى[1] .

إن الناقد الواعي المخلص المنصف حين يرفض هذا القول ، و يرفض قول ورأي من يزعم أن الأديب بخاصة ، وأرباب الفنون الجميلة الأخرى بعامة لا يمكن لأحدهم أن ينتج بسخاء ما لم ترفع عنه كل القيود فنية و غير فنية وإلا شاه جمال الفن كما يزعم هؤلاء .

ألم يدر هؤلاء بأن هناك معاني ثواني يسبرها النقد في أعمال الأديب فإذا قلنا : إن الأدب – في أبسط تعريف له – هو الأخذ من كل شيء أو من كل فن بطرف ، فالمعاني الثواني هنا وفي إطار المنظور الإسلامي هي الاقتدار على الحركة مع الاعتدال و الضبط والبراعة في إحسان التحرك ، وإجادة

---

(١) من قضايا الأدب الإسلامي د/ صالح آدم بيلو ص ١١٧ ، ١١٨ .

التصرف، والاقتدار على الحركة داخل هذا الإطار هو المقياس أو المعيار الذي يستطيع به الناقد أن يفرق بين الصادق والدعي ، و بين الأصيل المتعمق ، والدخيل المتطفل .

ومعلوم أن الأديب الحق هو ذلك الأديب الذي يراعي قيم مجتمعه العقدية و الخلقية ، والاجتماعية حتى في عطائه الذاتي ، فهو لا يخرج عن هذه القيم ولا يشوهها ، ولا يصيبها بسوء ، ومتى أبدع وأجاد دون أن يمس هذه القيم ، بشيء من القول و المعنى كان – حقا – هو الأديب المبدع . والشاعر المبدع هو الذي يبلغ أهدافه ، ولا يضيق بالقيد الفني في القصيدة إن كان هذا قيدا – كما يزعم هؤلاء النقاد والمتسرعون ، نعم لا يضيق بالبناء الفني للقصيدة العربية الأصيلة واهماً بأنها معجزة له عن أن تصير وعاء يستوعب أفكاره ومشاعره التي يحسها في داخل نفسه .

إنها لمحاكاة إنه التقليد الذي جرّ كثيرا من هؤلاء المتشبثين بالنقد الأدبي المعاصر ، وليسوا منه في شيء ، ولذا نسمع أقوالهم ، و نقرأ كتاباتهم والكل منهم يغلظ في القول ، ويفسح في الرأي ، ويتباصر و يتباهى بما يذكر من رأي فجّ أعمى ، من مثل قولهم : إن الالتزام بالمحافظة على رسوم القصيدة العربية في جميع خصائصها الفنية من تصريح و تشبيب ، ووزن ، وروي ، وقافية ، وطول نفس كل هذا يصف العمل الأدبي ، وخاصة القصيدة منه





يصفه بالمرتبة الدون ، لأنه نسيج مقلد و محاكاة محتذٍ ، فلا تبعد القصيدة إلا أن تكون من قبيل الوعظ والإرشاد الديني ، وخطب الجمع والجماعات .

والقصيدة بهذا المنهج – على حد زعمهم – لا تؤدي أثرها ولا تصل إلى غايتها من خلال الخصائص الفنية التي استبدت بها هذه القصيدة في إحكامها الشكلي .

والرد على هذه الفرية أن هذا القول فيه تناقض إذ كيف يعمد الأديب أو الشاعر إلى إحكام قصيدته في شكلها ثم يفوت عليه هذا الإحكام بعضاً من خصائص معانيها كالتأثير في المتلقين ، إن إحكام الشكل يتبعه إحكام المضمون ، و الالتزام من حيث هو قضية فإنه من أكبر مميزات وخصائص الأدب الإسلامي .

وقبل أن نتوغل في الحديث عن هذه الخصوصية : معناها و أساسها وتاريخها في الأدب العربي والآداب العالمية بعامة ، وفي الأدب الإسلامي بخاصة ، قبل أن نتطرق إلى شيء من ذلك يحسن أن نحدد مفهوم كلمة الالتزام في اللغة و الأدب لتتضح الرؤية ، و يتبين الغرض من وصف الأدب الإسلامي بها .

الالتزام في اللغة : مصدر التزام ، ومادة لزم مصدرها لازم ملازمة والمعنى لازم الشيء وداوم عليه و اعتنقه محبا لا مكرها فاللفظة هنا غير الإلزام تلك اللفظة التي تدل على القسر و الإكراه .



أما مفهوم الالتزام عند الأدباء ، أو معنى الالتزام في الأدب ، فذلك يعنى أن يأخذ الأديب بمنهج معين في أعماله الأدبية كأن يبدع في فن القصة فيلزمها ، أو أن يبدع في فن الشعر فيلتزمه أو في المقالة أو في الخطابة أو في أي جنس من أجناس الأدب ، ولا يعني ذلك أن لا يفارق الأديب هذا الفن الذي يجيده إلى غيره ، وإنما ينطلق في عطائه وفق طريقة سليمة محافظة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا تجد فيها مدخلا لناقد ذلك أن الأديب وطن نفسه على أن لا يقول إلا الحق ، وعلى أن لا تنزع عواطفه إلا إلى ما هو حق وصدق وخير .

وإذا تقصينا البحث عن مدلول كلمة " الالتزام " في الآداب العالمية ، وجدنا أن هذه الكلمة قد كانت ذات قضية موغلة في القدم حيث شغلت أذهان النقاد من عرب ومن غير عرب كما شغلت أذهان النقاد المعاصرين ، أي أن فكرة الالتزام التي سادت في بيئات النقد الأدبي في هذا الزمان فكرة قد عرفتها الإنسانية بفطرتها . بما هداها الله تعالى إلى تمييز الحق من الباطل والخير من الشر ، والصواب من الخطأ .

وإذا كان معنى الالتزام عاما يفيد التقيد بمبادئ الحق و الخير ، وتحقيق عناصر الجمال في الأعمال الأدبية فإن ذلك شيء قد عرفه النقد القديم عند اليونان ، وإن لم ينزع الأديب في عطائه الأدبي من خلال الفكر اليوناني إلى

خير باق مستديم ذلك أن الفكر اليوناني كغيره من كثير من الفلسفات التي راجت ثم بادت لأنه ولأنها لم تبن على قاعدة راسخة ثابتة مكينة .

وكذلك الشأن عن فكرة الالتزام في الأدب الفرنسي و الشيوعي حيث الالتزام بالمعنى الصحيح في هذه الآداب إن جاز أن نسميها أدبا – وإنما هو الزام.

أما فكرة الالتزام في الأدب الإسلامي فهي اللبنة الأولى التي ينبني عليها العمل الأدبي النابع من نفس مؤمنة أمينة صادقة فيما تقول ومصداق ذلك الشيء ، حديث رسول الله ﷺ وكل ما أثر عنه ﷺ من قول فإنه مبني على مذهب الالتزام في الأدب حيث إتباع السلوك الحسن في كل أمر من أمور الدنيا و الدين ، فالمسلم منذ اللحظة الأولى ملتزم في القول والعمل ، إذا تكلم فلا ينطق إلا بما هو حق و خير ، يقول الحق تبارك و تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١)

وثبت عن رسول الله ﷺ قوله : " من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "(٢)

فالمسلم ملتزم بأن يحاسب نفسه قبل أن يتكلم ، فلا تخرج كلمة من فيه إلا بميزان خوفا من وعيد قول النبي الكريم ﷺ : إن الرجل ، وفي رواية أن العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا "(٣)

---

(١) سورة النساء الأية ١١٤ .

(٢) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي .

(٣) صحيح الإمام البخاري / باب حفظ اللسان .



بل إن من الالتزام الخلقي في الإسلام اعتزال من يخوض في الباطل وتجنبه و الإنكار عليه ،يقول الله تبارك و تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (١)

وإذا كان هذا الشأن عن الالتزام في جانب القول ، فكيف به في جانب الأفعال و الصفات التي يتصف بها الإنسان ويتطبع بها ؟ إن المسلم في ذلك ملتزم بأن يبتعد ، وينأى بنفسه عن الاستهزاء بالآخرين ولابد أن يكون له من عقيدته ما يردعه عن الافتراء على الناس ، وأن يحاسب نفسه كلما مالت مع الأهواء ، وواجب عليه أن يكبح جماحها ، ويجاهدها ، ويحملها على فعل الخير:

صن النفس واحملها على ما يزينها   تعش سالما والقول فيك جميل

و الفيصل في ذلك كله قول الله تبارك و تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (٢)

---

(١) سورة الأنعام الأية ٦٨ .

(٢) سورة الحجرات الأية ١١ ، ١٢ .



ويكاد مفهوم الالتزام عند النقاد المعاصرين يختلف باختلاف أفكار الأدباء فيما ينشئون من أعمال أدبية فقد نادى كثير من هؤلاء النقاد والمتطرفين في جميع فنون الأدب : من كلمة معبرة ، وصور ورسوم جميلة نادى هؤلاء بإطلاق حرية الأديب ، تلك الحرية المزعومة التي تخالف في فحواها مفهوم الحرية السليمة التي خولها الإسلام أدباءه ومفكريه . فلقد رأى هؤلاء المتطرفون أن من رفعة الفن الأدبي إظهار المرأة مفاتنها للناس لأنها أكثر موضوعات الأدب المعاصر ، وهذا يخضع في تفكيرهم لنظرية الفن للفن وما درى هؤلاء أن هذه الحرية المزعومة انحدار بالمجتمعات إلى هوة سحيقة لا منجاة منها للأديب والمتلقي بل لا منجاة منها للمجتمع بوجه عام .

ولا شك أن التبعة إنما تقع على الأدب الإسلامي وأدبائه فهم رجال الأمة و قادتها في الأخلاق و السلوك وفي كل أمر يناقض فكرة الالتزام .

وفيما سندرسه من نصوص الأدب الإسلامي ما يمكن أن يبصر كل ذي عقل و دين بجدوى هذا الأدب ، وأنه الأدب السمح العف الكريم الذي يدلل على الشخصية الإسلامية وتميزها فردا و جماعة سلوكا ومظهرا والتزاما .

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل .

د / محمد بن سعد الدبل





تمهيـــــــد

الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق









تقوم نظرية الأدب الإسلامي على معرفة موقف الإسلام من الأدب بعامة ومعرفة موقف الإسلام من الشعر بخاصة . ومن ثم الاطمئنان إلى ما سجل في ثنايا كتب التاريخ والسير، وأمهات مصادر الفكر والأدب عند العرب و المسلمين عبر تاريخهم الطويل الحافل بكل جديد .

ولا شك أن المصادر – التي لم يزل أدباء الإسلام قديما و حديثا – يستقون منها هي المصادر الكبرى في تاريخ الفكر الإسلامي تلك التي بلغت مرتبة علمية فكرية عالية جعلتها منهلا عذبا وموردا فياضا من مناهل أدب العربية .

وما دام الأمر – في توجيه الأدب الإسلامي ، ومعرفة أسسه وقضاياه وتأصيل منهجه – يتوقف على معرفة موقف الإسلام من الأدب شعرا كان أو نثرا فإنه لابد من نظرة متأنية وتأمل طويل في مصدري التشريع الإسلامي الخالد : كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

نقول و الله المستعان ، أما كتاب الله تبارك و تعالى فهو كلام الله وكفى ، كتاب أنزل من لدن حكيم خبير ، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب كله عظات وأحكام و عبر ، كتاب عقيدة سماوية سمحة خالدة، لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرها منه ، كتاب تعبد الله به الأنس أجمعين ، والجن أجمعين ، وتحداهم به أجمعين .

أما صلته بشيء اسمه الأدب فمن خلال بلاغته السامية وإعجازه الثابت في الحرف و اللفظ والتركيب و الجملة و المعنى ، ومن خلال تصوره الشامل



للحياة ولا يصح – أبدا – أن يجعل كتاب الله مصدرا من مصادر الفكر ، لأنه كتاب حق من عند الحق منزل على من لا يقول إلا الحق ، والفكر و الأدب كلاهما يخضع للتهويمات والخيال و احتمال وقوع الشيء من عدم وقوعه ، وحاشا القرآن الكريم ذلك .

ووجه الصلة – هنا – للإفادة والاستفادة من كتاب الله – هو قول الله تبارك و تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

ولكي نوضح الصلة بين القرآن الكريم و بين الأدب الإسلامي ومدي إفادة الأدباء من هذا الأصل المتين يحسن أن نورد شيئا من كلام الأدباء و الأنبياء ممن يتصف أدبهم بالنزعة الإسلامية .

قال أبو إسحاق صاحب " زهره الآداب " هذه أمثال للعرب و العجم والخاصة والعامة استقاها أصحابها من كتاب الله تعالى مما هو أعلى وأجمل و أشرف من كلامهم : أوردها الثعالبي وساقها في كتاب "يتيمة الدهر في

---

(١) الآيات ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ - ٢٧ من سورة إبراهيم



محاسن أهل العصر " قال : قال على رضي الله عنه :" القتل أنفي للقتل " وفي القرآن ما هو أفصح و أبلغ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ قال : والعرب تقوله لمن يعير غيره بما هو فيه : " عير بجير بره ، نسى بجير خبره .

وفي القرآن : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾

وفي معاودة العقوبة عند معاودة الذنب ، تقول العرب . (إن عادت العقرب عدنا لها ، وفي القرآن : ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وإن تعودوا نعد ، وتقول العرب في ذوق الجاني وبال أمره : يداك أوكتا وفوك تفخ " ، وفي القرآن : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ، وفي قرب الغد من اليوم يقول شاعرهم :

" وإن غدا لناظره قريب " ، وفي القرآن : ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ ثلاث لفظات فقط .

وقالوا في ظهور الحق : قد وضح الأمر لذي عينين ، وفي القرآن قول الله تعالى : ﴿الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ .. وقالوا في الإساءة لمن لا يقبل الإحسان : "أعط أخاك تمرة فإن أبى فجمرة، وفي القرآن : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

وفي فوت الأمر قالوا : " سبق السيف العذل " وفي القرآن قول الله تعالى : ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ... وقالوا في الوصول إلى المراد ببذل الرغاب.





"ومن ينكح الحسناء يعط مهرها" . يقول الله في كتابه : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾

وفي منع الرجل مراده يقول صخر بن عمرو أخو الخنساء :

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه　　　وقد حيل بين العير و النزوان

وفي القرآن الكريم : ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾

وقالوا في تلافي الإساءة : " عاد غيث على ما أفسد " ، وفي القرآن الكريم : ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ ، وفي الاختصاص قالوا : " لكل مقام مقال ، وفي القرآن : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾

وقالت العامة : من حفر لأخيه بئرا وقع فيها " ، وفي القرآن : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ .

ومن الشعر قولهم :

كل امرئ يشبهه فعله　　　ما يفعل المرء فهو أهله

وفي القرآن يقول الحق تبارك و تعالى : ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾

ومن كلام العامة : المأمول خير من المأكول ، وفي القرآن : ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ ومن جيد كلام العجم : " كل شاه تناط برجلها "

وفي القرآن الكريم :



﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ (١)

وهذه الفوائد التي مر ذكرها كلها مستوحاة من كتاب الله الذي لا يند عن علمه شيء. وإيرادها في هذا المقام ليس للمقارنة، ولا للموازنة ولا للمماثلة، وأننا نعلم علم اليقين أن كتاب الله تعالى كتاب لا يشبهه كلام مهما كان من البلاغة و الفصاحة و البيان .فالكلمة الواحدة منه تأتي واسطة العقد وجوهره الثمين ومعناه الشريف . ولا يملك بليغ أو أديب إلا أن يقول : القرآن كلام الله وكفى .

أما حديث المصطفى ﷺ وكل ما صدر عنه من قول فلا شك أنه المصدر الثاني للتشريع لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا الحق . ويمكن لكل أديب إسلامي أو قل لكل أديب ينزع من أدب إسلامي . غائي نبيل هادف يمكن أن يفيد و يستفيد من كلام النبوة في معرض القول لفظا لفظا ، وجملة جملة وتركيبا تركيبا وفي الفكرة و الصورة والمعني بل و العاطفة المشبوبة الصادقة . و التخييل الحسن .

ذلك لأن كلام رسول الله ﷺ كما وصفه الجاحظ من عمالقة الفكر والأدب هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل من الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك و تعالى قل يا محمد :

---

(١) زهر الآداب و ثمر الألباب للحصري جـ٤ ص ١١٠٦ وما بعدها تحققيق محمد محيي الدين عبد الحميد وشرح د / زكي مبارك ط الرابطة دار الجيل بيروت .

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ ، فكيف وقد عاب التشديق ،وجانب أصحاب التعقيب ، واستعمل المبسوط في موضع البسط . والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ورغب في الهجين السوقي . فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد . وبسر بالتوفيق . وهو الكلام الذي ألقي الله تعالى عليه المحبة وغشاه بالقبول ،وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم . ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب بل يبز الخطب الطوال بالكلم القصار ، لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفنج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ كثيرا "[1]

وفي هذا التمهيد لا يمكن أن نبسط الكلام على نظرية هذا اللون الأدبي لأن التمهيد مدخل لما سيقرره الباحث من موضوعات أخرى يتناولها بالتفصيل ، ومن هنا تبرز أسئلة كثيرة ، وعلامات استفهام كبيرة حول الأدب

---

(١) البيان و التبين للجاحظ ج٢ص١٧ ،١٨ تحقيق وشرح عبد السلام هارون .

الإسلامي أصوله و مناهجه ، وموضوعاته و أغراضه ، خصائصه ومميزاته ، تصوره للإنسان تصوره للحياة ، تصوره للكون ، تصوره للحياة الآخرة ، أخلاقيته وموقفة من العلاقة بين الجنسين ، قديمه و حديثه ومعاصرته وكذلك الشأن من حيث ثبوته بين المدارس الأدبية . استمرار عطائه ونفعه وجدواه ، أراد النقاد حول هذا الأدب ، المغرضون ومدرسة الفكر الإسلامي التائهون و المتطرفون ، المصيبون المعتدلون .

كل هذه القضايا إثارتها أمر غريب و عجيب ، وأغرب منها وأعجب إلحاح كثير من المتأدبين في السؤال عن مدى وجود الأدب الإسلامي واختصاصه بتصور عام للحياة و الكون و الإنسان ، ووجه الغرابة أن كيف يتساءل ويسأل هؤلاء عن صحة التسمية ، ووجود المسمى ؟ وكيف يسأل هؤلاء عن ذلك كله ؟ وهم يعلمون علم اليقين أن لا صلاح ولا فلاح لإنسان هذه الأرض إلا باتخاذ الإسلام دينا و منهج حياة ، لأنه المنهج الوسط في كل شيء ، وأهله هم الوسط في كل شيء ، وعن هذه الأسئلة الكثيرة ، وعلامات الاستفهام الكبيرة ، وعن هذه القضايا ، ومن خلال مسالة تنظير الأدب الإسلامي ومنهجته وتطبيقه لابد من التدليل على الصحة وعدمها وتفنيد أضدادها ، لينطلق الأديب المسلم من خلال عطائه الأدبي متيقنا بأنه الأديب الذي يعطى بقدر ما يعرف ، ويجيب بقدر ما يعلم ، ويسهم بقدر ما يستطيع مؤمنا بأنه لا يدوم إلا الحق ، ولا يصح إلا الصحيح .

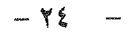




ومن الجيد النافع لبسط موضوع الأدب الإسلامي بين النظرية و التطبيق أن نناقش – أولا – مسألة الصراع بين الحق و الباطل بين البشر منذ أن بزغت شمس الإسلام ، وجاء رسول الله ﷺ لحمل رسالة دين الله ونشرها وتطبيق أحكامها . وبيان أنها النظام الشامل الشافي الكافي الذي لا تصلح حياة بدونه مهما بلغ الفرد و المجتمع في حياتهما من تمدن ورقي .

وهذه أشارات مقتضبة عن واقع الأدب الإسلامي بين القوى المتصارعة والتيارات المعاكسة لشيء اسمه الفكر الإسلامي ، لتتضح رؤية التنظير والتطبيق لهذا الأدب .

لقد صاحب الدعوة الإسلامية منذ فجر تاريخها العريق كثير من القوى المناوءة والتيارات المغرضة التي لا هم لها ولا هدف ولا غرض سوى القضاء على الإسلام وفكره وأدبه و نظامه المشرع للحياة والأحياء ، ومعلوم أن الإسلام في عطائه ينبع من مصدر واضح جلي لا يخفيه عن الأبصار إلا هذه القوى المغرضة أما كونه واضحا جليا فلأن مصدره هو القرآن الكريم و السنة النبوية، وأما أن القوى تسلط عليه لتخفيه فهذا أمر معروف لكل من تأمل وتدبر وأمعن لأن الخير لا يتضح إلا بجانب الشر ، وقديما قيل : إذا رأيت الشر فاحكم بأن تحته الخير ، فإذا أستفحل الكفر فاعلم بأن الإيمان قوي إذ هو سبب استفحال الكفر ليصد الإيمان وأهله عنه ، ويشير القرآن إلى صحة هذه القاعدة " الخير و الشر في صراع " هذه الإشارة القرآنية نلحظها في قول الله عز



وجل : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، أي مثل الحق ، ومثل الباطل فالزبد مثال أو مثل لظاهرة الشر الذي يسيره الكفر ويدعو إليه فهذا المبدأ الخيري يحاول الشر بفعل الكفر أن يستره و يخفيه ويقف ضده ، وإذا رأيت الشر فاحكم بأن معه الخير ، فالزبد شر يقع على القشرة من العلو ، وأما ما ينفع الناس فهو الخير الصراح الذي يمكث في التحتية ليخصب العلو ومن عليه ويمدها بالخير ، والصراع العقدي الذي تشب أواره شياطين الأنس و الجن موجود منذ أوجد الله تعالى الخليقة ، لأنه سبق في علمه المحيط بكل شيء أن تلك الظواهر من المخلوقات لا يتم نفع بعضها لبعض إلا بوجود ما يناقضها أو يضاهيها ، ومن هنا يأتي المعنى الكبير و المغزى المقصود من امتحان الخلق وابتلائهم بالصبر و الامتثال.

وإذا كان هذا في جانب العقيدة فهو في جانب الحياة الفكرية و الأدبية أوسع وأرحب وأعظم خطرا ، لأن الفكر والأدب معينان يملأهما اللسان ، واللسان كثيرا ما يفوت الطلبة الحسنة على صاحبه لأنه مظنة الشر كما هو مظنة الخير سواء بسواء ، أما ما يتعلق بجانب العقيدة فللسان أثره وللقلب أثره وللروح أثرها وللعقل أثره وللنفس أثرها في إمداد الجانب العقدي سلبا وإيجابا امتثالا وانتهاء عملا وإتباعا .

وصدق رسول الله ﷺ " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب .

وإذا تأملنا في هذا الصراع العقدي الفكري وجدنا أن شباب الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية إلى جيل العصر الحاضر هم محور هذه القضية في الأدب الإسلامي نظرا لما يشكله شباب الأمة من قوة فتية تقف أمام القوة الشريرة المناوئة فتحاول أن تخطف الشباب ، وتحاول أن تصده بمغرياتها متى عجزت عن أخذه بوسائل قمعها وتعذيبها ، ودليل تلك القضية ما لقيه الشباب المسلم في عهد محمد ﷺ على يد الكفرة المشركين الضالين الذين أبوا الإسلام واتبعوا دين أبائهم ، . فما الذي لقيه صهيب الرومي ؟ وسلمان الفارسي ؟ وما الذي لقيه خباب وبلال و عمار ؟ وتعود هذه القضية مجلية بخيلها ورجلها لتملأ السجون بشباب الإسلام عبر قرون طويلة إلى اليوم فما الذي يلاقيه شباب الأمة في حربنا مع العدو في أفغانستان وفي فلسطين ؟ وفي الحرب النفسية التي يشب أوارها أقلام المفكرين من الأدباء شيبا و شبانا ؟ لا لشيء إلا لإزهاق الباطل وإظهار الحق و السير بالناس على الصراط المستقيم. صراط الله الذي له الملك في السموات و الأرض ، الصراط الذي أنعم به الله تعالى على النبيين و الصديقين والشهداء و الصالحين وهذه القضية من أكبر القضايا ومن أجل الأغراض التي ينزع عنها الأدب الإسلامي ، وإذا كان مما يعين على رسم صورة لنظرية الأدب الإسلامي الوقوف على أغراضه وفنونه فإن مما يصح ذكره أن نقول : إن الأدب الإسلامي في عموم أغراضه وفنونه لا

يختلف عن وظيفة الأدب بمعناه العام النافع السليم ، ذلك لأن الأدب من منظور إسلامي هو محاولة وضع الشيء في مساره الصحيح شكلا ومضمونا .

والإسلام دين الفطرة – فطرة الله الذي خلق كل شيء ، وتمشيا مع تلك الفطرة السليمة حدد الإسلام كل ما يتصل بحياة المسلم . وما يصلحه في معاشه ، وينفعه في معاده وهو بذلك يرسم للأديب طريقة سليمة ، وجادة واضحة ينطلق منها إلى ميدان العطاء من خلال الكلمة الطيبة الصادقة المعبرة ، فيحمله إلى أن يميز الكريم من اللئيم ، و الطيب من الخبيث ، ويقطع حجة كل جدل خصيم وتحامل كل معتد أثيم ، وأول ما يجب أن يعني به الأديب المسلم في الغرض والهدف والغاية من الكلمة أن يجيء فنه الأدبي زاخرا بعظيم حق الله تعالى على عباده ، وثقل أمانته على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على شرائعه .

فكان لزاما أن يعني الأديب ببسط الأركان الخمسة التي ينبني عليها الإسلام ، وشرحها وتقريب مفهومها للمتلقين ، ليقوم المسلم بأداء كل ركن على الوجه الذي شرعه الله وسنة رسوله ﷺ ، وأقرب مثال على ذلك طريقة الرسول الكريم في تربية المسلمين على كيفيه القيام بأركان الإسلام وأدائها وفي جملتها الصلاة ، فاستمع إلى قوله ﷺ من حديث المسيء صلاته : أرجع فصل فانك لم تصل .





فهنا تحرك العواطف بشيء من الحزم ، على الرغم أن الموقف موقف عبادة امتثله صاحبه عن رضا و طيب خاطر ، ولكن لابد من شيء من الحزم ليهيئ ذلك الرجل المسيء صلاته ، كل جوارحه فيتعلم شعائر دينه ممن لا ينطق عن الهوى .

وليس بمنتظر من الأديب في أغراض أدبه وفنونه أن يأتي بمثل ما أتى به رسول الله ﷺ لأن الرسول الكريم إنما يزود بالمعارف الربانية من عند الله تعالى، ولكن على الأديب المسلم أن يسلك الطريقة المثلي في العطاء الأدبي وأسلوب التأثير .

ويسير – جدا – على الأديب المسلم أن يبين للناس بعض الحكم و الأسباب التي من أجلها شرع هذا الحكم – مثلا- وسن هذا و حرم ذلك واقرب مثال على ذلك مشروعية الصيام ، ففي استطاعة الأديب أن يبين أن ليس الصوم ركنا للدين فقط ، بل هو كذلك ركن للحياة السليمة الصحيحة ، لأن الحياة تتكون من عنصرين : هما الجسد و الروح ، ولكل منهما غذاء من نوعه فغذاء الجسد مادي ، وغذاء الروح معنوي يأتي في جانب الصوم من خلال الصبر على احتمال التكاليف و المرونة على مدافعة الشهوات .

وقل مثل ذلك في سائر الأركان الخمسة، وفي كل ما ندب إليه الشارع الحكيم ﷺ ، وفي كل ما نهى عنه الشارع الحكيم ﷺ ، فأين الأديب المسلم من تبين خطر الربا ؟ مثلا – أينه في أغراضه الأدبية وموضوعاتها من بيان خطورة





هذا التعامل، هذا الأسلوب في البيع و الشراء وما هو من البيع و الشراء المباح في شيء ؟

أين الأديب المسلم في كيفية معاملة أهل الكتاب ؟ أين الأديب المسلم من كيفية التعامل مع الفرد المسلم ومع الجماعة المسلمة في جميع الأشياء ؟ أين الأديب المسلم في بيان الكيفية السليمة لبسط التربية الإسلامية للناشئة وتوجيه الشباب ؟ كل هذه الأغراض من صميم أغراض الأدب الإسلامي لكنها تختلف في طريقة العطاء عند الأدباء أنفسهم ، إذا فحري بالأديب المسلم أن يحلق بالمتلقين في سماء هذه الأغراض ذات الغايات النبيلة فيحدث سامعه ويقرئ الناظر في كتابه بيتا من الشعر أو سطرا من النثر عن هذه المعاني ، إليك – مثلا – الجهاد ذلك الموضوع الذي شرعه الإسلام وجعله مفتوح الباب إلى يوم القيامة من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله وما لهم من حقوق في الدنيا و الدين ، ودليل استمرار فضيلة الجهاد قول رسول الله ﷺ حين سئل أي الناس أفضل ؟ : " مؤمن يجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله " ، فانظر إلى التعبير بلفظة " يجاهد " حيث جاءت بصيغة المضارع وفي ذلك معنى التجدد والحدوث و الاستمرار .

وليحدثنا الأديب المسلم عن كل ما يتفرع عن الجهاد : عن معاملة الأسرى .. عن قسمة الغنائم .. عن الثبات و الثبوت في صفوف المسلمين عن مقارعة العدو .. عن الوفاء بالعهد ..عن التزود بما يجب أن يكون عليه





المجاهد.. عن مفهوم كلمة : الجهاد ، ومفهوم كلمة الحرب ، عن الغدر والخيانة .. عن الخدعة ومفهومها عن كل ما يتصل بأطراف هذا الموضوع .

وليحدثنا الأديب المسلم عن موضوع : الإيمان بالله تعالى جملة و تفصيلا و ليحدثنا الأديب المسلم عن معنى النصيحة لله ، ولرسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وليحدثنا الأديب المسلم عن بر الوالدين وصلة الرحم ، والسعي على الأرملة و اليتيم ، وأداء الحقوق لأهلها ، ورد المظالم إلى أصحابها .

وما أجمل أن يحلق الأديب في أفاق هذه الأغراض وتلك المثل العليا التي أسداها الإسلام إلى الناس أجمعين ، أسداها بمثله الرشيدة ، وأحكامه العادلة ، وهل كان الأدب في عموم أغراضه ومعانيه إلا التعبير عن قيم حية يتفاعل مع تجربتها الأديب من خلال ارتباط وثيق موثق بين الإنسان و الكون و الحياة ؟ يصله هذا الارتباط بخالق الكون ومن عليه اللهم نعم .

فتعرف يابن أمي في العقيدة

يا أخا الإسلام في الأرض المديدة

وتجرد لانطلاقات بعيدة

وتوقعها جراحات جديدة

فهي طوبي واختبارت مجيدة





وتساءل عنها اليوم قصيدة

ما حياة المرء من غير عقيدة[1]

وسنبسط الكلام على أصول الأدب الإسلامي وأغراضه وفنونه في موضع أخر من هذه الدراسة و الذي يحسن أن نوضحه – هنا- هو ما يتعلق بنظرية هذا الأدب و تطبيقه .

إنه من خلال هذا الصراع الأدبي ، ومن خلال تعرفنا على رسالة الأدب الإسلامي يمكن القول : بأن مسألة نظرية هذا اللون من الأدب يجب أن تكون حصاد جهود مكثفة في مجالات متعددة فلا تشمل – فقط – الدراسات الأدبية بفروعها من التاريخ و النقد والدراسات الأدبية المقارنة[2] .

ولابد من مراعاة وحدات أربع لتصح النظرية وتحصل الثمرة هذه الوحدات هي: الحقيقة أو العالم الذي يعبر عنه الأدب ، المتلقي لهذا العالم الأدبي ، الأديب نفسه ، نص العمل الأدبي .

وما دام الأمر كذلك ، فيجب أن نفهم ونؤمن بقضية لها خطرها وأثرها تلك القضية هي : الإقناع والتسليم بوجود أسس متينة تبنى عليها معطيات الحياة البشرية ومقوماتها في مختلف ميادين الحياة سواء فيما كان مجاله العلم أو فيما كان مجاله الفكر و الأدب . فالحياة الاقتصادية ، والحياة

---

(١) من قضايا الأدب الإسلامي للدكتور / صالح آدم بيلو ص ١٠٧ دار المنار جدة - الأولى .

(٢) نحو نظرية للأدب الإسلامي للدكتور / محمد حمدون ص٩ ، ٣٥ ط الأولى دار المنهل ، جدة .

العلمية والحياة الاجتماعية كل ذلك كان مبنيا في وجوده على أسس تنهض به ربما يعيده إذا إخلولق أو ضعف وضع نظرية جديدة تقومه و تعيده ، وقل مثل ذلك عن الحياة الفكرية و الأدبية فإنه لا يختلف اثنان على أنه قد كان للأمة العربية والإسلامية حياتها الفكرية والأدبية أسس شيدت عليها معالم فكرها وأدبها حتى إذا ما إخلولق عطاؤها الفكري و الأدبي جاءت إلى وضع نظرية لهذا اللون من الأدب كما هو الحال في الأدب الإسلامي ، فإنه لما تنبه المسلمون إلى خطورة الموقف في حياتهم الفكرية والاقتصادية والاجتماعية و السياسية وإلى بعد هذه المعطيات عن نظام الإسلام بتأثير من تغريب العوام ، تنبهوا إلى خطورة تغريب الحياة الفنية و الأدبية ، الأمر الذي فتح لعلمائهم وأدبائهم ومفكريهم وضع نظريات إسلامية في الفكر و الاقتصاد و الاجتماع والسياسة ، وإلى محاولة جادة تعمل على إيجاد نظرية إسلامية للفن و الأدب[1] وإذا أردنا أن نعرف أبعاد النظرية الإسلامية لرسم الخطوط الدقيقة والعريضة لمنهجة الأدب الإسلامي ثم لمرحلة تطبيقية ، فإن لتصور هذه الأبعاد ولتصور هذه النظرية ، ولرسم هذه الخطوط حتى تصل مرحلة التطبيق.

معالم و خصائص تراعي في الموضوعات التالية :

١ – نظرة الأدب الإسلامي تصحيح للعلاقة بين الأدب و العقيدة .

٢ – نظرية الأدب الإسلامي تحقيق للتوافق بين العقيدة و الحس الأدبي .

---

(١) مقدمة نظرية الأدب الإسلامي ط الأولي ص٩ الدكتور / عبد الباسط بدر .



٣ – نظرية الأدب الإسلامي حماية للقيم الفنية .

٤ – نظرية الأدب الإسلامي حاجة ملحة[١] .

وإذا أردنا تطبيق هذه النظرية على هذه الموضوعات دراسة و بحثا فإنه لابد من كلام مستفيض على هذه الموضوعات واحدة واحدة ، ولعل من أوثقها صلة بنظرية الأدب الإسلامي موضوع " نظرية الأدب الإسلامي حماية للقيم الفنية، وهذا يتطلب الوقوف على معرفة الخصائص الفنية التالية :

١ – التجربة الشعورية .

٢ – ألفاظ النص الأدبي .

٣ – معاني النص الأدبي .

٤ – مراعاة الصلة بين موضوع النص الأدبي وتوجيهات العقيدة الإسلامية.

وأول ما يحسن التنبيه عليه هو " معرفة الكيفية التي بها يولد النص الأدبي قصيدة كان أو مسرحية أو غير ذلك ؟

إن كل من عانى مخاض الأدب في نفسه يجيب عن هذا السؤال بما يدل على أنه وجد في أعماقه شيئا مبهما تفاعل أو تفاقم بفعل مؤثرات خارجية أو داخلية ، ثم وجد طريقه إلى خارج الذات ، وهذا هو ما يعرف " بالتجربة الشعورية " التي هي رصيد إنساني عام يشترك فيه البشر بنسب متفاوتة ، ولكن

(١) المصدر السابق ص٤٤ وما بعدها .





الأديب يتميز بتوقد الانفعال فيها وبالقدرة على التعبير عنها بأدوات لغوية مناسبة[1] .

وحول التجربة الشعورية عند الأدباء القدماء ، يقول ابن رشيق القيرواني: إنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، ويفسر ابن رشيق التجربة بنتائجها ، وينظر إلى ما يأتي به الشاعر من معني مولد ، ولفظ مبتدع ، فيقول : إذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى واختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطال سطره من الألفاظ أو صرف معني إلى وجه أخر كان أسم الشاعر عليه تجاوزا ولم يكن له إلا اللفظ و الوزن[2] .

ونلحظ مفهوما أخر للتجربة الشعورية حيث يوصي أبو تمام الشعراء على استخراج القصائد من أعماقهم مما يعينهم على إذكاء تجربتهم و حسن التعبير عنها ، وفي المعاصرين عدد من الأدباء عالجوا فكره أو موضوع التجربة الشعورية يقول الأستاذ الأديب شفيق جبري : اترك الذهن في أثناء الكتابة على سجيته يطرح الأفكار ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، وما اذكر أني كنت أقف في طرح الأفكار أو كنت أعني باختيار الألفاظ ، وإنما كنت أسرع الإسراع كله فكانت الأفكار يدفع بعضها بعضا ، وكانت الألفاظ يجر بعضها بعضا ، فإذا هدأ الذهن بعد هيجانه وأتيت على الموضوع كله طويت الورق ساعات أو

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ ،١٦ .

(٢) المرجع السابق للدكتور / عبد الباسط بدر ص١٦ ، ١٧ نقلا عن كتاب العمدة لأبن رشيق .



يوما أو يومين ثم عدت إلى موضوعي بعد هذا الزمن فإذا وجدت لفظا في غير محله نقلته ، وإذا وجدت لفظا لا يصور ما أريد أحسن تصوير غيرته[1] .

ومن الأسس المتينة القوية الثابتة التي تقوم عليها نظرية الأدب الإسلامي وصحة وجوده بين الآداب ، موضوعات العقيدة ، تلك الموضوعات التي تبنى ولا تهدم ، فهي قيم أخلاقية رفيعة ليس هذا مجال حصرها و تعدادها .

ولكننا سنقف على شيء من هذه الأسس التي تنبني عليها النظرية القائمة اليوم ، أعني نظرية الأدب الإسلامي .

فهناك من الأسس التي عالج بها الأدباء والنقاد القدماء موضوعات الأدب خروج الأديب بوجه عام و الشاعر بوجه خاص على أهداف العقيدة و التقاليد المرعية فلقد أخذوا على ابن هانئ الأندلسي تجاوزاته العقدية وعابوه على استعانته على صلاح دنياه بفساد أخرته .

" وأقول في هذا الأساس المبنى المرعى . أعنى أساس مراعاة موضوعات الأدب المنطلقة من توجيه العقيدة مراعاة للقيم و التقاليد .

وأقول : ما أكثر هؤلاء النقاد و الأدباء في حياتنا الأدبية المعاصرة ممن يتسم في عطائه الأدبي بصلاح دنياه على حساب فساد أخرته ، فقد طغت المجاملات ، وكاد أن يعم خطرها ، فكثيرا ما يستحسن الرديء ويترك الجيد ، لا أقول يستقبح – فإن الأدب الجيد تفرضه جودته ، وقد كثر النفعيون

---

(١) المرجع السبق ص١٨ نقلا عن كتاب (أنا و النثر) لشفيق جبري .

المنتفعون الذين يكاد عيشهم لا يأتي إلا من خلال أدبهم ، وليكن ما يكن هذا الأدب ، يقول الناقد القديم عبد القاهر الجرجاني في هذا التوجيه السديد حين قرأ قول المتنبي ذلك القول المشتط في المبالغة :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

يقول عبد القاهر :

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الأغراب إلى أن يستعير للهزل و العبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس[1] ، ومعلوم أن عبد القاهر الجرجاني صاحب منهج نفسي في نقد الأدب إذ يعتمد في تقويمه للأعمال الأدبية على دعامة الذوق الفطري الذي ينبع من أعماق النفس البشرية في تصورها للأشياء حسنا و قبحا ومن ثم التعبير عنها بواسطة الفن الأدبي الذي الشعر واحد من فنونه الرفيعة .

وهذا يعني أن على الأديب مراعاة ما أوصى به نقاد الأدب عند نقل التجربة الشعورية بواسطة العبارة ، ومن وصاياهم في هذا الشأن ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر التي منها : " خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرف حسا ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف و معنى بديع.

---

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص٢٠٣ تصحيح محمد رشيد رضا .



وأعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة و المجاهدة ، وبالتكلف و المعاودة .. وإياك و التوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك .

ومن أرام معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف في اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما و يهجنهما .. فكن في ثلاث منازل / فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما وسهلا/ ويكون معناك ظاهرا مكشوفا و قريبا معروفا أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة إن كنت للعامة أردت .

ومدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال .. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ، ولطف تداخلك ، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تنزل على مستوى الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت هذه المنزلة لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها نافرة من موضعها . فلا تكره نفسك ولا تكره لفظك على اغتصاب الأماكن و النزول في غير مواطن الكلام ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، واختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفت



الألفاظ ولم تتخير محكم النسج والعبارة ولم تك حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك وما لك . عابك من أنت اقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك .

فإن ابتليت بأن تتكلف القول و تتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك وسواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث عرض ، ومن غير إهمال . فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك .. فالشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله . والنفوس لا تجود بمكنونها إلا مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة .

وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها و بين أقدار السامعين، و بين أقدار الحالات . فيجعل لكل طبقة من كلامه كلاما . ولكل حالة مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار الحالات[١] .

قال بشر بن المعتمر : فلما قرئت هذه الصحيفة على إبراهيم بن جبلة السكوني : قال : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان[٢] يعني الذين يعلمهم

---

(١) أنظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٤٠ تحقيق محمد البجاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) البيان العربي د / بدوي طبانه ص٧٩ وما بعدها ط الرابطة .



إبراهيم الخطابة و الأدب ونقول : إن هذه النظرية من النقاد القدماء إلى الأدب في مضامينه و مبانيه / نظرة سديدة صائبة . ذلك لأن الأدب قبل أن يكون صورة معبرة ، وفكرة مصورة ، وعاطفة مؤثرة ، وعقلا متحركا ، وقلبا نابضا ، وشعورا صادقا .فهو لفظ ومعنى قبل أن يكون على شكل الصورة المرسومة / والفكرة الموسومة ، فعلى الأديب أن يراعي خصائص ألفاظه و خصائص معانيه، عارفا بقدرة من يتكلم إليهم و يخاطبهم ولولا ذلك لكان الأدب شعرا أو نثرا من الكلام العادي الرخيص الذي يمكن أن يعبر عنه كل ناطق ولولا الفوارق بين الناس في المستوى العلمي و الثقافي ومردود الأثر ، لما عرف جاهل من عالم ، وأديب من متأدب ، و غبي من ذكي ، وحصر من فصيح ، ومبدع من مقلد ، ومبتكر من مكرر .

وإذا فلا غرابة أن يلح النقاد الأوائل على إتباع مقاييس النقد الأدبي في خصائص الألفاظ و الجمل و التراكيب و المعاني ، وان يجعلوا الحديث عن هذه المسائل من أكبر مقاييس النقد فوق ما للذوق من معيار يمكن أن توزن به الأعمال الأدبية جودة ورداءة .

وإن قيل : ما صلة هذه الآراء النقدية بالحديث عن التجربة الشعورية ، وبالكلام على نظرية الأدب الإسلامي ؟؟ فالجواب : إنه حين يقع الأديب تحت وطأة التجربة الشعورية فليس له من معبر إلى نقلها سوى العبارة الأدبية التي تتطلب مراعاة هذه الآراء بإتباع الخصائص الفنية المقومة لنصه الأدبي شعرا





أو نثرا ، وهذا يعني مرحلة تطبيق نظرية الأدب الغائي النبيل الهادف وأضرب به في الأدب الإسلامي ولهذه الخصائص الفنية لفظاً و معنىً وصورة إرهاصات أولي في الشعر الجاهلي أفاد منها شعراء الإسلام في نقلتهم الشعرية الإسلامية مما كون صرحا أدبيا إسلاميا خرج في نقلته من النظرية إلى التطبيق على النحو الذي سنتبينه في بعض النصوص من الشعر الجاهلي ثم الإسلامي "فقد جاء الشعر الجاهلي وليد البيئة العربية ما قبل الإسلام ، واستطاع تصوير حياة العرب من كافة جوانبها وبكل أبعادها ، فكان جديرا بان يسمى سجل العرب الحافل بأيامهم ومآثرهم و عاداتهم و تقاليدهم فمن ناحية الدين عبر الشعر عن الفراغ العقدي ذلك الفراغ المتمثل في عبادتهم الأصنام التي ظنوها تقربهم إلى الله زلفى وبين شده حاجتهم إلى دين صحيح ينتشلهم من غياهب الوثنية إلى توحيد الله الواحد القهار.

ومن الناحية السياسية رصد الشعر أبعاد السياسة و الحياة الخارجية للعرب - آنذاك موضحا أن العلاقة بين القبائل العربية . ما تكون واترا وموتورا إذ أن جذوة العصبية القبلية كانت على أشدها في ذاك العهد و كثير ا ما كانت تنشا حروب بينهم لأتفه الأسباب، كما كان للتفاخر والتباهي بالأنساب والأحساب أثر في إشعال الفتن و الحروب[1] التي لم يخمد أوزارها إلا الإسلام.

(١) الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ص ٥٧ د / زكريا عبد الرحمن صيام .



وكانت تلك الحياة مسرحا للشعر والشعراء حيث تصول الكلمة في شتى أغراض الشعر من فخر ومدح وهجاء ووصف وغزل واليك رائعة من عيون الشعر الجاهلي للنابغة في مديح الغساسنة

رفاق النعال طيب حجزاتهم يحبون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائد بينهم واكسيه الاضريح فوق المشاجب

يصونون أجسادا قديما نعيمها بخالصة الاردان خضر المناكب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقومي وإذا أعيت على مذاهبي[٢]

في هذه القصيدة يرسم الشاعر النابغة صورة لما عليه العرب في جاهليتهم سواء في الجزيرة العربية أو ما جاورها من بلدان يقطنها فبعضهم يعمل تجارة أو سياحة كالشام واليمن والعراق .وأن حكامهم يتميزون على حكام غيرهم من الأمم وذلك ببعد الصيت وحب الكرم والإيثار ودماثة الأخلاق والإيثار ودمائه الأخلاق وبساطة المظهر وعفتهم عن الخيانة. والزور والفحشاء وتواصيهم بتعهد الجار وصيانة العهد والوفاء به ومقت الغدر والخيانة .

وهذه الأخلاق مما اقره الإسلام في تشريعه السماوي فقد قال صلى الله عليه و سلم :إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وإليك رائعة حسان بن ثابت من

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١٢،١٣ تحقيق وشرح كرم البستاني دار صادر بيروت .





شعره الجاهلي فهي قصيدة ترسم صورة لمكارم الأخلاق التي كانت سائدة بين العرب وأقرها الإسلام : من هذه الرائعة قوله :

لنـا حاضـر فعـم وبـاد كأنـه ... شمـاريخ رضـوي عـزة وتكرمـا

نـود ذا المـال القليـل إذا بـدت ... مروءتـه فينـا وأن كـان معـدما

وإنا لنقري الضيف إن جاء طارقا ... من الشحم ما أضحى صحيحا مسلما

ومن روائع حسان ابن ثابت رضي الله عنه داليته العصماء في رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي من شعره الإسلامي ومنها :

بطيبـة رسـم للرسـول ومعهـد ... مـنير وقـد تعفـو الرسـوم وتهمـد

ولا تنمحـي الآيـات مـن دار حرمـة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضـح آيـات وبـاقي معـالم ... وربـع لـه فيـه مـصلى ومـسجدا

بهـا حجـرات كـان ينـزل وسـطها ... مـن الله نـور يستـضاء ويوقـد

معالم لم تطمس على العهد آياها ... أتاهـا البلـى فـالآى منهـا تجـدد

عرفـت بهـا رسـم الرسـول وعهـده ... وقـبرا بـه واراه في الـترب ملحـد

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد





وما بلغت من كل أمر عشيرة ولكن نفسي بعض ما فيه تحمد

أطالت وقوفا تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة عشية علوه الثري لا يوسد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور أعضد

وبعد أن يندب حسان ابن ثابت رضي الله عنه دموع الحزن على رسول الهدي صلوات الله و سلامه عليه، يعود في نفس شاعري طويل يعدد فيه مآثر رسول الله صلى الله عليه و سلم. وفضائله ومحامده على الإسلام والمسلمين فيقول :

وهل عدلت . يوما . رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

تقطع فيه منزل الوحي عنهم وقد كان نور يغور وينجد

يدل على الرحمن من يقتدي به وينفذ من هول الرزايا ويرشد

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات يقبل عذرهم وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

فحياتهم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا



عطوف عليهم لا يثنى جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فأصبح محمودا إلى الله راجعا ... يبكيه جفن المرسلات و يحمد[1]

وإذا أردنا أن ننظر على توافر الخصائص الفنية في هذا النصوص. ألفيناها موافقة لرأي قدامة بن جعفر وغيره من نقاد الأدب ، فالألفاظ ((تتسم بسهولة المخرج عليها رونق الفصاحة خالية من البشاعة))

وفى عروضها وأوزانها نلحظ سهولة العروض وعذوبة الروي وسلاسة المخرج والمعاني متوجة بما يمدح به الرجال من معاني العقل و العفة، والعدل والشجاعة ومن العقل المعرفة والبيان والكفاية والعلم ومن الصفة القناعة وطهارة الثوب وقلة الشره ومن العدل السماحة والعطاء وقرى الأضياف ، ومن الشجاعة القتال و المدافعة و المهابة.[2]

و هذه القيم الإنسانية الرفيعة التي عبر عنها النابغة وحسان رضي الله عنة من اشرف المعاني ومن أنبل الموضوعات و الأغراض التي هي من صميم الأدب الإسلامي في عموم أغراضه التي اقرها الإسلام وندب إليها و كثرة تلك النصوص شعرا و نثرا جاهلية و إسلاما مما يدل على حقيقة الأدب الإسلامي تجربة و عطاء سابقين لا نظرية فحسب.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص٣٥، ٤٥٥، ٤٥٦ جـ١ تحقيق الدكتور / وليد عرفات دار صادر ، بيروت

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر الرابعة بعدها تحقيق الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي – وانظر نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ص ٤٧ وما بعدها للدكتور/ محمد السعدي فرهود .



و الوقوف على تثبيت هذه التجربة ، وتأصيل هذا العطاء لهذا اللون من الأدب يستدعي الكلام بالتفصيل على شيء من فنون الأدب الإسلامي .. وهذا ما سندرسه في موضوعات الفصل الأول من هذا البحث لتتضح الرؤية بشكل أوسع فيما يتعلق بصحة وجود الأدب الإسلامي ، وانه أصبح أدبا انتقل في مرحلة المنهجة ، وتجاوز – أيضا- مرحلة (التنظير) إلى التطبيق من خلال عدد من النصوص البديعة شعرا و نثرا ، ومن خلال عدد من الدراسات الأدبية والنقدية قديماً وحديثاً.







الفصـــل الأول

نصـوص من الأدب الإسلامـي

في الخطــابة الإسلاميـــة

و الرســائل

و الوصــايا

و العهــود







إذا ذكرت كلمة (الفن) أو ألقيت على الأسماع عبارة (الفن الأدبي أو الفنون الأدبية) انصرف الذهن إلى ألوان الأدب شعراً ونثرا من قصيدة أو أنشودة أو مقطوعة أو ملحمة ومن خطبة إلى قصة و أقصوصة و خاطرة ومقالة و مسرحية إلى غير ذلك مما يؤديه فن العبارة كالأسطورة و اللغز و الأحجية و الذي يسبق هذه الألوان في ميدان الأدب و النقد هو معرفة القيم الفنية التي بها يقوم العمل الأدبي أيا كان نوعه.

ولعل أقرب المقاييس الفنية التي يوزن بها اللون الأدبي هو مقياس (الصنعة).

فلقد درس النقاد القدماء صناع الأدب من خلال البناء اللفظي والمعنوي وقامت على تلك النظرة النقدية دراسات وسعت خصائص الألفاظ والتراكيب و خصائص المعاني للنص الأدبي ، وما يتبع هذه الخصائص من جزئيات تقاس بمعيار الذوق و النظرة الشاملة .

فهذا أبو عمر الجاحظ يقرر الصنعة في الأدب و يرى أنها مهنة الأديب المطبوع شاعرا كان أو ناثرا ، وفي ذلك يقول: " الأدب جنس من الصناعة وضرب من التصوير " و يسمى أبو هلال العسكري كتابة في نقد الأدب " بالصناعتين يعني الشعر والنثر ، ويدرس عبد القاهر الجرجاني القيم الفنية لألفاظ ومعاني الأدب حتى يبلغ الشوط إلى مداه فيقرر مزية النص في النظم لا في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده.

ويدرس ابن سنان ا لخفاجي خصائص اللفظة المفردة فيوصلها إلى ثمانية أوصاف.

ويبني ابن الأثير كتابه " المثل السائر على مقدمتين:أولاهما في الصناعة اللفظية، وثانيتهما في الصناعة المعنوية[1] .

و قبل أن ندرس- بالتفصيل – فنون الأدب الإسلامي من خطبة و قصة وشعر يحسن أن نسوق بعض الشواهد من النصوص الإسلامية لنقف على شيء من خصائصها .

إليك من كلام العرب ما يقرع الخصم ، ويقطع الحجة ، ويثبت العقل ، ويستثير الحماس ، و يمتع العواطف ، ويلهب المشاعر . ويفيض بسحر البيان وأسر الجنان .

قال الخليفة المعتصم في كتاب له إلى عبد الله بن طاهر ، وكانت في نفس المعتصم عليه حزازة.

أما بعد: عافانا الله و إياك قد كانت في قلبي منك هنات غفرها الاقتدار، و بقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك . فإن أتاك ألف كتاب منى أستقدمك في كل واحد فلا تقدم . وحسبك معرفة بما أنا منطو لك عليه. . إطلاعي إياك على ما في ضميري منك و السلام.

---

(١) انظر هذه القضية وتفصيلاتها في : البيان والتبين للجاحظ جـ١ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري في باب النظم، وأسرار البلاغة لعبد الظاهر الجرجاني شرح فكرة النظم، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والمثل السائر لابن الأثير.



و طلب الحجاج إلى المهلب بن أبي صفرة أن اكتب لي عن خبر الوقيعة في خراسان ، واشرح لي القصة كأني أشاهدها . وعن خبر بنى المهلب وأيهم أشجع.. فأرسل المهلب إلى الحجاج كعبا بن معدان الأشعري فجاء من كلامه: أما بنو المهلب: فالمغيرة سيدهم وكفاك بيزيد فارسا وما لقي الأبطال مثل حبيب ،وما يستحى شجاع أن يفر من مدرك، وعبد الملك موت زعاف وسم ناقع ، وحسبك بالمفضل في النجدة، واستجهز قبيصة ، ومحمد ليث غاب . فقال الحجاج:ما أراك فضلت منهم واحداً عليهم. فأيهم أشجع من أخيه، قال كعب:هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .قال الحجاج: فأخبرني عن رضا الجند على المهلب، ورضا المهلب على الجند.

قال كعب:اعز الله الأمير للمهلب على جنده شفقة الوالد ولهم به بر الوالد.

وبعد فهذا غيض من فيض من كلام السادة والقادة فكيف بكلام أرباب اللسن والفصاحة وعلماء البيان وصناع الكلام وبخاصة من كان من فن الشعر فهو أقدر على التصوير.

إليك هذه المذهبة العينية لشاعر الإسلام الصحابي المجاهد كعب بن مالك الأنصاري، أبيات جديرة بالدراسة والنظرة الفاحصة إنها قصيدة لشاعر أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما له من مواقف تشهد بصدق إيمانه، ورسوخ العقيدة في نفسه هذه القصيدة نظمها كعب في الرد على عبد الله ابن





الزبعرى. اشتملت وحدتها العضوية على صور أدبية فنية صاغها- كعب رضي الله عنه- بريشة الشاعر المبدع فجاءت قصيدته خطابا للعقل والعاطفة متسمة بالواقعية والتاريخ والصدق الشعوري وهذه الخصائص مجتمعة تؤكد ثبوت الشعر الإسلامي وقوته وتفاعله وأثرة وتأثيره وإن ما يراه بعض النقاد قدماء ومعاصرين من أن الشعر الذي نظمه شعراء الإسلام من الرعيل الأول فقد بعض السمات الفنية من توهج العواطف، والإبداع في الصور، وسعة الخيال، وتميز بخصائص أخرى كفتور العاطفة، ونضوب الصورة، وضيق الخيال، والحكم العدل فيما ذهب إليه هؤلاء النقاد أن نطل على شيء من قصيدة كعب فهي البرهان على خلاف ما يرمي إليه هؤلاء.

يقول رضي الله عنه وأرضاه :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم	من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار وأعلام كان قتامها	من البعد نقع هامد متقطع
مجا لدنا عن ديننا كل فخمة	مذربة فيها القوانس تلمع
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم	من الناس و الأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها	سوانا لقد أجلوا بليل فاقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله	اعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع
نجالد لا تبقى علينا قبيلة	من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

وقال رسول الله لما بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيات وأطمعوا

فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى ... وليس لأمر حمه الله مدفع

ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خشب مصرع

ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمي الذمار ويمنع

بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله ... ولا نحن مما جرت الحرب نجزع[1]

إلى أخر ما قال كعب رضي الله عنه في هذه الرائعة الحماسية التي تقارب أبياتها خمسين بيتا كل بيت يعبر عن معنى سام شريف تتلاحق فيه الصور حتى كأن السامع يشاهد المعركة الإسلامية عيانا ولنقف على شيء من هذه الصور في عدد من أبيات هذه القصيدة.

في مطلع القصيدة تناول الشاعر تصوير المسافات التي قطعها الجيش الإسلامي انتصارا لدين الإسلام و نشره و الدعوة إليه .

و قد أبدع كعب في تصوير الأرض الموحشة التي قطعها الجيش المجاهد "فهي في شعره مصيدة لأقوى الجمال فلا يقدر على اجتيازها أي مسافر مهما بلغت راحلته من الصبر و التمرس على الأسفار ،موحشة لا أنيس فيها ولا رفيق.

و لكن سرعان ما يرسم في تعبيره صورة أخرى لهذه الأرض الموحشة. إنها مرتع خصب للظباء الخالصة البياض ولأسراب النعام و الطيور البرية ، فقد

(١) ديوان كعب بن مالك ٢٢٢ طبعة بغداد .



جمع / كعب في تصويره الشاعري بين نقيضين لصورة هذه الصحراء الواسعة الموحشة فهناك حياة الصمت الرهيب الذي لا يقطعه إلا دلاج في السير ، وهناك الشعاب المتناثرة التي لا يسكنها راجل أو راحل .

و بجانب هذه الصورة تجد صورة الحياة تعج بالحركة الدائبة التي تمتع النظر فهناك الظباء والطيور وأعداد من حيوانات البر تسرح و تمرح و ترتع في مواطن الكلأ ورياض السهل و الوعر .

به العين و الآرام يمشين خلفه   و بيض نعام قيضه يتقلع

و شبيه قول كعب في هذا البيت به العين و الآرام يمشين خلفه بقول زهير بن أبي سلمى :

بها العين و الآرام يمشين خلفه   و أطلاؤها ينهضن من كل مجثم

و معلوم أنه يبقى لزهير فضل السبق إلى هذه الصورة النابضة بالحياة والحركة.

يقول الدكتور / زكريا صيام. حول الصور التي رسمها كعب في قصيدته تلك :" ولا أدرى كيف تسنى لشاعر المدينة حيث الحضارة والاستقرار أن يأتي بصور بدوية. بل موغلة في البداوة و الغرابة لكنه خيال الشعراء الذي لا يحد أفقه شيء "(١)

---

(١) الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ص ١٤٣ د / زكريا عبد الرحمن صيام .





و يمكننا أن نأخذ من ملاحظة الدكتور / صيام معنى قدرة الشاعر المسلم على الإبداع في التصوير على حسب ما تقع علية حاسته، و على حسب ما يراه في ذهنه من مواقف ومشاهد.

فكعب في هذه القصيدة يقوى لفظه في رسم الصور التي تتطلب منزع القوة كهول الصحراء و سعتها ووحشتها ٠ وحين يرتبط شعوره بمشاهد الحضارة واللين نراه سهل اللفظ و واضح المعنى. حتى لكأن القارئ يحس أن مطلع القصيدة لون خاص بعيد عن وسطها وأخرها فهل تحس بصلابة أو غرابة أو وحشية.

في قوله من هذه القصيدة :

و فينا رسول الله نتبع أمره	إذا قال فينا القول لانتطلع
نشاوره فيها نريد وكلنا	إذا ما دعا- حتما – نطيع و نسمع
و قال رسول الله لما بدوا لنا	ذروا عنكم هول المنيات و اطمعوا
و كونوا كمن يشري الحياة تقربا	إلى ملك يحيا لديه و يرجع

فتأمل هل تجد في هذه الأبيات من قصيدة كعب لفظا غريبا، أو حرفا متنافرا، أو معنى غامضا.

إن هذه الأبيات جميعها تدل – في إطارها و مضمونها – على سعة قاموس لغة الشاعر، وخصوصا شاعرا مثل كعب بن زهير ذلك الصحابي الذي تخرج





في مدرسة المسلمين، مدرسة القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف مدرسة الرعيل الأول من المسلمين ، و من حذا حذوهم من أدباء ومفكري الإسلام إلى اليوم.

إن هذه الخصائص، التي تجمع بين سهولة اللفظ و عذوبته، و فخامته وقوته وبين وضوح المعنى وعمقه ، خصائص تصدق على الشعر الذي نبت و أينع في رياض الفكر الإسلامي .

و قامت عليه دراسات أدبية ونقدية قديمة وحديثة أولئك الأدباء، فكر أدبي زخرت به أمهات المصادر من مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ويتيمة الدهر للثعالبي وزهر الآداب للحصري والمثل السائر لابن الأثير ، وصبح الأعشى في صناعه الإنشاء للقلقشندي ، والطراز للعلوي. وكان ذلك الشعر قبلة النحاة في شواهدهم ، ومحط أنظار البلغاء في كلامهم والبلاغيين في بحوثهم ، و اللغويين في أثارهم. و النقاد في آرائهم .

وإذا كان الاستدلال يغري بذكر الكثير من عطاء أولئك الأدباء فهذه عبارات من جيد المنظوم والمنثور من كلام العرب أو ردها الحصري في كتابه:"زهر الآداب و ثمر الألباب ".

قال أبو إسحاق :

أهدى الكندي إلى بعض إخوانه سيفا صقيلا فكتب إليه :



((الحمد لله الذي خصك بمنافع كمنافع ما أهديت، وجعلك تهتز للمكارم اهتزاز الصارم وتمضى في الأمور مضاء حدة المأثور ، و تصون عرضك بالأرفاد ، كما تصان السيوف بالأغماد ، و يطرد ماء الحياة في صفحات خدك المشوف كما يشف الرونق في صفائح السيوف ، وتصقل شرفك بالعطيات كما تصقل متون المشرفيات "[1]

هذه العبارات التي ساقها أبو إسحاق الحصري من كلام أحد الأدباء. تتميز بخصائص فنية ثلاث :

أولها : تراوح الفقرات بين الطول و القصر و ثانيها اعتماد هذا الكتاب على أسلوب السجع الذي تبدو عليه مسحة من تكلف وثالثها أن طوع هذا الكاتب مباني كلماته لمعاني الغرض الذي يقصد إليه، وهذا من الخصائص الفنية التي يكاد كلام العرب أن لا يحيد عنها في أغلب الظروف والأحوال. وثمة خصوصية أخرى تميز بها كلام ذلك الأديب : إنها أسلوب الحقيقة. وهذا يعني أن الصور الأدبية تكتسب رواءها من أسلوب الحقيقة بقدر ما تكتسبها من أسلوب المجاز، ويعود تحقق هذه الخصوصية إلي قدرة الأديب علي تطويع كلماته و فق معانيها .

فأنظر إلى ما جرى من وفد الشام بين يدي المنصور، واستمع إلى كلام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري أحد الوافدين. فلسوف يتبين لك قدرة

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري جـ٣ص٨٢٨ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد شرح زكي مبارك .

الأديب على تخير الكلمات لما يمكن أن تحمله من معنى. يقول الحارث :((يا أمير المؤمنين : إنا لسنا وفد مباهاة ، ولكنا وفد توبة استخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، وبما سلف منا معتذرون ، فإن تعاقبنا فبها أجرمنا ، وإن تعف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء : قال أبو إسحاق : فقال له المنصور : أنت خطيب القوم ورد عليه ضياعه بالغوطة))[1]

هذه العبارات – شفعت لصاحبها ولمستمعيها من وفد الشام . شفعت لهم عند السلطان بطيب ألفاظها وتوفيق معانيها ، وسحر بيانها ، الذي أخذ بمجامع القلوب ، فصار إلى قبول توبة التائبين أنصف في حق المعتذرين .

((قال أبو إسحاق: ومن المواقف التي أنصفت صاحبها موقف تميم ابن جميل عند الخليفة المعتصم ، حدث أن قام تميم بن جميل بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثير من الأعراب فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتصم إلى مالك بن طوق في النهوض إليه ، فتبدد جمعه ، وظفر به موثقا إلى المعتصم. فقال أحد رجال الخليفة: ما رأيت رجلا عاين الموت فما هاله ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله مثل تميم بن جميل، فإنه لما مثل بين يدي المعتصم وأحضر السيف والنطع ووقف بينهما تأمله المعتصم- وكان جميلا وسيما- فأحب أن يعلم أين لسانه من منظره، فقال له : تكلم يا تميم .فقال تميم للخليفة:أما إذ أذنت يا أمير المؤمنين فأنا أقول:الحمد الله الذي أحسن

---

(١) المصدر السابق للحصري ص ٨٢٨ .



كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولم بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبل الحق، وأخمد بك فتنة الباطل إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة، وتثقل الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، فلم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إلى أشبههما بك وأولاهما بكرمك ثم أنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيثما أتلفت

واكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت

وأي امرئ يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت

كأني أرهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا

فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

يعز على الأوس بن خزرج موقف ... يسل عليّ السيف فيه وأسكت

وكم قائل لا يبعد الله روحه ... وآخر جذلان يسر ويشمت





قال أبو إسحاق: فتبسم المعتصم، وقال: يا جميل، قد وهبتك للصبية وغفرت لك الصبوة ، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفرات[1].

ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن أهم فنون الأدب الإسلامي منذ عهد النبوة وما وليه من عصور الأدب إلى عصر النهضة الحديثة،لا يتجاوز الكلام المنثور والمنظوم في إطار ألوان أدبية معينة من خطبة، ووصية، وعهد، وميثاق، ورسالة، وقصة، وتوقيعات، وشعر.

أما المسرحية فلون شاع وكثر في العصر الحديث، والقصة ويتبع المسرحية ألوان أخرى كالأقصوصة والخاطرة والأسطورة والمقالة، والقصة القصيرة.

و لم تعرف هذه الألوان الأخيرة وبخاصة فن المسرحية في حياة العرب الأدبية ، ولم تنشأ أثناء نقلتهم الإسلامية إلا في العصر الحديث ، غير أن القصة بمفهومها الأدبي وفوارقها الفنية التي تميزها عن الخطابة كانت من أهم فنون الأدب بعامة، والأدب الإسلامي بخاصة ويكفي – دليلا – علي ذلك اشتمال الأدب النبوي علي طائفة من القصص مما سنتحدث عنه بالتفصيل في موضع أخر من هذه الدراسة.

وإذا كانت الخطابة والقصة، والشعر هي أرحب ميدان لاستيعاب أغراض الأدب الإسلامي وموضوعاته فسنقصر الدراسة على هذه الألوان الثلاثة

---

(١) المصدر السابق للحصري ص٨٢٩ وما بعدها





مبتدئين بفن الخطابة فهي من أخطر فنون الأدب الإسلامي في حياة المسلمين منذ فجر الدعوة الإسلامية على يد محمد ﷺ ، وإلى اليوم ، مشيرين – باختصار شديد – إلى بعض الألوان الأدبية الأخرى :كالرسائل والوصايا والعهود .

وإذا كانت الخطابة العربية أسبق في الظهور من الشعر جاهلية وإسلاما فما أهم وبلاغتها، وما الخصائص الفنية التي تميزت بها في ألفاظها وجملها وتراكيبها ومعانيها وبلاغتها ،وما قيمتها الفنية في معايير النقد الأدبي ؟ ذلك ما سندرسه في الصفحات التالية، وقبل أن نتحدث عن هذه القضايا يحسن أن نلم بشيء عن تاريخ الخطابة عند العرب قبل الإسلام، وما كان لهذا الفن من أثر في حياتهم الاجتماعية والأدبية.

كانت الدوافع والأغراض لفن الخطابة عند الجاهليين تكاد لا تتجاوز الموضوعات التالية :((النعرة والحمية الجاهلية ، وشن الغارة مدافعة عن النفس والمال والعرض ، أو للتحريض علي السطو والسلب. ومن أهم موضوعاتها عندهم : المفاخرة بالشعر والنسب والحسب ، وقوة العصبية إلى جانب عدد من الخصال الحميدة : كالشجاعة والكرم والنجدة والإيثار وحماية الجار وإباء الضيم))[1] . وقد سارت الخطابة عند العرب في جاهليتهم سير الشعر في كثير من الأغراض والموضوعات، غير أن عنايتهم في أول الأمر

---

(١) الخطابة لعلى محفوظ ص١٨ط الرابعة .



كانت خاصة بالشعر دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر وسهولة حفظ المنظوم ولأن الخطابة فن قضت به طبيعة حياتهم المعيشية ودعت إليه حالتهم الاجتماعية فتفتقت بها ألسنتهم صيانة لعزها ، وحفظا لمجدها ، وتخليدا لمآثرها ، وتأييدا لمفاخرها[1] .

وعلى الرغم من قدم عنايتهم بالشعر دون الخطابة فانه قد نزل مستوى الشعر عندهم وعلا شأن الخطابة لما اتجه الشعراء إلي موضوعات تقلل من قيمتهم حيث استعملوا الشعر في ثلب الأنساب والطعن في الحرمات ، وهتك الأعراض وإثارة الضغائن ، واتخذوه وسيلة للعيش والتكسب .

و من أجل ذلك اتجه الخطباء بخطبهم في ذلك العصر إلى موضوعات ذات قيم إنسانية رفيعة بخلاف ما كان عليه الشعر ، فاستعملت الخطابة في تكريم الأشراف وتأبين العظماء، والصلح بين الفريقين.

ومن أهم الخصائص الفنية للخطب الجاهلية شدة الأسر و فخامة اللفظ، وإحكام الصنعة. المحافظة على أصالة اللغة، و التراوح بين الطول و القصر على حسب المقامات التي تساق فيها الخطبة وليس المقام هنا مقام تفصيل لدراسة الخطابة الجاهلية إذا الدراسة خاصة بموضوعات الأدب الإسلامي الذي من أصوله جيد المنظوم والمنثور من كلام العرب.

---

(١) المصدر السابق ص١٨.





غير أن هناك تشابها في موضوعات الخطابة عند العرب في جاهليتهم و في إسلامهم منذ فجر الدعوة الإسلامية و إلى اليوم، فهناك من الموضوعات التي جمعت بين القيم الإنسانية و القيم التعبيرية و الإرشاد.ي العصرين الجاهلي والإسلامي ما يلي :

- خطب الوفود.
- خطب الاستخلاف و الولاية.
- خطب الحرب .
- خطب الزواج.
- خطب المناظرة.
- الخطب الاجتماعية.

وكان مما اختص الإسلام به من هذه الخطب :

- خطب الفتوح.
- خطب الزواج .
- خطب الوعظ و الإرشاد .
- الخطب السياسية.
- الخطب العلمية.

وكانت موضوعات هذه الخطب عند العرب في جاهليتهم و في إسلامهم ذات تشابه تام في الخصائص الأسلوبية.





فمن أبرز الخصائص الفنية في هذا اللون من ألوان الأدب وبخاصة الأدب الإسلامي أسلوب الإقناع بالدليل و الحجة الواضحة و الموعظة الحسنة مع الوضوح الذي يكشف عن قصد الخطيب في غير تعميه ولا تضليل، وان تكون الخطبة من أقرب الطرق مجازا، وأبينها جوازا وسبيل الوضوح هو التعبير في سهولة وفى غير مغالطة ولا تعقيد.

وأن يتجنب الخطيب التكلف في سوق الأفكار فيتحاشا التوعر في اختيار الألفاظ[1] ، فمثل هذه الخصائص تسلم الخطيب إلى الإغراب الذي لا يصل به المعنى إلى ذهن السامع إلا بكد القرائح و الفطر إمعانا في فهم المعنى المراد ، وحول هذه الخصوصية يقول أبو هلال العسكري : (إذا جمع الكلام العذوبة ، والجزالة و السهولة و الرصانة ، مع السلاسة و النصاعة ،و أشتمل على الرونق والطلاوة و سلم من حيف التأليف ،و بعد عن سماجة التركيب قبله الفهم الثاقب ولم يرده ،و الفهم يأنس من الكلام بالمعروف ، ويسكن إلى المألوف، ويصغى إلى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخم، ويتأخر عن الجافي الغليظ ، وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد، ويستفحصونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ، وجاسيه غريبة ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا وأعز مطلبا)[2] ، إن تحقق هذه الخصائص مجتمعة تغرى

---

(١) الخطب و المواص٥٢،حمد عبد الغفص٦٣،ن ص٥٢ ،٥٣ دار المعارف مصر

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٦٣ ،٦٦ تحقيق على محمد الجاري وأبي الفضل إبراهيم .



بالمضي في الحديث عن الخطابة الإسلامية ذلك اللون الذي سبق الشعر في الظهور و التأثير ، وكان من أجمل فنون الأدب الإسلامي .

ولا أرى ما يدعو إلى دراسة تاريخ هذا اللون في الأدب فإنه صاحب ظهور الدعوة الإسلامية على يد محمد ﷺ وظل مرافقا للعطاء الأدبي طوال نشر الدعوة الإسلامية على يد القادة الفاتحين من رعيل الصحابة و التابعين والخلفاء و الولاة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يزل هذا اللون يساير النهضة الأدبية الحديثة عند طائفة كبيرة من المفكرين و الأدباء و المصلحين إلى اليوم.

و إذا أردنا أن نقف على خصائص هذا اللون الأدبي، وندرسه دراسة نقدية من منظور إسلامي فان في نصوصه عبر تاريخ الأدب العربي ما يدلل على عطاء الأدب الإسلامي ويبرهن على وجود أدب متميز ملتزم غائي نبيل هادف.

وإذا كان من أجود ما يجلى الخصائص الفنية للعمل الأدبي الوقوف على شيء من النصوص التي خلفها الرعيل الأول من المسلمين فأن في أدب الدعوة الإسلامية من النصوص الخطابية ما ينهض بدراسة أدبية نقدية كاملة .

وإذا كان الأدباء يتفاضلون في أعمالهم الأدبية شعرا ونثرا ، فأن إمام الفضل و الفضيلة في الأدب الإسلامي هو رسول الأمة و نبيها محمد ﷺ لأن أدبه هو ذلك الكلام الرفيع الذي لم يدرك شأوه بليغ ولا فصيح ، فلنقف على شيء من كلامه الشريف ضمن كلمات ليست من بوح الخاطر ، وليست في





الإبداع هواجس شاعر، ولا هي من تكلف المتفاصحين، ولا من مأثور البلغاء والبلاغيين، و إنما هي عقود مشذرة تعد واسطة العقد في الكلام، وجواهره في المعاني السامية الشريفة، لصدورها عن إمام العلم و الحكمة، ونبي الهدى والرحمة، ساق منها العلماء في أثارهم، واقتبس منها الأدباء في عطائهم وأوردها علماء اللغة و البيان شواهد على قواعدهم و أمثلتهم، فهي مدد فياض لا ينضب أبد الدهر.

أورد العالم الأديب يحيى بن حمزة العلوي، في كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز) ما لا يمل إذا أعيد : من ذلك قول رسول الله ﷺ : (لا تكونوا من اختدعته العاجلة، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، إنه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب أوصر حالب، فعلام تفرحون؟ وماذا تنتظرون ؟ فكأنكم بما أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن، وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل، فخذوا الأهبة لأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، وأعلموا أن كل امرئ على ما قدم قادم، وعلى ما خلف نادم.

حول هذا النص النبوي الكريم يقول العلوي :

فليعمل الناظر نظرة في هذا الكلام، فما أسلس ألفاظه على الألسنة، و ما أوقع معانيه على الأفئدة و ما احتوى عليه من التنبيه البالغ، و الوعظ الزاجر، و النصيحة النافعة، فقد صدره بالتحذير أولا عما يعرض من مصائب الدنيا



من الانخداع و الغرور، و الاستهواء، و عقبه- ثانيا – بالتحذير عن الركون إلى الدنيا ، ونبه بألطف عبارة وأوجزها على زوالها وانقطاعها ، واردفه – ثالثا – بالحث على عمل الآخرة واخذ الأهبة للزاد ، ثم ختمه بتحقيق الحال في الإقدام على ما فعله الإنسان من خير وشر ، وأنه نادم – لا محالة – على ما خلفه من الدنيا و انه غير نافع و لا مجد.

ومن محاسن هذا الكلام الذي كله درر : اشتماله على أنواع أربعة من فنون البديع ، أولها السجع في قوله ﷺ : العاجلة و الأمنية و الخدعة ، و الزوال و الانتقال ، وثانيها : (التجنيس) في قوله ﷺ كإناخة راكب أوصر حالب ، وثالثها (الاشتقاق) في قوله ﷺ : كل امرئ على ما قدم قادم ، وهذا من بلاغة القرآن الكريم يقول تبارك و تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [1] ورابعها : (الائتلاف) وهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمقصود فحيث كان المعنى فخما فاللفظ يكو ن جزلا كقوله ﷺ : (لا تكونوا كمن اختدعته العاجلة و غرته الأمنية و استهوته الخدعة) .

وان كان المعنى رشيقا اللفظ سهلا رقيقا كقول ﷺ : فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن ، وبما تصيرون إليه من الأجرة لم يزل قال العلوي: وهذه فرائد من كلامه ﷺ بما يتعلق بالقدرة والآداب :يقول من لاينطق عن الهوى: من عرف نفسه عرف ربه، ما هلك امرؤ عرف قدره ، رُب

---

(١) سورة الروم الآية ٤٣





حامل فقه غير فقيه، رُبَّ مبلغ أدعى من سامع، رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد، الطمع فقر واليأس عناء، إنه من خاف البيات أدلج في المسير وصل كرم الكتاب ختمه، الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

قال العلوي: فلينظر المتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلم القصيرة من المعاني الجمة، والنكت العديدة، مع نهاية البلاغ ووقع هذه الدرر في الفصاحة أحسن موقع[1]

ونضيف على ما ذكره العلوي فنقول:هذه الخصائص التي أشتمل عليها هذا الكلام النبوي إنما هي خصائص تتعلق بالإطار، فما الخصائص التي تتسم بها المعاني ؟ إن أول ما يطالعك من خصائص هذه الدرر في معانيها :اشتمالها على المعنى الكثير باللفظ القليل، مع بعد الغاية في المقصد وشرف المعنى وسموه ووضوحه وسلامته من التعمية الألغاز والغموض والتعقيد مع ما يتصف به في لفظه ومعناه من جزالة وفخامة، ومن رقة وعذوبة وهذه الخصائص مجتمعة قد لا تتحقق لمتكلم ما فكأنما هذا مما خص به كلام رسول الله ﷺ ولنا عود إلى الحديث عن كلام رسول الهدي ﷺ .

فلننتقل إلى شيء مما ذكره العلوي من كلام الصحابة الأجلاء وليكن ذلك مما أورده من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، يقول العلوي :قال أمير

(١) الطراز ليحيى بص١٦٨ . العلوي ص١٦٠ وما بعدها ج١ تصحيح سيد بن على المرصفي .



المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:نحن أمراء الكلام، وفينا تشبثت عروقه وعلينا تهدلت أغصانه قال العلوي: ومن كلامه - كرم الله وجهه- في معنى بدء الخليقة: فطر الله الخلائق بقدرته، ودبرها بحكمته ونشر الرياح برحمته ووتد بالصخور ميدان أرضه، ثم قال:أول الدين معرفته، وكمال معرفته توحيده وكمال توحيده التصديق به، وكمال التصديق به الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي صفات النقائض عنه.

ومن النوادر في الحكم والآداب قوله رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن فهذه اللفظة: لا يوازيها حكمة، ولا تقوم أمامها جملة، وقوله:المرء مخبوء تحت لسانه، والسعيد من وعظ بغيره، والمغبوط من سلم له دينه مصارع العقول تحت بروق الأطماع، بالبر يستعبد الحر، الطمع رق مؤبد،التفريط ثمرته الندامة[1].

وعن الخصائص الفنية لهذه الكلمات يقول العلوي فلنورد من كلامه أمثلة ثلاثة على مثال ما أوردناه من السنة النبوية، والقرآن الكريم ،لأن كلامه عليه مسحة وطلاوة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة ونفحة من الكلام النبوي ولقد أتى في توحيد الله تعالى وتنزيهه عن مشابهة الممكنات وبعده عن مماثلة المكونات ، بكلام ما سبقه إليه سابق ، ولا أتى بما يدانيه من تأخر بعده من تابع ولا لاحق.

---

(١) المصدر السابق ص١٦٨ .





من عرف كلام البلغاء في خطبهم ومواعظهم بعده كرم الله وجهه إلى يومنا هذا غير كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ علم قطعا لاشك فيه،أنهم قد أسفوا في البلاغة ، وقصروا في الفصاحة وسبق والعجيب من علما أعرفكم. والجماهير من حذاق المعنى حيث تغولوا في أودية البلاغة، وأعرضوا عن كلامه مع علمهم بأن الغاية التي لا رتبة فوقها ومنتهى كل مطلب، وغاية كل مقصد في جميع ما يطلبونه من الاستعارة والتمثيل والكناية، وغير ذلك من المجازات الرشيقة والمعاني اللطيفة الدقيقة[١].

ويؤيد توافر هذه الخصائص في النصوص ما أورده الجاحظ من الخطب لعلي ولغيره من خطباء الإسلام من ذلك خطبته- كرم الله وجهه - في الحث على الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله:

(أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف.ألا وأنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فو الله ما غزى قوم – قط- في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان وابن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالا صالحين، ولقد

(١) المصدر السابق ص ١٦٧.



بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينزع حجلها وقلبها ورعاثها . ثم انصرفوا وافرين، ما كلم رجل منهم كلما فلو أن رجلا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان عندي به ملوماً بل كان به عندي جديرا، فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا، حين صرتم هدفا يرمى وفيئا ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا إمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: حمارة القيظ. أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد، قلتم: أمهلنا ينسلخ عنا القر . كل ذا فراراً من الحر والقر . فإن كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم – والله – من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال، وودت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم . والله لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم. معرفة والله جرّت ندما. قد وريتم صدري غيظاً . وجرعتموني الموت أنفاسا ، وأفسدتم على رأيين بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش:ابن أبى طالب شجاع ولكن لأعلم له بالحرب . لله أبوهم . وهل منهم أشد لها مراسا، أو أطول لها تجربة مني ؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين، فهأنذا قد نيفت على الستين . ولكن لا رأي لمن لا يطاع[1] .

---

(١) البيان و التبيين للجاحظ جـ٢ ص٥٣ وما بعدها تحقيق وشرح عبد المصر.هارون والعقد الفريد لأبن عبد ربه جـ٤ص ١٣٦وما بعدها تحقيق محمد سعيد العريان .



وقبل أن نتحدث عن خصائص هذه الخطبة الإسلامية هناك أمر يحسن التنبيه عليه فيما يتعلق بصحة نسبة ما دون من الخطب إلى علي كرم الله وجهه . أقول في ما قيل: لقد حفظت كتب التراجم والسير وأمهات مصادر البلاغة والنقد والأدب عددا كبيرا من خطب الإمام على – كرم الله وجهه – غير أن أغلب هذه الخطب ليس من نسج كلامه، ولا من مكنون مراده وإنما هو من قبيل الكلام المصنوع المدخول عليه، وبخاصة ما كان الخطب التي بين دفتي كتاب (نهج البلاغة)فقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ أو من عمل أخيه الشريف الرضي المتوفى سنه ٤٠٦هـ

يقول ابن خلكان في ترجمة أوردها له بكتابه (وفيات الأعيان):(قد اختلفت الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضي وقد قيل : إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)[٢] ويردد هذا الكلام اليافعي في مرآة الجنان وابن العماد في شذرات الذهب ، ويؤكد الذهبي في ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذي وضعه، ويذهب مذهبه أبن حجر العسقلاني في(لسان العرب)حيث يقول:

---

(٢) انظر وفيات الأعيان لأبن خلكان جـ٣ ص٣١٣ تحقيق الدكتور / إحسان عباس – دار صادر / بيروت .

(من طالع نهج البلاغة جزم أنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ففيه السب الصراح والحط على السيدين : أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب كله باطل وذهب النجاشي ت ٤٥٠هـ في كتابه(الرجال)إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضي . وما ذهب إليه النجاشي هو الصحيح بشهادة الرضي نفسه وشهادة شراح كتابه ، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسمه باسمه ((البلاغة)) كما ذكر ذلك في كتاب ((مجازات الآثار النبوية))ويشير ابن أبي الحديد ت ٦٥٥هـ . في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضي ، ويذهب ابن هيثم البحراني في شرحه عليه إلي أنه من تأليف الشريف .

وعلى هذا فالكتاب من صنع الشريف الرضي، وظهر أنه ليس من عمله جميعا فقد أضاف إليه عدد كبير من أرباب الهوى خطبا كثيرة ، ودليل هذه الإضافات ما ذكره المسعودي في ((مروج الذهب))إذ يقول: ((الذي حفظ الناس عن على من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها علي البديهية تداول الناس ذلك عنة قولا وعملا. وكأن الشريف الرضي وجد مادة صاغ منها كتابه وهي مادة بنيت على السجع ، وفي ذلك ما يدل على كذب نسبتها إلى علي إذ ليس من الطبيعي أن يسجع علي في



خطابته، بينما ينهى الرسول الكريم ﷺ عن السجع، ويتحاشاه أبو بكر وعمر وعثمان في خطبهم رضي الله عنهم .

ومعنى هذا أنه لا يصح الاعتماد على هذا الكتاب أعني ((نهج البلاغة))في تصور خطابة علي رضي الله عنه ، وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى مثل: ((البيان والتبيين)) للجاحظ، فقد روى طرفاً من خطبه وكلامه ومواعظه ، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية إلى أن يكثر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وحثهم على القتال في سبيل مبدئهم وفكرتهم. [1]

ونقول حول هذه القضية: إن ما ذكره شوقي ضيف نقلا عن عدد من المصادر التاريخية والعلمية بشأن نسبة كتاب ((نهج البلاغة))إلى الإمام علي. ومدى صحة هذه النسبة من كذبها كلام موثق لا يحتمل الشك. غير أن ما علل به من حيث إن المادة العلمية في كتاب ((نهج البلاغة)) تعتمد على السجع، وعلي رضي الله عنه لا يسجع في خطابته لنهي رسول الله ﷺ عن السجع ، ولتحاشي أبي بكر وعمر وعثمان فن السجع في كلامهم ولهذا السبب يعد الكتاب من صنع الشريف الرضي .

إن هذا التعليل تنقصه النظرة العلمية الدقيقة فنهي رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما هو نهي عن السجع المتكلف الذي يعد من قبيل سجع الكهان كما قال صلى الله عليه و سلم: ((أسجعا كسجع الكهان)) .

(١) الفن و مذاهبه في النثر الفني د / شوقي ضيف ص ٦١ وما بعدها / ط الخامسة/ دار المعارف / مصر .



فلو قال شوقي ضيف إن اعتماد المادة العلمية لكتاب ((نهج البلاغة))على السجع المتكلف خطابته،أنه من صنع الشريف الرضي، لأنه من الطبيعي أن عليا رضي الله عنه لا يسجع في خطابته ،وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السجع المتكلف و تحاشاه أبو بكر وعمر و عثمان لو قال ذلك لكان تعليله أقرب إلى الصحة و القبول لأننا نجد في كلام كثير من الخلفاء والصحابة سجعا مقبولا غير متكلف .

أما الخصائص الفنية التي أشتمل عليها نص خطبة الإمام علي رضي الله عنه في الحث على الجهاد .

فان أول ما يطالعنا تلك الخصوصية التي هي من شأن كل خطبة إسلامية منذ أن تعلم المسلمون طرائق التعبير على يد محمد صلى الله عليه وسلم تلك الخصوصية هي بدء هذه الخطبة بحمد الله والثناء عليه الصلاة والسلام على رسوله .

و يمكن أن نستوضح الخصائص الفنية الأخرى لهذه الخطبة من خلال السمات التالية:

- حسن الافتتاح .
- تقسيم الخطاب .
- التفنن في الأسلوب .
- الختام .



أما حسن الافتتاح فيتبين من بدء الخطبة:حيث تدخل في الغرض دون مقدمات و عرض واستدلال ودليل ذلك قوله رضي الله عنه :((أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركة رغبة ألبسة الله ثوب الذل .. إلى قوله:((ومنع النصف)) فالأسلوب التعبيري في الافتتاح جاء في غاية الإحكام حيث اعتمد على الأسلوب الإخباري في جمل تتراوح بين الطول والقصر .

أما تقسيم الخطاب. فقد جاء وفق تقسيمات تتناسب مع أحوال السامعين أولئك الذين كان يأمرهم بالجهاد و لكنهم يتباطؤون في الخروج ويعدون بالنفير في وقت غير الذي قيل لهم .

وأول هذا التقسيم قوله رضي الله عنه :

((ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً و سرا وإعلانا)) ثم التأكيد في طلب الخروج إلى القتال من قوله :

((وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم : والله ما غزى قوم – قط في عقر دارهم إلا ذلوا .

ثم بيان نتيجة هذا الحث والطلب من قوله :

فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراء كم ظهريا ثم بيان ما ترتب على العصيان والتأخر عن القتال من قوله : حتى شنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حسان وابن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالا صالحين وقد بلغني أن الرجل



منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة فينزع حجلها ورعاثها".

ثم يلتفت بأسلوب الخطاب إلى لون تعبيري أخر يحمل في ثناياه عددا من جمل التقريع واللوم حيث يقول:

((فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا حين صرتم هدفا يرمى وفيئا ينتهب ويلي هذه العبارات جمل تتسم بالقصر و السجع الحسن غير المتكلف من قوله .

((يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون))

ثم ينتقل التقسيم في الخطاب إلى أسلوب حواري تقريعي تتوالى في ثناياه عدد من المؤكدات كصيغه الأمر والقسم الجمل ألاسمية من قوله :فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم :حمارة القيظ - أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم :أمهلنا ينسلخ هذا القر .. إلى قوله رضي الله عنه فأنتم والله من السيف أفر .. والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم – معرفة والله جرت ندما.

أما خصوصية التفنن في الأسلوب فتكاد تكون هذه الخطبة من نسج الحقيقة الصرفة التي لم يمازجها أسلوب خيالي من استعاره أو فن كنائي إلا ما جاء من الاستعارة في قوله ((ألبسة الله ثوب الذل فقد جعل للذل ثوبا ليكون أشمل في عقاب الله وأخذه))





ونلحظ أنماطا من المقابلات البديعة في قوله: سرا وإعلانا وليلا ونهارا وباطلهم وحقكم، الحر والبرد وقد حفل إطار الخطبة هنا بألوان من الألفاظ المتخيره المنتقاة التي تلائم الجملة والتركيب و تضفى المعنى جلالة ومهابة وروعة وبخاصة أن موضوع هذه الخطبة موضوع يتحدث عن الجهاد و عن فئة تباطأت في الخروج إليه . وقد صحب قوة ألفاظ الخطبة ووضوحها و جمالها وسلاستها وبعدها عن الغرابة عمق المعنى ووضوحه وشرفه واقتضاء المقام له. والشأن في ذلك ما قاله أبو هلال العسكري ((ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف في اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يدنسهما ويفسدهما ويهجنهما))[1]

وأما أسلوب الخاتمة فقد جاء ملائما لما أثير في الخطبة من معاني اللوم والتقريع والحث على الجهاد ونتائج التباطؤ في النفير وما يلزم الرعية من طاعة أولى الأمر . جاء الختام ملائما حيث انقطع صوت الغضب بجملة واحده قد لا تتجاوز خمس كلمات من قوله : ((ولكن لا رأي لمن لا يطاع)).

ختام يحمل من أسلوب اللوم والتقريع ما يتناسب مع البناء الشعوري الذي نسجت خيوطه وأحكمت لبناته عاطفة صادقة حرى تتقطع أسفا وحزنا وغضبا على ركون هذه الفئة وإخلادها إلى الأرض عاجزة عن قتال عدوها.

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٤٠.



ولا يعذب التكرار في كلام عذويته في تكرار شيء من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين .

فلنعش مع نموذج من بدائع الخطب الإسلامية و حيث البيان الرائع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطبته في حجة الوداع. تلك الخطبة الإسلامية التي لم يزل يستقى منها البلغاء والعلماء في تثبيت معانيهم اقتباسا وتضمينا.

يقول صلوات الله وسلامه عليه:

((الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن محمدا عبده ورسوله)) أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير أما بعد ، أيها الناس أسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس: إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها ، وأن ربا الجاهلية موضوع ، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وأن دماء الجاهلية موضوعة ، وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد





المطلب ، وأن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس: إن النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفرو ا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله[1] فيحلوا ما حرم الله تعالى ، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعه حرم :ثلاثة متواليات وواحد فرد :ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ،ألا هل بلغت اللهم اشهد .

أيها الناس: أن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه . بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين فاحشه مبينة ، فإن فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربونهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ،لا وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا

---

(١) نص الآية في سورة التوبة برقم ٣٧ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

أخذتموهن بأمانه الله ، واستحللتم فروجهن بكلمه الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا .. ألا هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس : إنما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه .. ألا هل بلغت اللهم اشهد .

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فأنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتي ... أللهم هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد كلكم لأدم وأدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى .. إلا هل بلغت اللهم اشهد .

- قالوا :نعم – قال :فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس: أن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصيه، ولا تجوز وصيه في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من أدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]

وبعد فما يقول الناظر في هذا النص الشريف على طوله ووجازته وتوسطه واعتدال فقره، لقد جمع بين طرفي نقيض من الإطناب غير الممل والإيجاز غير

(١) الخطبة في البيان و التبيين للجاحظ جـ٢ص ٣١ وما بعدها ، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٤ ص٥٧ ،٥٨ شرح و تصحيح أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري



المخل ،حتى طابقت ألفاظه لمعانيه ولم يسلك به ﷺ مسلك صناع الكلام على الرغم من كثرة المعاني السامية الشريفة التي تخللت جزيئاته ، وهذه المعاني كثيرا ما تكون بحاجة ماسة إلى كثير من زخرف القول لتأكيد هذا المعنى ، نفى هذا المعنى ، و تفصيل هذا المعنى واختصار هذا دون ذاك ، لكنها العناية الربانية التي تمد رسول الله ﷺ و تزوده بالمعارف التامة فحاشاه من زخرف القول و تكلف الصنعة فانه لا ينطق عن الهوى و إنما هو وحي يوحى ، يقول ابن قيم الجو زيه في سرد خصائص كلام رسول الله ﷺ : ((كان أفصح خلق الله ، و أعذبهم كلاما ، وأسرعهم أداء ، و أحلاهم منطقا ، و حتى أن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ويسبي الأرواح ويشهد له بذلك أعداؤه ، وكان إذا تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد ليس بهذا مسرعا لا يحفظ ، ولا منقطعا تتخلله السكتات بين إفراد الكلام بل هديه فيه أكمل الهدي .

ويقول ابن قيم الجوزية في هدي خطب رسول الله ﷺ كان لا يخطب خطبة إلا بدأها بحمد الله و الثناء عليه، وكان يختمها بالاستغفار و كان كثيرا ما يخطب بالقرآن بل كان مدار خطبه ﷺ على حمد الله تعالى و الثناء عليه بآلائه ، و أوصاف كماله و محامده ، و تعليم قواعد الإسلام ، وذكر الجنة و النار و المعاد، و الأمر بتقوى الله ، و تبين موارد غضبه ، ومواقع رضاه ،



وكان يقصر خطبته أحيانا ، ويطيلها بحسب حاجة الناس ، و كانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة[1] .

ولا شك أن كلام ابن قيم الجوزية و كلام غيره ممن سبقه و ممن جاء بعده قول فصل في وصف كلام رسول الله ﷺ ولا يستطيع أديب ولا متأدب أن يحصى الخصائص الفنية لجميع كلامه الشريف وحسبنا أن نتلمس تلك الخصائص التي تميز كلامه في كل لون من ألوان النصوص النبوية من حديث إلى خطبة إلى رسالة إلى وصية إلى موعظة .. خصائص تنأى بكلامه الشريف و ترتفع به عن كلام المتفاصحين و البلغاء و الأدباء صناع الكلام .

إن أول خصوصية في هذا النص تلك الرابطة الوثيقة بين معاني هذه الخطبة و تدرجها في أسلوب الأمر و النهى ، و التحذير ، و ترتيب النتائج ، وحسن الربط بين البدء و الختام بما لا مزيد عليه .

و البناء في تركيب الجمل ضمن الألفاظ المفردة تراه يشع بالرونق والطلاوة من غير تكلف في تخير الألفاظ و انتقائها ، لأن المعنى هو الذي يطلب اللفظ فلا تكلف ولا صنعة ، إنما هي عبارات جزلة فخمة في موضع التفخيم لينة سهلة في موضع اللين و السهولة ، تطاوع كل لفظة أختها في أداء المعنى وإقراره .

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، تحقيق و تخريج و تعليق شعيب الأرنؤوط ، جـ١ /مكتبة المار الإسلامية / الكويت



و في ثنايا هذه الخطبة الشريفة عدد من المقابلات العجيبة، التي تحقق من خلالها ما ساعد على وضوح الفكرة ، لان استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة مما يزيد في البيان و يوضح خواصه على أن يخلو هذا اللون من الأسلوب مما يفضي به إلى الغلو حتى يعود صنعة بديعية تفسد الأسلوب[1]

وقد عريت هذه الخطبة الشريفة من هذه الصفات ذات الصنعة فإن أسلوب التقابل و التضاد قد جاء عفويا من غير قصد إليه.

من ذلك قوله ﷺ : (من يهدي الله فلا مضل له " يحلونه عاما و يحرمونه عاما " السماوات و الأرض " ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " فليبلغ الشاهد الغائب "

إنها عبرات فنية عجيبة لم تتصيد ولم تتخير بالبحث و الاستقصاء وإنما سلك بها مسلك الطبع الفطري الذي لا تكلف فيه ولا تعمل ولم يأت إي أسلوب من هذه المقابلات إلا لأنه نوع " من التحدي بين المعاني و المنافسة في ظهور الغرض و هذه قوة المعاني[2] ، وإذا تأملنا معاني هذه الخطبة ألفينا أنماطا من القيم الخلقية الإنسانية الرفيعة فهي تدعو إلى: التقوى وإلى الإخوة والى العدل في الحقوق الإنسانية كما يحدد ذلك ويفصح عنه قوله ﷺ : أوصيكم ونفسي بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير ، وعن تقرير مبدأ الأخوة يقول ﷺ إنما المؤمنين أخوة ، ولا يحل لامرئ

---

(١) الأسلوب لأحمد الشايب ص ١٨٩ / الطبعة السادسة ١٩٦٦م / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٧ .

مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، بل تقترن الأخوة بالتقوى في أسلوب هذه الخطبة ، فهما جناحا النجاة حيث يقول ﷺ(أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب " وهذا جناح الإخوة يلتحم مباشرة مع جناح التقوى من قوله ﷺ : " إن أكرمك عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى"[1]

ونلحظ تدرج هذه الخطبة في عرض موضوعاتها مبتدأه من أدنى الحقوق الإنسانية القيم الخلقية إلى أعلاها ، فحين تتحدث عن نصيب الإرث تنتقل إلى الحديث عن حق النسب من قوله ﷺ : (أيها الناس: أن الله قسم لكل وراث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث، ثم يقول عن حقوق النسب: (و الولد للفراش و للعاهر الحجر فهنا عدل في حق اجتماعي وأخر قضائي و هذا منتهى السمو في مدارج البلاغة العربية الذي يشف عنه إلهام النبوة وقدرتها على التصرف في فنون القول" إذ لم يكن الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ ويوطد دعائمه دين جمود فيقف عند المطالب الأخروية شأن ما سبقه من الأديان بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لا بد للشارع الحكيم من أن يتعرض لكل ما به تصلح أمور البشرية في العقيدة والتشريع و المعاملات ،الحكم و السياسة، و الاجتماع و الأخلاق و الفكر[2] إلى ما هو أدق وأخطر كمبدأ الصلة و التقارب و التحاب بين الأفراد

(١) القيم الخلقية في الخطابة العربية ص ٧٣ د / سعيد حسين منصور / الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ

(٢) الخطابة في صدر الإسلام د/ طاهر درويش ص ١٣٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

والجماعات سواء كان هؤلاء الأفراد و الجماعات من ذوى القربى أو من غيرهم و ذلك لخطورة هذه القيم و صلتها الوثيقة بحماية الفرد و المجتمع فنرى تلك الخطبة قد تنقلت بواسطة هذه الموضوعات من معلم إلى معلم ومن غرض إلى غرض و كل فكرة تحملها ذات طابع فني جميل.

فقد أتى ﷺ في مطلع خطبته (بمقدمة مثيرة للانتباه إلى ما بعدها، ثم انتهى منها إلى قوله (أيها الناس) و اخذ يبين معالم الدين و حدوده، ويحض سامعيه في أمر دينهم ودنياهم، إذ يقول: (إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا) و في هذا انتقال من الكلام عن الأمور العامة إلى الكلام عن الشئون الخاصة ، و من المسائل الجماعية إلى المسائل الشخصية ، و بهذا و ذاك يسعد المجتمع، و تتهيأ أسباب الحياة الصالحة للناس كافة.

وتلك الموضوعات المندرجة في ثنايا تلك الخطبة ، ذات معان شريفة سامية ، تأخذ بلباب السامع و القارئ لأنها من إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة وغاية العقل ، فلننظر إلى خصائص الأسلوب الذي أديت به تلك المعاني.

انه بأدنى نظرة فاحصة تتبدى لنا فنية الكلمة التي تأخذ مكانها في معيار الفصاحة ، فلئن كانت الفصاحة راجعة إلى حسن الملائمة بين الحروف باعتبار أصواتها و مخارجها ، حتى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللغوي فهذا أمر لم يتم إلا لمحمد ﷺ ، فقد تهيأ له من إحكام الضبط و إتقان





الأداء لفظ مشبع، لسان بليل ، و تجويد فخم ، و منطق عذب و نظم متساوق[١]، فكل جملة أخذت مكانها ، وأدت معناها الذي سيقت له ، وفق إحكام بديع ، تزينه كناية لطيفة ، من مثل قولة ﷺ : (إنما النساء عندكم عوان) فلفظه (عوان) كناية عن ضعف المرأة.

ولكن لم قال ﷺ هنا (اتقوا الله في النساء) وقال في خطبة أخرى: (فاتقوا النساء) ؟ لا خلاف بين القولين ، ولا تناقض في الوصايتين فإن في النساء لخطرا يخشى قد تضعف الرجال حياله ، فجاء التركيب هناك بجملة (فاتقوا النساء) و إن في النساء لضعفا يرحم ، قد تصول الرجال إزاءه ، فجاء التركيب منتظما من خلال قوله ﷺ : (فاتقوا الله في النساء) وتأمل هذا المجاز من قوله ﷺ : (ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع فهو تعبير تذهب فيه الكلمة كل مذهب ، وتبقى النفس إزاءه متشعبة ، لكن سرعان ما تهدا وقد علمت انه مجاز المراد به إذلال أمر الجاهلية، و حط أعلامها، ونقض أحكامها، كما يذل الشيء الموطؤ الذي تدوسه الأخامص الساعية، و الأقدام الواطئة، فلا يبقى منه مرفوع إلا وضع ، ولا قائم إلا صرع[٢].

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٣٦٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ .

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ١٠٢ ، شرح طه عبد الرؤوف سعد / مطبعة الحلي بمصر ١٣٩١ هـ

وانظر إلى وجازة هذا المثل في قوله ﷺ (الولد للفراش وللعاهر الحجر فهو من الفوائد التي اختص بها النبي الكريم " ومعناه لا حق له في نسب الولد "[1]

وأمعن النظر في التركيب مراعيا ذلك "الختام الموسيقى للصوت" يلتزمه ﷺ - أخر كل مقطع من مقاطع هذه الخطبة تلك العبارة الجميلة، ذات الإيقاع الصوتي العذب، والنغم الممتد" ألا هل بلغت " اللهم اشهد إنها الفطرة السليمة، والذوق الرفيع يهديان عفوا إلى من تقصر دونه بلاغة البلغاء من كل صاحب صنعة، وفن مجلوب، بل هذه هي اللازمة التي رددها ﷺ عبر هذه الخطبة، وهى لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ومعناها، لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات، فما كانت حياة النبي ﷺ كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله ﷺ ألا هل بلغت اللهم اشهد[2].

وإذا كان الموضوع هو الغرض الأساس الذي من أجله يقصد العمل الأدبي فتلقى الخطبة، أو تنشا الرسالة، أو تنظم القصيدة، وإذا كانت الأعمال الأدبية في بيئة ما إنما هي صدى دقيق لما يتردد في هذه البيئة من أحداث وما يجرى فيها من أمور فلابد أن يسلك الأديب طريقة فذة في التعبير تملك إلى

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ١ ص٥ تحقيق محمد سعيد العريان

(٢) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور / محمد طاهر درويش ص ٢١٧ وموسوعة العقاد الإسلامية ص٨٣ المجلد ٢ نشر دار الكتاب العربي — بيروت



قوة التأثير، واستثارة العواطف تحريك العقول طلبا للامتثال فلا يجنح الأديب في تعبيره إلى إحكام الصنعة متناسبا تحقيق المعنى في صورة متلائمة، وتلك الخاصية نلحظها في تعبير النبي الكريم، فهو لا يحفل بصياغة القوالب، بقدر ما يحفل بالمعنى وتبليغه أذهان السامعين، وشاهد ذلك ما لسناه في خطبته تلك فقد تناسقت ألفاظها وتلاءمت تراكيبها فجات أنماطا من التعبير المبتكر.

وآية ذلك قوله ﷺ : (إنما النساء عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا " الولد للفراش و للعاهر الحجر وقوله ﷺ "ألا هل بلغت اللهم اشهد .

المعنى هو المقصود من تلك التراكيب طلبا للامتثال ، وقد حرك الشعور، واستشعار العقل ، دون تكلف في الصناعة اللفظية .

ومن أروع خصائص التعبير في هذا النص الكريم : اكتمال الوحدة الموضوعية، فعلى الرغم من تناول عدد من الموضوعات في هذا النص فإننا نلحظ بناءه على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتزهيد في الدنيا، والغض من قيمتها، والتحبيب في الآخرة والعمل لها. فكأنما هذا النص قد نظم في خيط واحد، لا اختلال في عقده، ولا عيب يلحق مبناه ومعناه .

وخلاصة القول: أن أسلوب هذه الخطبة، وأسلوب غيرها من الكلام النبوي الشريف.لا يملك أي ناظر إلا أن يقول فيه : ((إن الجمال الفني في بلاغة محمد صلى الله عليه و سلم أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على





الدنيا وتاريخها. فكلامه صلى الله عليه وسلم - يجري مجري عمله. كله دين وتقوى وتعليم. وكله روحانية وقوة وحياة فيه روح الشريعة ونظامها وعزيمتها في نسق هادئ هدوء اليقين من روح نبي مصلح رحيم)).[1] ولا يستعذب التكرار وطول الاستشهاد بهذه الدرر من روائع الأدب الإسلامي في الخطابة ولا نص أجمل ولا أجود من خطبه صلى الله عليه وسلم وخطب صحابته الأجلاء ومنهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي، وقد سبق أن درسنا نصا خطابيا للخليفة الراشد على بن أبى طالب رضي الله عنه.

فلنقف على شيء من خطب أبي بكر، وخطب عمر، طلبا للاختصار غير مغفلين مكانة عثمان الخطابية. يقول أبو بكر- رضي الله عنه - من خطبة له: ((الحمد لله، احمده وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه وأستهدي الله بالهدي، وأعوذ به من الضلالة والردي، ومن الشك والعمى، ومن يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حي لايموت يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون أرسله إلى الناس كافة، رحمة لهم، وحجة عليهم،

---

(١) وحي القلم للرافعي ص ٦، ٩، ١٠ جـ٣ دار الكتاب العربي ببيروت



والناس حينئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية، دينهم بدعة، ودعوتهم فرية، فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم - ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، فأطيعوا الله ورسوله. فأنه قال عز وجل: ((من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا " .

أما بعد أيها الناس:إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيها دون الصدق من الحديث خير، من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حي وغدا ميت، فاعلموا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضرا، فأنه قال عز وجل:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ (١)

فاتقوا الله عباد الله وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله إنه غفور رحيم فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إن الله

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠



وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به ، واحشرنا في زمرته ، وأوردنا حوضه، اللهم أعنا على طاعتك، وانصرنا على عدوك))[1].

إن هذه القطعة النادرة من خطب أبي بكر رضي الله عنه لمن أجود الخطب الإسلامية بعامة، ومن أجود خطبه بخاصة، وذلك لما اشتملت عليه من المعاني الشريفة السامية في أسلوب جزل رصين، فقد راعى- رضي الله عنه وأرضاه- أسلوب هذا النص حيث أفرغه في قالب يناسبه ،لأن ((المعاني الجزلة لابد لها من ألفاظ وجمل وتراكيب في غاية الفخامة، والمعاني الرقيقة المستملحة لابد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة ليحصل التشاكل والتناسق بين النوعين، وتكون المعاني مع الألفاظ كالعروس المجلوة في الثوب القشيب..مع إعطاء كل موضوع حقه من شدة العبارة ولينها في النطق، ليكون ذلك أدل على المعنى))[2].

إن هذه الخصائص الفنية مجتمعة قد تحققت في نص هذه الخطبة وكان الباعث عليها ما استقر في قلب قائلها من الإيمان بالله وحده والإيمان بمحمد ورسالته التي هي الإسلام دون ما سواه.

---

(١) العقد الفريد ص ١٢٨ ،١٢٩ جـ٤ لابن عبد ربه . تحقيق محمد سعيد العريان .

(٢) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٥٢ الطبعة الرابعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .





ولا احد يجهل مكانة أبى بكر الصديق في الجاهلية من حيث تحليه -رضي الله عنه - بالقيم الإنسانية الرفيعة التي جملتها سلامة منطقه وسمو بلاغته فكان لزاما أن تأخذ هذه البلاغة مكانتها في كلامه تأثرا بهدي الإسلام من خلال الهدي القرآني والكلام النبوي الشريف، ولذلك لا نجد في ألفاظ خطبته هذه ما يكدر صفو المعنى من لفظ وحشي غريب أو ذي تنافر أو بعد عن حد الفصاحة.

وإنما هي ألفاظ سهلة سلسة منتقاه، ولا نجد في المعاني التي عبر عنها معنى مستغلقا أو ساقطا مرذولا، أو عامياً مسفا، أو غامضا مستكرها.

ولا نجد أثرا للصنعة المتكلفة، فقد عريت أجزاء هذه الخطبة من زخرف القول حتى بان في معانيها تلاحق الفقرات من غير عناء، لأنها من قبيل الوعظ والإرشاد في طابع إسلامي رصين النسج محكم العبارة يتخلله درر من آيات الله البينات ، لإقامة الحجة والبرهان على المعاني التي سيقت في ثنايا النص.

وتكاد تكون خطب الخلفاء والحكام والولاة طوال صدر الإسلام والعهد الأموي ، وصدر من العهد العباسي من هذا اللون المشبع بالدليل والاقتباس وسوق الحكمة والمثل والبعد عن تكاليف الصنعة والزخرف البديعي. ونلحظ عنصر التأثير كامنا في عبارات الخطيب على نحو ما ورد في جمل خطبة أبي



بكر- رضي الله عنه - غير أن هذا التأثير في هذه الخطبة ليس وليد عاطفة مثارة وإنما وليد عبارة محكمة مؤيدة بصدق الكلمة ووضوح الدليل.

ولذلك جاء ((أسلوب العرض متماسكا متلاحم الأقطار لم يضعفه التفكك وتخلخل الفكرة..جاء مرتبا غير مضطرب، واضحا بعيداً عن اللبس والاحتمال قاطع الدلالة على الغرض، صادقاً لا يتسرب إليه الريب))(١).

وإذا كان هذا اللون من الخطابة الإسلامية يغري بالمضي في إيراد شواهد أخرى فإن من بديع الأدب الإسلامي في هذا السبيل عدد من خطب الخلفاء والقادة الإسلاميين الذين حفظت لهم كتب التراجم والسير، ومصادر الأدب عددا من الخطب التي لا تجاري. فلنقف على هذا النص البديع من كلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى وصاياه التي هي أشبه بالخطبة لما تضمنته من مواد ونظم يعتمد عليها في إقامة شعائر الدين وأحكامه وفق ما حدده القرآن الكريم وبسطته السنة النبوية الشريفة.

يقول- رضي الله عنه - للخليفة من بعده :

((أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا: أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا، فإنهم درء العدو، وجباة الأموال والفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرا فإنهم

---

(١) الخطب و المواعظ لمحمد عبد الغني حسن ص٤٤ . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م .





أصل العرب ومادة الإسلام، إن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيرا :أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عنْ يد وهم صاغرون.

وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته ، إن يطلع منك على ريبة.

وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله .

وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم. ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فان ذلك بأذن الله - سلامة لقلبك، وحطاً لوزرك، وخيراً في عاقبة أمرك، حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك و يحول بينك و بين قلبك.

وآمرك أن تشتد في أمر الله ، وفى حدوده وقمع معاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في احد الرأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمه ، واجعل الناس سواء عندك، لا تبالِ على من وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومه لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك.

وقد أصبحت بمنزله من منازل الدنيا والآخرة، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك، اقترفت به إيمانا ورضوانا، وإن غلبك عليه الهوى ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله و معاصيه.





و أوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة و قد أوصيتك و حضضتك، ونصحت لك، أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسي وولدي فإن عملت بالذي وعظتك، و انتهيت إلى الذي أمرتك. أخذت به نصيبا وافيا ، وحظا وافرا، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك ولم تنزل معاظم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك، يكن ذلك بك انتقاصا، ورأيك فيه مدخولا، لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة، والداعي إلى كل هلكة إبليس. وقد أضل القرون السالفة قبلك فأوردهم النار، و لبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعدو الله، والداعي إلى معاصيه، ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظا لنفسك، وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضربهم فيذلوا ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، وتحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولاتغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم. هذه وصيتي إليك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام "[1]

هذه الوصية التي هي من قبيل الخطابة الإسلامية تعد من عيون النثر الفني، ومن غرر الأدب الإسلامي وبدائعه التي لا ينضب معينها، وهذا شأن

---

(١) البيان و التبيين للجاحظ جـ٢ ص ٤٦،٤٧، ٤٨ تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط٤ .



الخطبُ الوصايا والمواعظ والرسائل والعهود الإسلامية من لدن عهد النبوة المحمدية إلى العهد الأموي كله، إلى العهد العباسي حتى عهد النهضة الحديثة فقد أنجب العالم الإسلامي المعاصر خطباء وكتابا كلهم يزن الكلمة المعبرة بمعيار الحكمة لا الصنعة وحسبنا في هذا السبيل خطباء مصر والشام وغيرهما من رقعه الأمة الإسلامية في مختلف بلدانها. وسندرس عددا من نصوص الأدباء في هذه الألوان الأدبية من مختلف العهود – برهانا على ما للأدب الإسلامي من سمات وخصائص تميزه عن غيره في دنيا الأدب. وما أحوجنا إلى الدراسة الفنية ألتطبيقية، لا سيما وقد تجاوزنا المرحلة المنهجية لإحلال الأدب الإسلامي مكانته اللائقة به ليكون سراجا وهاجا يضئ للأدباء طريقهم في عطائهم الأدبي الغائي النبيل الهادف.

وقبل أن نتوغل في دراسة عدد من النصوص. نعود إلى وصيه الخليفة الراشد – عمر بن الخطاب رضي الله عنه – لنتبين شيئا من خصائصها الفنية على قدر ما يفتح الله به ويعين عليه.

إن هذه القطعة الأدبية من كلام عمر رضي الله عنه ، حكم صائبة، وآراء سديدة، وبند إسلامي جمع وأوعى تجارب الشخصية الإسلامية المثالية التي تأدبت بآداب الإسلام قلبا وقالبا. فألفاظ هذه الوصية ألفاظ ذات نبرات إسلامية مؤثره كلها يقين وإيمان لصدورها من قلب عاطفة مشبوبة صادقه وقودها الإيمان.فانه على الرغم من طول نفسها، وتعدد عباراتها لم تحمل أي



جملة فيها لفظا نشازا عابه تلقف لمفرده غريبة أو وحشيه أو تعقيد لفظي أو بعد عن حدود الفصاحة والبلاغة، وابعد من ذلك في مدارج التعبير الأدبي والفن البياني الرائع. إن هذا النص يشتمل على ما يقرب من ثلاثمائة لفظة لا ترى في واحده منها ما يمكن أن يعيبه ناقد. وما ذلك إلا فيض الخاطر وعفو البديهة فعمر رضي الله عنه وأرضاه واحد ممن تخرج في مدرسة القرآن الكريم ومدرسة الحديث الشريف فوق ما حباه الله من قوة العارضة وشده الشكيمة، ورباطه الجأش، وكبر العقل، وصدق العاطفة مع صدق اليقين ويكفى في قوه ذلك العطاء الأدبي وصدقه ووضوحه، وضوح صاحبه فهو أول من رفع التكبير معلنا إسلامه جهراً لا سراً.

وإذا كان من خصائص النثر الفني الصادر من هدي الإسلام وبخاصة ما كان منه من قبيل الخطب أو الوصايا أن يحمل طابعا متميزا يتبين في (إثاره العقول، وتنبيه الأذهان، وحملها على الامتثال والإذعان، وفى التأثير في الأرواح، وجذب القلوب، وفى استمالة النفوس بإثاره العواطف[1] فان هذه الخصائص مجتمعه قد تحققت في كلام عمر رضي الله عنه في هذه الوصية البديعة. ولكنها خصائص تعبيرية ذات قيم إنسانية رفيعة. جاءت في إطارها ومضمونها من وحى البديهة. دون تنسيق وإعداد مسبق.

---

(١) فن الخطابة وإعداد الخطيب للشيخ على محفوظ ص٣٣ دار الإعتصام .

وقد زان عرضها وأقسام فقراتها وأفكارها طائفة من الجمل المقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كقوله في التعبير عن بعض الفقرات.

"وإذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون " فهي من قول الله تبارك وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾ (١)

"ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم " فهي من قول الله تعالى: " ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (٢)

وكقوله رضي الله عنه :

"واجعل الناس سواء عندك " فهو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلمون سواسية كأسنان المشط" وقوله صلى الله عليه وسلم: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم"

وانظر إلى تلك الدرة من كلام عمر من قوله: "أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم"فهي من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه قاضيا ومعلما إذ قال له : وأن تأخذ من أموال أغنيائهم صدقة فتردها على فقرائهم. وكلتا الوصيتين من قول الله تبارك وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (٣)

---

(١) سورة التوبة الأية٢٩ .

(٢) سورة الحشر الأية ٧ .

(٣) سورة التوبة الأية ١٠٣ .





إنه القرآن بتعبيره المعجز قد استحوذ على قلوب المسلمين يوم أن أسلموا وقبل أن يسلموا.

ومنهم عمر بن الخطاب الذي شرح الله صدره للإسلام بآيات سمعها في بيت أخته وأسلم أهله إنه القرآن فلقد بهرت كلماته وآياته عقول العرب وقلوبهم. وقدمت لهم مثلا أعلى في جمالية التعبير ما كان يخطر لهم على بال.. وكيف يخطر لهم على بال وهو من عطاء الله الذي لو كان البحر مدادا لكلماته والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلماته "[1]

وهذا كله عن الخصائص الفنية لأسلوب وصية عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بالألفاظ ، فكيف بالمعاني. إن ميدانها لأرحب في استكناه الخصائص الفنية الرفيعة لصدورها من شخصية فذة تتلمذت على شخصية فذة شخصية محمد أ المعلم الأول للرعيل الأول من المسلمين وللمسلمين جميعا. محمد الذي كانت الخطابة شعار دعوته إلى دين الله مبتدءا بها خطيبا غير شاعر - خطيبا منذ نزل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ ولذلك جعل صلى الله عليه وسلم هذا اللون من الأدب" شعار كل إمام يعتلي المنبر في الجمعة والعيدين، وموسم الحج الأكبر، وعند أخذ العدة للجهاد وفى كل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهى عن رزيلة، أو إعلان نصر، أو تأكيد وصية عامة أو خاصة، ولذلك كان أمراء جنده، وقواد سراياه

---

(١) محاولات جديدة في النقد الإسلامي د / عماد الدين خليل ص٢١ ،٢٢ ط الأولى مؤسسة الرسالة بيروت .

وخلفاؤه من بعده كلهم خطباء مصاقع))[1] يهزون أعواد المنابر بفصاحتهم التي لا تجارى، وبلاغتهم التي تبلغ من القلوب أعماقها، ومن النفوس أغوارها. في طراز من ذلك الكلام الذي يسبق معناه لفظه من غير إسفاف، ومن غير تكلف.

وإذا كانت هذه الموضوعات التي مر ذكرها في الكلام على خصائص الخطب المحمدية فان هذه الموضوعات من اجل المعاني السامية الشريفة التي تناولها خطباء الإسلام في كل عصر ومصر، ومنهم عمر بن الخطاب في وصيته تلك، ولا يملك الناظر في وصية عمر، وفي المعاني التي ساقها في كلامه عبر فقرات هذه الوصية إلا أن يقول:إن هذا النص الكريم - في معانيه الراقية- قد استمد من هدي الإسلام: كتاب الله وسنة رسوله. وعلى الرغم من تعدد الفقرات والجمل والتراكيب التي أديت بها هذه المعاني فإن الناظر لا يجد معنى مستغلقا ولا لغزا غامضا ولا معقداً وإنما هي معاني من وحى الفطرة وتأثر القرآن والحديث الشريف، وقد استطاع عمر- رضي الله عنه — أن يجمع في طريقة الأداء بين ما يتطلبه النص الأدبي من حسن اللفظ وصفائه وجزالته وفخامته ورقته وروعة المعنى وتأثيره وعمقه وبعده عن التعقيد.

والشاهد على ذلك ما يقوله ابن خلدون في معرض كلامه على الخطابة الإسلامية عند المسلمين منذ عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلى العهد

---

(١) فن الخطابة و إعداد الخطيب للشيخ / على محفوظ ص٢٤ دار الإعتصام . القاهرة .



الأموي وإلى الصدر الأول من العهد العباسي. فقد ذكر((إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة من كلام الجاهلين في منشورهم ومنظومهم – قال – :فإننا نجد شعر حسان بن ثابت، وعمر بن أبى ربيعة، والحطيئة، وجريراً، والفرزدق، ونصيب، وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، وأمثالهم، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية، وصدر الدولة العباسية، في ترسلهم، وخطبهم، ومحاورتهم للملوك ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة، وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبده وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاورتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك إن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في الحديث الشريف بل وفى القرآن الكريم الذي اعجز البشر عن الإتيان بمثله، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، ونهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة، واصفي رونقا من أولئك، وارصف مبنى واعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة "[1].

وبتحقيق هذه الخصائص في مبنى الخطب الإسلامية ومعانيها برز المسلمون في هذا الفن الأدبي وتسلطوا بأسلوبهم البياني الفريد على النفوس

---

(١) مقدمة بن خلدون ٣٥٩ دار و مكتبة الهلال . بيروت .





الجافية فألانوها، وعلى القلوب القاسية فعملوا على تهذيبها ورقتها، وظلت الحال طوال العهد النبوي و الأموي و الصدر الأول من الدولة العباسية على تلك السمات و الخصائص حتى داخل هذا اللون الأدبي شيء من عوامل الضعف بسبب اختلاط العرب بالأعاجم وبخاصة من ولي إمرة الجيش الإسلامي وعمالة الولايات و المواسم. مما لا مجال للحديث عنه في هذه الدراسة لاختصاصها بالبحث عن مواطن الإجادة و الإبداع في طائفة من بدائع الأدب الإسلامي على نحو ما ذكرناه ، وعلى نحو ما ستذكره فيما تبقى من موضوعات .

وإذا كانت هذه السمات و الخصائص قد تميزت بها هذه الألوان الأدبية من خطبة و رسالة ووصية و عهد طوال تلك الفترات من تاريخ الأدب الإسلامي الذي استشهدنا له بعدد من النصوص — كما مر — فإن مما يغرى بالإفاضة في الحديث عن هذه الألوان ما قيده تاريخ الأدب من نصوص رائعة لعدد من الأنبياء والخطباء فلنتلمس مواطن الإجادة و الإبداع في نصوص أخرى من العهد الأموي والعباسي وعصر النهضة الحديثة .

ولسنا بمستطيعين حصر هذه النصوص و الكلام عليها لكثرتها وكثرة روادها من شَداة الأدب الإسلامي ولذلك سنكتفي بإيراد نصين أولهما للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- وثانيهما للخليفة العباسي : ((أبى العباس عبد الله بن هارون الرشيد)).





فمن خطبة لعمر بن عبد العزيز- رحمه الله - مما أورده ابن قتيبة في((عيون الأخبار)) قال : ((حدثني أبو سهل عن إسحاق بن سليمان عن شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطب بها عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن حمد الله واثنى عليه ثم قال:

((أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم وخاف، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفاً بأمان. إلا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسنكون من بعدكم للباقين كذلك، حتى نرد إلى خير الوارثين، ثم أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غنى عما ترك فقير، إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء مواقيته، ونزول الموت بكم، أما إني أقول هذا وما أعلم أن عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي فاستغفر الله وأتوب إليه ((ثم رفع طرف رداءه على وجهه فبكى وأبكى من حوله))[1]. وبعد فإن من خصائص هذه الخطبة النادرة ؟

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ص٢٤٦ جـ٢ المؤسسة المصرية العامة





ليس غريبا أن يحظى الأدب في العهد الأموي ببدائع من جيد المنظوم والمنثور سواء من كلام الطبقة العامة أو الخاصة، ذلك لان العهد الأموي اقرب العهود إلى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين علما وأدبا وخلقا واجتماعا فلا بد أن يكون أدباء ذلك العصر سلائل مدرسة النبوة بل مدرسة القرآن الكريم وبخاصة إذا كان الأديب حاكما يسوس المجتمع المسلم ويحكمه بشرع لا ينزع عن رأي أو كلمة إلا بميزان عدل في جميع الحقوق وإذا كان للتأثير بالرأي و الفعل مكانته فإن للكلمة قيمتها في التأثير والإمتاع إذا صدرت من أديب حاكم عادل كعمر بن عبد العزيز رحمه الله .

والفيصل في ذلك ما أوردة أبو هلال العسكري في وصف اللسان المبين وتأثير الكلمة بواسطته إذا قال:

((قال بعض الحكماء لابنه يا بني : اللسان أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يراد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، ومعز يرد الأحزان، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يذهب بالضغين..ألا ترى أن الله تعالى رفع درجة اللسان بان انطقه بالتوحيد وليس شيء من الجوارح ينطق به غيره.((قال أبو هلال في معرض كلامه على المعاني الأدبية السامية المؤداة باللسان المبين الذي يحتج به في تفصيل الكلام على الصمت)) ـ ومن أجود ما احتج به للكلام ما اخبرنا به أبو احمد قال حدثنا أبو تمام قال : تذكرنا



الكلام في مجلس سعيد بن عبد العزيز التنوخى وحسنه والصمت ونبله فقال سعيد : ((ليس النجم كالقمر إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت. وما أنبا عن شيء فهو اكبر منه. قال وذكر الكلام في مجلس سليمان بن عبد الملك فذمه أهل المجلس فقال سليمان:

((كلا إن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن قدر أن يتكلم فيحسن ا- هـ))[1].

وإذا كان من خصائص الكلام الأدبي ما نوه عنه أبو هلال في هذه النصوص من حيث إحراز الفضيلة لمعالي الأمور من خلال الكلمة فأين نضع خطبة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في نصها لفظاً ومعنى؟

قبل إن نتبين شيئا من الخصائص الفنية في هذه القطعة الأدبية البديعية يحسن أن نشير إلى ما يتناقله النقاد العرب — قديما وحديثا عن الأسس الخطابية التي وطد دعائمها - في نظر هؤلاء النقاد رائد الفكر اليوناني((أرسطو))حيث جعل منها عددا من الأسس الهامة في إنشاء الخطبة لفظا ومعنى وجعل هذه الأسس النقدية في تقويم هذا اللون من الأدب الذي عزا جودته إلى اعتماد الخطبة على ما يلي:

١- المقولات وتعنى الأدوات التعبيرية التي يؤدي بها المعنى.

٢- التفسير : اى بسط الفكرة وشرحها للمتلقين.

---

(١) ديوان المعاني لبي هلال العسكري جـ١ ص ١٤٩ تصحيح الدكتور / كرنكو / مكتبة القدس / القاهرة .



٣- تحليل القياس:ويجرى ذلك في تطبيق فكرة على فكرة مما يجرى في الأعرف لدى كل مجتمع.

٤- البرهان ويعنى سطوع الحجة وقيام الدليل العقلي على ما يرمي إليه الخطيب.

٥- الجدل[١] ويعني ذلك قوة المحاكمة والعرض والبرهنة على ما يختلف عليه من معان تفرض نظاما أو تدعوا إلى إسقاط نظام آخر وإيجاد بديل عنه.

إن كل هذا الأسس التي كثر ذكرها في آثار ((أرسطو)) وبخاصة كتابة ((الخطابة)) وكتابة ((الشعر)) قد أصبحت مجال بحث ونظر لعدد من علماء الإسلام ومفكريه على الرغم من غناء الفكر الإسلامي ومدده الفياض النابع من هدي القرآن الكريم والسنة الشريفة وكلام الأنبياء والأدباء من مفكري الإسلام قديما وحديثا.

وإنما أوردت هذا الكلام لكي تتضح الرؤية الأدبية في كلام عمر بن عبد العزيز في ذلك الطراز العالي من الأدب الإسلامي الذي لم يكن بحاجة إلى الأخذ بآراء ((أرسطو)) في تقويم العبارة الأدبية.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ٢ ص ٥٨٩ إعداد / إبراهيم خورشيد / أحمد الشنتاوى د /عبد الحميد يونس .



وإذا كان في الفكر اليوناني من أسس دعائم النص الأدبي في تقويمه كأرسطو وغيره فان في أدباء الإسلام من أربى على أسس أرسطو وانطلق بالرؤية الأدبية نحو الجودة والإبداع.

وحسبنا في ذلك أدب محمد صلى الله عليه وسلم وأدب صحابته وأدب الأمة من الرعيل الأول والسلف ومن حذا حذوهم في تقويم العمل الأدبي من الخلف أولئك الذين يقفون عند اللفظة الواحدة ويشبعون الكلام عليها حتى تستقر في نسق الكلام مؤثرة أو تنفر منه نابية مستكرهة.

وحسبنا في ذلك بالبيان والتبيين للجاحظ، والصناعتين لأبى هلال العسكري، وسر الفصاحة لأبن سنان الخفاجي وآثار عبد القاهر الجرجاني، والمثل الثائر لابن الأثير، وزهر الآداب للحصري، ويتيمة الدهر للثعالبي والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها ممن لا يحصى عددا.

وإذا كان من الخصائص الفنية التي تضفي على النص الأدبي مما يجعل النقاد وصفا للألفاظ كالقوة والوضوح والجمال فان هذه النعوت من أجل الخصائص الفنية لخطبة عمر بن عبد العزيز.

((والوضوح ألزم صفات الأسلوب الأدبي، وأولاها بالرعاية لأنه يحقق الغاية الأساسية وهى الإفهام.. ويكون ذلك بإيقاظ العقول الخامدة، وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس المتلقين وبذلك يهيب النص الأدبي للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية لتكون ممتعة مؤثرة فهذه الحياة أو هذه





الخصوصية هي التي تسمى القوة . والقوة صفة نفسية تنبع أول أمرها من نفس الأديب الذي يجب أن يكون متأثرا منفعلا إذا شاء من قراءة حماسة وقبولا وانفعالا . والقوة بذلك تعني صفة العاطفة والإرادة والأخلاق قبل أن تكون صفة الأسلوب))[١] .

وإذا فحصنا كلام عمر رحمه الله ووضعناه على محك هذا المقياس النقدي أعني مقياس قوة الألفاظ ووضوحها وجمالها فسنلقى عددا من الفقرات ذات الطابع الفني الجميل الذي يحمل تلك الخصائص مثل قوله :

" فإنكم لم تخلقوا عبثاً "

" وإن لكم معاداً ينزل الله للحكم فيكم، والفصل بينكم "

" ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم وخاف ".

" وباع نافدا بباق " .

" وقليلاً بكثير " .

وخوفاً بأمان " .

إن هذه الألفاظ في هذه الجمل والتراكيب تشكل أسلوبا بيانيا فريدا رائعا حيث لا غرابة ولا تعقيد وإنما سلاسة وعذوبة ووضوح وجزالة وجمال.

---

(١) الأسلوب لأحمد الشايب ص ١٦٤ بتصرف





وفوق أنها بهذه النعوت فهي خدمة للمعنى حيث تناسق رصف الجملة والتركيب في عدد من الفقر التي تتراوح بين الطول والقصر مع ما ازدان بها نظما من تلك المقابلات الفنية العجيبة بين قوله :

نافذاً بباق، قليلا بكثير، خوفا بأمان، الهالكين والباقين، غاديا ورائحا إلى الله ، غني عما ترك فقير إلى ما قدم.

وإذا كان من الخصائص الفنية التي تجلي النص الأدبي ، وتغشيه بالقبول وتمنحه سمة التأثير والخلود، مما يجرى على لسان قائله من سوق الحكم الصائبة وضرب الأمثال السائرة، والاقتباس اللطيف من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فإن في كلام عمر رحمه الله من هذه الخصائص ما جعل خطبته تلك في أعلى الطبقة العليا من مدارج البيان بعد القرآن الكريم والحديث الشريف ومن جملة هذه النعوت التي تميزت بها كلمات هذا النص قوله :

((وحرم جنة عرضها السماوات والأرض)) من آية قرآنية "، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم))هذه الجمل المتساوقة من حديث نبوي شريف، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :إذا مات الرجل صحبه ثلاثة أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى الثالث : يرجع أهله وماله ويبقى عمله[1] .

---

(١) الحديث في البخاري .





ومن الحكم الصائبة قوله ((لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم)).

وإذا كانت تلك الخصائص إنما هي في الألفاظ فماذا عن المعاني، إن الأدب في إطار التصور الإسلامي هو إلهام الكلمة الغائبة المعبرة التي تملك التأثير في سرد عدد من الموضوعات التي ترسم أبعاد الأدب وصلته بالعقيدة ذلك الموضوع الذي تبين فيه مهمة الأدب ووظيفة الأديب ومهمته في الحياة، وما يجب أن تحمله رسالة الأدب والأدباء من كلمة صادقة طيبة وفكرة هادفة سليمة ورأي سديد يعالج الأدواء التي يشكو منها المجتمع المسلم، ومعلوم أن الخطوة الأولى في الأعمال الأدبية هي ما يستجمع الأديب شاعرا أو كاتبا أو قاصا أو خطيبا ما يدور في ذهنه ويعتمل في صدره من أفكار سيبنى عليها موضوعه، وهذه الأفكار- في أكثر الأحيان - تكون عامة يكاد أن يشترك فيها كثير من الناس، لكنهم متفاوتون في المعاني التي تشرح هذه الأفكار وتجليها، ولذلك كانت المعاني الأدبية هي مجال التفاضل بين كاتب وكاتب، وشاعر وشاعر، وخطيب وخطيب، وأحر بهذا التفاضل في مضامين الأدب الإسلامي كثرة ووضوحا ونبلا وشرفا، وبخاصة في هذا النص الخطابي من كلام عمر بن عبد العزيز- رحمه الله

وإذا كان لكل لون من ألوان الأدب خصائص ومميزات تبرز سماته وترسم أبعاده، وتحدد غاياته، وترقى بمؤدبيه ومتلقيه إلى أرفع درجات الكمال من التأثر والتأثير والمتعة إذا كان ذلك من خصائص كل أدب فإن الأدب





الإسلامي بجميع ألوانه يستجمع هذه الخصائص و المميزات ويزيد عليها، لأنه في خصائصه و مميزاته أدب نابع عن التصور الإسلامي للحياة و الأحياء فكان لزاما أن يكون من خصائص ذلك النص الفريد من كلام عمر تلك السمات التي ينادي بها علماء الأخلاق و الاجتماع ورجال الفكر و الأدب من مثل خصوصية الالتزام، و خصوصية الشمول و العموم، و الواقعية و الايجابية و الإبداع، و حسن الإتباع، و الأديب الملتزم ليس ذلك الأديب الذي لايخرج عن نطاق بيئته إلى بيئة أخرى وإنما الأديب الملتزم هو ذلك الأديب الذي يطل بعطائه من نافذة واسعة على مجتمعه ليعالج ما يشكوه من أدواء ويخرج بادبة على الأدب العالمي ليأخذ منه بمقدار على حسب ما يخدم العقيدة و تلك الخصائص قد تحققت في هذه الخطبة فقد استطاع عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يبرز الأدواء ويضع الدواء النافع من خلال هدى الإسلام الذي يميز الشخصية الإسلامية، و يطبع سيرتها الذاتية بطابع الخلق القويم، و لنا أن نسأل:

- ماذا عن السيرة الذاتية للأديب المسلم، من خلال عطائه الفكري، و من خلال ما يكتبه عن نفسه إن جاز له أن يؤرخ لحياته الأدبية و العلمية و بخاصة من كان مفكرا وخطيبا مسلما كعمر بن عبد العزيز رحمه الله .

إن الأدب في أجناسه جميعها يعتبر في ابسط مفهوم له مادة ينزع عنها الأديب ويصدر منها ما يراه نافعا و ما يراه ضارا، ومعلوم أن البيئة بزمانها





ومكانها و ملابساتها تكاد تكون مصدر حكم نقدي من الأديب و عليه، فان صدق في مضمون عبارته و نحا بها صوب العطاء النافع كان ذلك الأديب الذي يحس بنفسه ويحس به مجتمعه، و أن يساير الإحداث مؤيدا لتفاعلاتها أيا كانت، وإن حاول تغطية الصحيح من القول معنى ومبنى كان ذلك الأديب الذي تلعب به عواطفه ولا يستطيع التحكم فيها و لا مغالبتها و حملها على الحق الصراح الذي تمليه رسالة الأديب و مهمته في الحياة، و إذا وقفنا على عدد من قصائد الشعراء و قصص القصاصين و أعمال الأدباء عامة، فقد لا نجد ذلك اللون الصادق المصدوق مما يحرره الأدباء عن سيرهم الذاتية أو يكتبه غيرهم عن حياتهم و ملابساتها وتكاد تكون هذه الظاهرة أو هذه الخصوصية إنما تصدق في إطارها و مضمونها على هذه الخطبة فهي في موضوعاتها و أفكارها سيرة ذاتية تنم عن شخصية فذة في السلوك و الأتباع والانتفاع بأحكام الإسلام و مثله الرشيدة ويؤيد هذا المبدأ الخلقي في رسم أبعاد الشخصية الإسلامية قول عمر من خطبته تلك: أما أنى أقول هذا، و ما اعلم أن عند احد من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله وأتوب إليه) وهذه العبارة من أرقى العبارات في تجسيد الواقعية المثالية من خلال الفن الأدبي الذي ينطلق من وجهة نظر الإسلام في تحديد مفهوم الواقعية بواسطة شخصية الأديب المسلم الذي يترسم بكلمته و فكره و سلوكه معنى الواقعية الإسلامية التي هي (الإبداع البشري الهادف الجميل الذي يرتفع بروح الإنسان





باتجاه المثال النقي مبتعدا عن أوحال الأرض و شرورها و آثامها من خلال أبعاده الزمانية و المكانية و الفكرية[1]، و هذا هو ما نلحظه في ثنايا هذه الخطبة من كلام عمر في تجسيد المعاني الإسلامية الغائية النبيلة الهادفة من مثل قوله رحمه الله: (أما بعد: فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى" "ألم تعلموا انه لا يأمن من غد إلا من حذر اليوم وخاف) (ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، ستكون من بعدكم للباقين).

هذه هي الواقعية المثالية في مضامين الأدب الإسلامي : إنها معاني شريفة سامية تتحدث عن إيمان ويقين لتفصح عن مبدأ الخلق للإنسان و الغاية منه، وعن مبدأ السير على منهج الله تعالى بحذر عقابه و بتقواه و عن التفكير في الهالكين الأولين و في الباقين ، ففي ذلك معنى الإيمان بالخالق الذي يحيي ويميت .

ونلحظ من خلال كلام عمر بن عبد العزيز في هذه الخطبة، و في خطب غيره من المسلمين في العهد النبوي و شطر من العهد الأموي ، نلحظ ظاهرة تكاد تكون من خصائص الخطب عند الجاهليين، و تلك الظاهرة أو الخصوصية هي اتسام الخطبة الجاهلية بالإيجاز و القصر و السجع والاستشهاد بالشعر و الحكم و الأمثال.

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب و النقد – الدكتور / أحمد بسام ساعى ص ٤٥ دار المنار جدة





ولا شك أن الخطابة الإسلامية قد حافظت على جل هذه الخصائص باستثناء السجع الذي اختفى أو كاد بسبب نهي رسول الله ﷺ عنه لما فيه من تشبه بسجع الكهان، فقد روي في الحديث الشريف أن الرسول ﷺ : قد قضى على رجل في جنين بديته فقال الرجل: يا رسول الله أأدي من لا شرب و لا أكل و لا صاح فاستهل فمثل ذلك يطل ؟ : فأنكر النبي ﷺ هذا الأسلوب على الرجل و قال له: اسجعا كسجع الكهان ؟[1] .

و لا شك في صحة هذا الخبر، ولا شك في ظهور هذه الخصوصية التي هي انتفاء السجع من الخطب الإسلامية و لكن ليس الأمر على إطلاقه فإنما المقصود بالسجع الذي ذمه الرسول الكريم، وعريت منه الخطب الإسلامية هو السجع المتكلف، و لذلك قيده الرسول الكريم بسجع الكهان على حد قوله: "اسجعا كسجع الكهان".

أما السجع المطبوع غير المتكلف فقد جاء في كلام العرب جاهلية و إسلاما و ندرة هذه الخصوصية في كلام الرسول الكريم و كلام صحابته لا تعني تحريمه وإنما تعني ذمه وذم قائله متى كان متكلفا كسجع الكهان.

و لبعد تأثيره في النص الأدبي من حيث المعنى والمبني درسه البلاغيون ونقاد الكلام حتى صنفوه أبوابا و نوعوه أنواعا فجعلوا من السجع الطويل الفقر و السجع القصير، و السجع المزاوج و السجع المتوازي و المطرف

---

(١) من أدب الدعوة الإسلامية / عباس الجراري ص ١٢١ ط٢ دار الثقافة / الدار البيضاء .





والترصيع و المتوازن وساقوا له الشواهد من القرآن الكريم ومن كلام العرب، يقول عبد القاهر الجرجاني:

((و لست تجد هذا الضرب يكثر في شيء ويستمري كثرته و استمراره في كلام القدماء كقول خالد: (ما الإنسان لولا اللسان)؟إلا صورة ممثلة وبهيمة مهملة، وقول الفضل بن عيسى الرقاشى: سل الأرض، فقل من شق أنهارك، و غرس أشجارك و جنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا، قال عبد القاهر:

(و إن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبي ﷺ تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التي قدمت، و ذلك كقول النبي ﷺ: (الظلم ظلمات يوم القيامة)* وقوله ﷺ : (لا تزال أمتي بخير ما لم تر الغنى مغنما و الصدقة مغرما* ❖ وقوله: (يا أيها الناس، افشوا السلام، و أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام و صلوا بالليل و الناس نيام تدخلوا الجنة بسلام * ❖

قال عبد القاهر: فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من اجل السجع، و ترك له ما هو أحق بالمعنى منه، و أبر به، وأهدى إلى مذهبه[1]

❖ الحديث في مسند الدارمي كتاب السير ص ٧٢ مسند الإمام أحمد ٢/ ٩٢، ١٠٦ ، ١٣٦

❖ الحديث في صحيح مسلم .

❖ الحديث في سنن الترمذي كتاب القيامة ٤٢ وفي سنن بن ماجة كتاب الأطعمة١

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص٩ طبعة/ محمد رشيد رضا . دار المعرفة . بيروت .





ويقول الرازي :(ثم إن روعي التساوي في جميع كلمات القرائن كان أحسن كقول الله تعالى: " وهديناهم الكتاب المستبين ، وآتيناهم الصراط المستقيم ".(*)

ويمضى قائلا: واعلم أن السجع قد يكون متكلفا بالتعسف، و علامته أن يكون الحرف لم يحتج إليه لأجل المعنى، و إنما احتيج إليه لأجل التقفية أو إن كان فيه معنى فقد ترك الأولى منة وذلك هو السجع القبيح[1] .

ومعلوم أن نصوص الأدب الإسلامي من خطابه أو رسالة أو عهد أو وصية أو شعر سواء كانت هذه النصوص من العهد النبوي أو من العهد الأموي معلوم أن معظم النصوص الأدبية في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الأدب قد عريت من زخرف القول و الصنعة المتكلفة بما في ذلك ظاهرة السجع و برهان ذلك ما مر معنا في أول لفصل من هذه الدراسة بما في ذلك خطبة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

و إذ كنا نستمد الإبداع من إيراد عدد من نصوص الأدب الإسلامي عبر تاريخ الأدب سواء من النثر بأنواعه أو من الشعر بألوانه فان في كلام الأدباء والأنبياء ما ينهض بعدد من الدراسات البيانية و النقدية و الأدبية سواء من أثار المتقدمين – كما مر ذكره – أو من أثار من وليهم إلى عصر النهضة الحديثة.

(*) سورة الصافات الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي ص١٤٣ تحقيق د / بكري شيخ أمين .



وما دام الكلام على نصوص الخطابة لم يزل متصلا أولاً بآخر فهذه خطبة أخرى للخليفة العباسي (أبي العباس عبد الله بن هارون الرشيد)) حيث اشرنا إلى اختيارها فيما تحدثنا عنه سابقا[1] .

ذكر بن قتيبية – في عيون الأخبار – خطبة أبى العباس المأمون عبد الله ابن هارون الرشيد في يوم الفطر بعد التكبير ما نصه:

" إن يومكم هذا يوم عيد وسنة و ابتهال و رغبة، يوم ختم الله تعالى به صيام شهر رمضان و افتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمه الشهر و أول أيام شهور الحج، و جعله معقبا لمفروض صيامكم، و متنقل قيامكم، احل فيه الطعام لكم ؟ وحرم فيه الصيام عليكم، فاطلبوا إلى الله تعالى حوائجكم واستغفروه لتفريطكم، فانه يقال: لا كبيرة مع استغفار ولا صغير مع إصرار، ثم التكبير و التحميد و ذكر النبي ﷺ و الوصية بالتقوى، ثم قال: (فاتقوا الله عباد الله، و بادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، و لم يحتضر الشك فيه أحدا منكم، و هو الموت المكتوب عليكم، فانه لا تستقال بعده عثرة، ولا تحظر قبلة توبة، و اعلموا انه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه ولا يعين على جزعه و علزه* وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته و ضيقه ووحشته وهول مطلعه و مسائلة ملائكته، إلا العمل الصالح الذي أمر الله تعالى به فمن

---

(١) انظر ص٩ من هذه الدراسة .

❖ العلز بالتحريك الضجر والعلز - أيضا – شبه رعشة تأخذ المريض أو الحريض على شيء ، والعلز – أيضا – القلق و الكرب عند الموت / لسان العرب مادة لعز ص٣٨٠ .



زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته، و فأتته استقالته، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه و بذل من الفدية ما لا يقبل منه، فالله الله عباد الله فكونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها، فانه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل[١] المبسوط لكم، و احذروا ما حذركم الله تعالى منه، و اتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عندما يضع في ميزانه مما يثقل به، و ما يمل[٢] في صحيفته الحافظة لما عليه وله، فقد حكي الله تعالى لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضهم عنها قال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[٣] ، وقال : ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٤]

ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإنه كل ما لها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعوا إلى غيرها، و أعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله تعالى لها ونهى الله عنها فانه يقول : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[٥] وقال : ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ﴾[٦]

---

(١) المهل بالتحريك أي اتاد وتقدم في الخير / أساس البلاغة للزمخشري من مادة مهل .

(٢) يمل بضم الياء و كسر الميم أي أملى الكتاب . والملى الزمان الطويل / مختار الصحاح للرازي مادة ملل .

(٣) سورة الكهف الأية ٤٩ .

(٤) سورة الأنبياء الأية ٤٧ .

(٥) سورة لقمان الأية ٣٣ .

(٦) سورة محمد الأية ٣٦ .





فانتفعوا بمعرفتكم بها، و بإخبار الله تعالى عنها، و اعلموا أن قوما من عباد الله أدركتم عصمة الله تعالى فحذروا مصارعها، و جانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله تعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها[1] .

إذا تأملنا أفكار هذا النص من خطبة المأمون أدركنا سر الإيمان و عظمته وكيف يصنع في القلوب اليقظة و الضمائر الحية و النفوس الزكية والأرواح المطمئنة.

فإن تعابير هذه الخطبة مواعظ زاجرة، وعبر مؤثرة و أقوال تنم عن حصافة عقل و نضح عاطفة دينية و قودها الآيات و الأحاديث الشريفة والتفكير في عظمة الخالق على حد ما قال الإمام ابن الجوزي :

" تأملت على أكثر الناس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية ، فإن الغافل يقول سبحان الله عادة ، و المتيقظ لا يزال فكره في عجايب المخلوقات أو في عظمة الخالق ، فيحركه الفكر فيقول "سبحان الله " .

ولو أن إنسانا تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل وإقامة الماء على عظم العجم ، وجعل الغشاء عليه يحفظه وتصوير الفرخ في بطن البيضة ، و الآدمي في حشا الأم إلى غير ذلك من المخلوقات دفعه كل ذلك إلى تعظيم الخالق ، فقال : "سبحان الله " و كان

---

(١) عيون الأخبار لبن قتيبة ج٢ ص ٢٥٥ ،٢٥٦ .

هذا التفكير ثمرة الفكر[1] .

و ثمر هذا التفكير لدى الأديب المسلم يعني أن من أرقى وظائف الأدب أن يظل مرآه صادقة تعكس ما للأمة و الشعب من دور حضاري، وان يعبر الأدب عن خلجات و أفكار نفس إنسانية حية تعمل لرفعة الفرد و الجماعة على حد سواء ، و الأدب الإسلامي ادعى إلى التأثير بما يعيشه المجتمع المسلم في كل مكان و زمان من تفاعلات و أحداث ووقائع و سير يزنها الأديب شاعرا أو ناثرا بالقسطاس المستقيم ناصحا و مرشدا و موجها أو متألما نادبا متحسرا إن كانت هذه الأحداث و الوقائع و التفاعلات تسير في خط معاكس لما يجب أن يكون عليه المسلم من تبصر وتبصير بحياته وفردا مسلما ينتمي إلى مجتمع مسلم له كيانه و مآله و مصيره و قيمته بين الناس كافة.

وما دام الأمر كذلك فإن الأدب الإسلامي هو ذلك العامل الأساس والأداة الفعالة التي تحرك عجلة المجتمع المسلم وتديره لتعمل وفق ناموس طبيعي يؤثر و ينتج بقدر ما تتحد الأهداف وتتجه الآمال ويحسن العطاء معطيه ويحسن المتلقي أخذ ما يسدى إليه.

ولقد أعطى المأمون في خطبته هذه عطاء من يعرف الأدب و يدرك مدى تأثير الكلمة قبل إخراجها و لذلك تنوعت أفكار خطبته في إطارها التعبيري

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٣٤١ – دار الفكر مراجعة و تحقيق على الطنطاوى و ناجى الطنطاوى .



فانتظمت في ثناياها عددا من بسط القيم الخلقية كشرح مفهوم التقوى والحذر من الركون إلى الدنيا و شرح معنى الصلاح.

فمفهوم التقوى - كما جاء في نص الخطبة - أن تقرن بالعمل الصالح والاستعداد لما اعتدل فيه اليقين ولم يحتضر الشك فيه وهو الموت وأن يبادر : بالأعمال الصالحة لتحقيق تقوى الله عز و جل.

فاتقوا الله عباد الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم.

و التحذير من الركون إلى الدنيا يأتي في أسلوب من السهل الممتنع فعبارة تذم وتقدح في الدنيا والركون إليها ، وعبارة تعتدل في تقويم النظرة إلى هذه الحياة وإنها وسيلة لا غاية .

فمن الصيغة الأولى قوله رحمه الله (ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإن كل ما لها ينهى عنها وكل ما فيها يدعوا إلى غيرها".

ومن الصيغة الثانية قوله : ((فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ، وأعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله تعالى فحذروا مصارعها وجنبوا خدائعها ، وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها))

ويأتي شرح معنى الصلاح و الاستقامة على منهج الله تعالى ، يأتي في أسلوب رصين محكم تتراوح فقرة بين الطول والقصر كقوله رحمه الله :





((كونوا قوما سالوا الرجعة فأعطوها ، إذا منعها الذين طلبوها ، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم إلى قوله : (فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة لما عليه و له) .

والخلاصة أن هذا النص قد جمع من القيم الخلقية في إطاره ما يثقل به الكلام في التأثير ، لأن مجمع الخلق القويم إنما يكون في السلوك ومتى حسن سلوك المرء حسن خلقة ومتى حسن خلقة حسن كلامه ومتى اجتمعت له هذه القيم مال الصلاح و التقوى التي هي الأصل الخلقي الذي تتفرع منه القيم الإسلامية كلها فهي الباعث الملهم لمحامد الأخلاق، وهي الصمام الذي يحكم كل قول ويضبط كل فعل ولذلك نلحظ في نص هذه الخطبة وفي غيرها من نصوص الخطابة الإسلامية إن نص الخطابة في الإسلام قد ساير هذه التعاليم الدينية الهادفة الملتزمة لمحامد الأخلاق[1] وكثرة تلك النصوص التي سارت في هذا الاتجاه منذ عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلى العهد الأموي كله والصدر الأول من العهد العباسي وما وليه من عصور الأدب إلى عصر النهضة الحديثة الذي لم تزل منابر الخطابة فيه تضج بعبارة الوعظ والإرشاد والتوجيه وحسبنا في هذا خطب الدعاة و العلماء الذين لا يزالون ينافحون عن دين الله بالكلمة الطيبة وينشرونه بين الناس وفق منهج

---

(١) القيم الخلقية في الخطابة العربية ص٦١ ،٦٩ / سعيد حسيم منصر / الطبعة الثانية .





سليم فكريا وأدبيا وعلميا فهو جهاد بالنفس والمال و السلاح و الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ونلحظ في جميع الخطب الإسلامية خلوها من زخرف القول والصنعة لاتجاهها إلى شرح حقائق الإسلام وتبين نظامه وبسط أحكامه ومثل هذا الشأن لا يصلح فيه أسلوب المجازات و أسلوب الصنعة الكلامية فهو إلى أسلوب الحقيقة أحوج لقيامة بشرح الحقيقة المتمثلة في حقيقة هذا الدين الحنيف .

وإذا كان للخطابة الإسلامية من التأثير ما أمكن أن نوضح شيئاً منه على غرار ما سبق ذكره من شواهد هذا اللون الأدبي فإن في نصوص القصة الإسلامية ما ينهض بمثل هذه القيم ، وهذا ما سنقف عليه في الفصل الثاني من هذه الدراسة .





الفصل الثاني

القصة الإسلاميـــة

موضوعـــاتهـــا

خصائصها الفنية




شبكة
الألوكة
www.alukah.net

الجديد
NEW & EXCLUSIVE



إذا أراد باحث أن يدرس القصة الإسلامية سواء على مستوى القصة الأدبية أو الأقصوصة ، أو الأدب ذي القصص الروائي فإن هذا العمل يعنى بالضرورة الوقوف على معرفة القضايا الجزئية والكلية ومعرفة المقاييس و القيم التعبيرية المتمثلة في استجلاء المسائل التالية :

أولا : العنصر القصصي في الأدب العربي القديم

ثانيا : أثر الإسلام في المسار الأدبي و توجيهه

ثالثا : الفنون النثرية الإسلامية بعامة ، والقصة الإسلامية بخاصة .

رابعا : البنية العامة للقصة الإسلامية .

خامسا : نسج القصة الإسلامية " البناء الفني — اللفظ و المعنى .

سادسا : العناصر الفنية "القيم التصويرية — أو البناء الشعوري "

سابعا : أنواع القصة الإسلامية .

ثامنا : موضوعات القصة الإسلامية .

تاسعا : أغراض القصة الإسلامية .

عاشرا : الإسلامية في منهج القصة الفني[1] .

ومعلوم أن استقصاء هذه الموضوعات يتطلب بحثا مستقلا ، فلنقتصر على العنصر القصصي في الأدب العربي القديم ، وهذا يعني قضية وسعها البحث العلمي درسا ، ووسعها النقد الحديث ما بين إفراط و تفريط ، ففريق قد وقف

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٣٣ وما بعدها د / محمد بن حسن الزير / الطبعة الأولى .



من هذه القضية موقف المنكر المتشدد حيث حكم بعدم وجود القصة في أدب العرب .

ورأى" فقر ذلك الأدب من الناحية القصصية قد بلغ حدا كبيرا ، لأن العرب – في نظر هذا الفريق – لم يعرفوا القصة ولم يمارسوها في ماضيهم . وقد أشاع هذه المسألة المستشرق الفرنسي " أرنست رنان " الذي يرى تعرية الأدب العربي القديم من العنصر القصصي ، ومثله المستشرق " ديبور " وقد اتجه هذا الاتجاه فريق من الباحثين العرب مؤيدين فكرة القول عند المستشرقين الذين ينادون بخلو الأدب العربي القديم من القصة .

وهذا يعنى أن الفريق المستشرق لم يدرس تلك القضية دراسة فاحصة عميقة تقف الباحث على الحكم المنصف قبل أن يطلقه ، وإنما أطلق حكمه لغرض فكري الهدف منه تنقص الفكر العربي و الإسلامي ورميه بالضحالة والتقصير .

وإن الفريق الثاني وهم العرب الباحثون الذين ساروا في اتجاه هؤلاء المستشرقين قد غفلوا عن الهدف الإستشراقي من وراء ذلك الافتراء الذي ينزع عن رمي التراث العربي بالنقائص ، وأنه عالة على غيره من فكر الأمم الأخرى وحضارتهم ، وكان الأولى بالفريقين أن يتفحصوا – بدقة – تراث الأمة العربية ولكل فريق بعد العناية الفاحصة أن يصدر ما يراه موضوعيا في نقد التراث من خلال هذا الجانب .



والحق أن العرب قد عرفوا القصة منذ أقدم العصور وتراثهم حافل بالألوان القصصية المختلفة التي تدل على وجود فطرة تنشئ القصة وتتذوقها، وقد شهد بذلك بعض المستشرقين في آرائهم المنصفة من مثل : " كارل بروكلمان " الذي يقول في حديثة عن أولية النثر : " لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم – أيضا – مقاما هاما إلى جانب الشعر في سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة ، وفي مجالس أهل القرى و الحضر[1] . وهذا " جوستاف لوبون " يقول عن العرب في إحدى رحلاته إلى الشرق : " أتيح لي في إحدى الليالي أن أشاهد جمعا عربيا من الحمالين والنواتي و الأجراء يستمعون إلى إحدى القصص ، وإني لأشك في أن يصيب قاص مثل ذلك النجاح لو أنشد جماعة من فلاحي فرنسا شيئا من أدب " لامارتين " او " شانو بريان " فالجمهور العربي ذو حيوية وتصور يتمثل ما يسمعه كأنما هو يراه[2] " .

وهذه الآراء السابقة القائلة بخلو الأدب العربي القديم من جوانب القصة الأدبية لا اعتماد عليها لأنها تخلوا من الحجة و الدليل إذ نفي هذا اللون من الأدب نفي مجمل عام . أما لو كان النفي مسلطا على القيم الفنية في نصوص التراث الأدبي التي حفظت لنا ألوانا متباينة الطعوم تحكي المواقف

---

(١) تاريخ الأدب العربي بروكلمان ص١٢٨ دار المعارف ط٣ .

(٢) القصص في أدب العرب لمحمود تيور ص٢٤ ، والقصص في الحديث النبوي الشريف د / محمد بن حسن الزير ص٣٣ وما بعدها .

الإنسانية والطرف التي هي من قبيل القصة و الأقصوصة لو كان هذا هو ما يعنيه هؤلاء النقاد لأمكن أن يكون ما تناقلوه من أراء وأثاروه من نقد مثار جدل وأخذ و عطاء ، لأن القصة في الأدب العربي القديم نشأت كغيرها من فنون الأدب لم تستقم لها معالم الفنية إلا عند ظهور الإسلام حين كان من أدوات بسطه و نشره الدعوة إليه بكل بيان وشاهد ذلك القصص القرآني الفريد والقصص النبوي الشريف .

غير أن هذين اللونين من ألوان القصص الأدبي كلاهما لا يخضع في معالمه الفنية لأوهام القصاصين وأخيلتهم .

إذ اللون الأول من كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد* والثاني من كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى*

وهناك أمر ينبغي التنبيه عليه ، وهو أن هؤلاء القائلين بنفي القصة من الأدب العربي القديم سواء من النقاد المستشرقين أو من نقاد العرب الذي ساروا في هذا الاتجاه لم يحددوا جميعهم الفترة الزمنية المعنية " بالأدب القديم " فبعضهم فصل قي قوله وأراد بالفترة الزمنية " العصر الجاهلي " ويقال لمن أراد أدب تلك الفترة : إن الأمر ليس على إطلاقه ، لأن كتب التراث الأدبي حافلة

❖ سورة فصلت الأية٤٢ .

❖ سورة النجم الأية ٤ .



بألوان من القصص كما أسلفنا غير أن هذه القصص ينقصها شيء من معالم الفنية التي يتطلبها الأسلوب القصصي .

وبعضهم أجمل الفترة الزمنية. ولم يحدد قدمها بفترة معينة أو عصر معين ، يقال لهؤلاء : إن تاريخ الأدب العربي حين مر بمراحل نضجه وبلغ أوج كماله في عصر صدر الإسلام و العصر الأموي و العصر العباسي الذي يعده النقاد عصر ازدهار العربية في علومها وآدابها ، إن تاريخ الأدب العربي عبر تلك العصور قد حفل بألوان من القصص الأدبي الفريد الذي مهد للدراسة الأدبية و النقدية في هذا الجانب ويكفى في ذلك فن " المقامات "

بل أين نضع تلك القصص ذات المواقف و الطرف مما حفل به الأدب العربي عبر عصوره المتطاولة من العصر الجاهلي إلى أواخر العصر العباسي وأوائل عصر النهضة الحديثة مما نجده قارا في مصادر التراث و بخاصة مصادر التراجم والسير فإن القارئ لا يعدم وجود قصة تحكي موقف هذا الحاكم أو هذا القائد أو هذا البطل أو هذا الشاعر أو هذا العالم ، وللعرب في أدبهم منذ جاهليتهم إلى أخر العصر العباسي وأوائل عصر النهضة الحديث عدد كبير من القصص التي تحكي حياتهم الفكرية و الأدبية و الاجتماعية ، ومن جملة ذلك اللون القصصي : " قصص تشرح ما أثر عنهم من عادات و شمائل في الأسباب الدائرة بينهم و بين ما انتهجوه في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل.





وقصص تصف أحوال المرأة العربية ، وما تجري عليه تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ، ومعاونتها له في الحياتين الاجتماعية و المادية بالسعي في سبيل الرزق ، و الاشتراك في خوض معامع الحروب ، والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة في عهودهم القديمة ، ولهم قصص تمثل ذلاقة ألسنتهم ، وحكمة منطقهم ، وما يضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ ، وبلاغة المعنى ، وجمال الأسلوب ، وحسن التصرف في الإبانة و التعبير .

ولهم قصص تسرد بارع ملحهم وروائع طرفهم ، في جواباتهم المسكتة ، وتصرفاتهم الحكيمة ، و تخلصاتهم اللبقة ، مما يدل على حضور الذهن ، وسرعه البديهة ، و شدة العارضة[1] .

بل نجد في أدبهم و بخاصة فن الشعر قصصا شعرية تحكى أروع المواقف الاجتماعية و البطولية كقصة الحطيئة مع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سجنه فلم يجد بدا من الشعر يستعطف به عمر رضي الله عنه.

و كقصته مع الضيف الطارق و السيد و الزوجة مع بنيها في شعبهم إبان فقر وقر ، و كموقف تميم بن جميل مع الخليفة العباسي المعتصم و غير ذلك كثير مما حفلت به كتب التراجم والتاريخ و السير . والذي ينبغي أن يقال:

---

(١) قصص العرب المجلد الثاني ص٤٤١ وما بعدها تأليف أبي الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولي وعلى البيجاوي / دار إحياء التراث العربي / بيروت .



إن القصة في الأدب العربي فن تكامل نضجه في عصر النهضة الحديثة ، فقد كان إبان عصور الأدب الأولى من العهد الجاهلي إلى العهد الأموي في الأندلس و في عصور الانحطاط و ما بعدها بقليل قد كان فن القصة وليدا لم يستطع السير على قدميه حيث لم يوجد له من هواة القصة من يأخذ بيده ويهذبه ليعطى كغيره من فنون الأدب الأخرى .

و معلوم إن مقومات هذا اللون من الأدب أعني فن القصة – لا يتم عطاؤه بواسطة الأديب الكاتب المتأثر به، بل لابد من مراعاة جميع مقومات هذا اللون الأدبي ومن حيث عامل البيئة وما يجري فيها من أحداث على مسرح الحياة تكون موضوع عطاء لهذا الأدب ، ومن حيث طريقة الاختيار في الشخصيات القصصية مراعيا في ذلك قرب هؤلاء الأشخاص المخبرين من أحداث القصة المكتوبة تفاعلا و واقعيا و تأثرا أسطوريا إن صحت العبارة - ولا بد من مراعاة تقبل المتلقين لموضوع ومغزى وأهداف القصة – التي ينشؤها الأديب بالإضافة إلى مراعاة الأسلوب القصصي الذي تتطلبه القصة كأسلوب الحوار ، وتغاير العبارات بين الطول و القصر ، و توالي أسلوب العرض و التخصيص وبروز علامات الاستفهام التي تثير الدهشة و الغرابة و التعجب تارة وتثير التساؤل الذي يحلق بخيال المتلقي في آفاق بعيدة بحثا عن الحل لعقدة القصة تارة أخرى .





هذا بالإضافة إلى تعمد الكاتب القصصي أسلوب الإثارة و الشد والتشويق و قدرته على طريقة البدء و الختام ، ولقد أبدع أدباء العصر الحديث في الفن القصصي حتى كاد أن يفوق هذا الفن غيره من فنون الأدب كفن الشعر والرسم و الموسيقى ، ولا أرى ما يدعو إلى ذكر أسباب هذه الطفرة العارمة لفن القصة فلذلك موضعه في حديث أخر ولا أرى ما يدعوا إلى عد وحصر القصص و القصاصين في كل لون من ألوان موضوعات القصة وأنواعها ، لأننا بصدد الوقوف على القصة في الأدب الإسلامي أين تكون ؟ وما مدى تأثيرها في شيء اسمه الأدب ؟ وما مدى تفاعل القصة الإسلامية مع البيئات الإسلامية وغيرها من البيئات غير الإسلامية ؟ وهل استطاع هذا اللون من ألوان الأدب الإسلامي أن يقف مع فنون الأدب الأخرى كالشعر ، وأين المسرح الإسلامي؟ وهل استطاع فن القصة أن يقف على خشبة المسرح الإسلامي ليمد المتلقين بما يؤثر ويغني و يرشد؟ تساؤلات كلها محط نظر وبحث ووقوف واستقصاء .

حقا لقد برز في أواخر العشرينيات المنصرمة كتاب و أدباء ومفكرون استطاعوا أن يثيروا هذا اللون الأدبي الإسلامي ، وأن يخرجوه للمتلقين فنا رائعا جميلا مؤثرا ، ومن فرسان الكلام في فن القصة الإسلامية المعاصرة عبد الحميد جودة السحار في قصصه الإسلامية ، ونجيب الكيلاني في جميع قصصه التي منها : عمالقة الشمال ، والنداء الخالد ، وليالي تركستان





ونابليون في الأزهر ومنها قصصه الإسلامية للأطفال تلك التي جمعها تحت عنوان " جنة الطفل " .

وممن كتب في القصة الإسلامية : أحمد بدوى في قصته : "أختاه أيتها الأمل ، وقصة "إصلاح " لعزيزة الإبراشي ، وقصة الإيمان ذلك السفر القويم الذي يجمع بين دفتيه عددا من الموضوعات ذات الأسلوب القصصي الإسلامي المؤثر الجميل الشيخ نديم الجسر إلى غير ذلك من القصص و الموضوعات ذات الأسلوب القصصي كالذي حرره الأديب المسلم سيد قطب في عدد من آثاره الأدبية النافعة ، وكالذي كتبه الأستاذ عبد العزيز الرفاعي في سلسلته القصصية التي منها : كعب بن مالك الصحابي الأديب ، وخولة بنت الأزور ، وأم عمارة الصحابية الباسلة ، ناهيك بما كتب الدكتور عبد الرحمن الباشا في سلسلته : صور من حياة الصحابة وسلسلته : صور من حياة التابعين وما كتبه عدد من الأدباء في إصدارات إدارة الثقافة و النشر بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية عن أدب الناشئة وفق موضوعات قصصية إسلامية تعين النشء وتهيئه لمعرفة دينه وأحكامه وما كان للرعيل الأول من المسلمين من خدمات جليلة لنشر الدعوة الإسلامية ، وما كان لهم من بطولات و مواقف مشرفة تجاه الإسلام و رسول الإسلام ، وما كان للخلفاء الأربعة ومن اقتدى بهم في الهداية والإرشاد ومراعاة أحوال المسلمين ، وما كان لاعلام المسلمين



عبر عهوده من أياد في الإصلاح و الدعوة وإنكار المنكر ، والوقوف مع الحق "أولئك الذين اتقوا وأولئك هم المفلحون " .

ومن هنا يلحظ كل ناقد منصف أن الأدب العربي عبر تاريخه الطويل لم يخل من الفن القصصي ، وأن هذا اللون من الأدب إنما تكامل نضجه وأتت ثمرته في عصر النهضة الحديثة باستثناء القصص النبوي فثمرته سابقة على كل لون أدبي .

والرأي الأقرب إلى الصواب والإنصاف هو ما ساقه الناقد الأدبي المعاصر الدكتور محمود ذهني في كتابه " تذوق الأدب " طرقه ووسائله ، فقد أزجى من الآراء النقدية السليمة حول هذه القضية – أعني قضية خلو الأدب العربي القديم من الفن القصصي – أزجى من الآراء حول ذلك ما أقام بالبرهان والدليل التاريخي الموثق من غير ميل عاطفي ، وساق من الأمثلة و الشواهد ما يحسن أن أورده في هذا المقام فهو رد منصف ورأي مقنع .

تحدث هذا الناقد عن القصة الأدبية تاريخها وخصائصها و أغراضها وأنواعها ، وفي معرض حديثه عن هذه القضايا يقول :ليس الفن القصصي حديثا في الأدب العربي كما يقول البعض وبخاصة المستشرقين – أو أنه منقول عن الأدب الغربي الحديث نقل ترجمة واحتذاء كما يقول البعض الأخر – وليس معناه كذلك إن الفن القصصي لم يكن موجودا في الأزمان التي كان الشعر فيها متربعا على عرش الأدب ، ولكن الحقيقة أن الفن



القصصي كان موجودا دائما مثل ما كان الإنسان موجودا دائما إلى حين ، بل إن الفن القصصي كان موجودا قبل الشعر .. لأن الحاجة الوجدانية إليه تسبق الحاجة الوجدانية إلى الشعر من حيث الترتيب الزمني ومن حيث الأهمية و الغرض ، و نستطيع أن نلحظ هذا السبق إذا ما نظرنا إلى الطفل الصغير أو إلى أنفسنا حين كنا أطفالا صغارا فمن منا الذي لم تتفتح أذناه – وهو ما زال في المهد صبيا – على أقاصيص أمه و جدته – ويقول علماء الاجتماع و الاقتصاد السياسي إن الأمم و الحضارات من خلال تأثرها بالدور الأدبي تسير في تطورها البدائي على هذا النسق وبالذات الدورة التي يسير فيها الإنسان فهي تولد رضيعة – أو بدائية – و تتطور في درجات من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الرجولة ، ومنها إلى الشيخوخة و الكهولة حتى تبلغ النهاية المحتومة .

وإذا كانت عملية القص تصحب الإنسان منذ ولادته ، وتصحب الأمة منذ نشأتها فإن فن القصة موجود في الأمة العربية و الإسلامية قدم النشأة الأولى كما هو الحال في أي أمة أخرى لكنها – أي القصة – في نشأتها لم تكن من قبيل الفن القصصي ذي الملامح الفنية المتكاملة .

ثم إن القصص الفني لم يوجد في العالم الغربي إلا بعد القرن الرابع عشر الميلادي – باعتبار أن بدايته – كما يقول النقاد الغربيون أنفسهم هي قصة "جحيم دانتي " في ايطاليا . أو " دون كيشوت " في أسبانيا " أو " روبنسن



كروز" في انجلترا ثم تطور بعد ذلك في قصص العصر الكلاسيكي التي تمثلها روايات الفروسية في كل من فرنسا على يد " الكساندر دوماس " وانجلترا على يد " سير توماس مالوري " .

ويدعي المستشرقون و المحذلقون السائرون في ركاب التبعية الثقافية – يدعون بعد هذا – أن الأدب العربي لا يعرف الفن القصصي أو لم يعرفه بعد – لأنه لم يكن فن قصصي قديم – كما يزعم هؤلاء و هؤلاء ، أو لأنه عندما اتصل بالثقافات الغربية في أوائل هذا القرن ، أو أواخر القرن الماضي انبهر بفنهم القصصي ، وأخذ يحاول ترجمته واقتباسه ثم محاكاته و تقليده .

ويقال لهم – جميعا – ردا على ما زعموا – إن هؤلاء الغافلين المتفرنجين الذين تناسوا ماضيهم وتراثهم التليد ، والذين كانوا يتباهون بما يلبسون من ثياب انجليزية الصنع ، و يتغنون بأسمائها الأعجمية دون أن يفطنوا إلى أن القطن الذي صنعت منه إنما هو من زرع بلادهم وجني أيديهم ، و كذلك الحال بالنسبة للقصص الحديث فهو وإن كان صناعة أوربية إلا أن مادته الأولية عربية صميمة ، فالأدب العربي لم يكن حافلا بالقصص الفني فحسب ، وإنما هو في الحقيقة الأصل والمنبع الذي استقى منه الأدباء الأوروبيون الكتابة القصصية .

فالقصص التي اعتبرها نقاد الغرب البدايات الشامخة لأدبهم القصصي قد أعترف المنصفون منهم بأنها متأثرة بقصص عربي سابق لها بمئات السنين.





فجحيم دانتي " مأخوذة من " رسالة الغفران " لأبي العلاء المعري " التي سبقتها بأكثر من خمسمائة عام أو أنها هي.. وقد رجح الدارسون اطلاع دانتي عليها ، وقصة " دون كيشوت " لمؤلفها " ميجيل سيرفانتس " الأسباني التي كتبها عقب نزوح العرب من الأندلس " اسبانيا " مباشرة تكاد تكون تأثرا فنيا بسيرة عنترة بن شداد الشعبية – التي كانت وما تزال معروفة في أرجاء العالم العربي ، بل إن " سيرفانتس " نفسه كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يعترف في مقدمه قصته بأنه اخذ فكرتها وسياق وقائعها من كاتب كافر، وهو يعنى الرمز إلى شخصية عربية مسلمة إقرارا بما كان واقعا من سيادة قصص الفروسية في ذلك الحين على يد العرب " .

أما قصة روبنسون كروز التي كتبها "ديفو " الانجليزي فقد قرر النقاد الانجليز أنفسهم أنه أخذها أخذ احتذاء من قصة " حي بن يقظان " التي كتبها الفيلسوف العربي " ابن طفيل " قبل " ديفو " بمئات السنين . وثبت اطلاع " ديفو " عليها .

وسيد الأدلة و البراهين على وجود الفن القصصي في أدب العرب القرآن الكريم ، و حديث رسول الله ﷺ ، وحجة ذلك طبعا اللفظ الشريف الذي ينطق به كتاب الله من قوله تعالى : ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (١)

---

(١) سورة يوسف من الأية ٣ .



ومعلون أن كتاب الله تعالى وأن كلام رسوله ﷺ – كما أسلفنا – لا يخضع كل منهما لكلام البشر في معالم الفن القصصي .

والحق أن الفن القصصي في أدب العرب كان معروفا و موجودا قبل الإسلام و بعده ، بل إن الفن القصصي بصفة عامة – وفي أوروبا بصفة خاصة – يعتبر عربي الأصل و النشأة أخذ الغربيون ومن تابعهم مبادئه وأشكاله الأولى عن العرب ، ثم حوروا فيها و أدخلوا عليها من التجديد و الترتيب و التنسيق ما جعلها تبدو وكأنها شيء جديد يخدع السطحيين بجدته ويبهرهم بتنوعه[1] .

والذي ينبغي التنبيه عليه إزاء آراء هؤلاء النقاد أن يقال : ما أجمل آرائهم لو وجهت على نقد هذا اللون الأدبي في تراث العرب الأدبي وفي حاضره فهذه المسألة هي وظيفة النقد الأدبي الهادف المنصف .

وإذا أردنا أن نقف عند هذا اللون القصصي من خلال القصة الإسلامية فسنلقى عددا كبيرا من النصوص القصصية التي عممت الفكرة و نقلت الصورة الأدبية الحية ، و برزت في ثناياها معالم الفنية الأدبية بعامة ، ومعالم الفنية الإسلامية بخاصة .

لأن هناك من الفروق الدقيقة بين المعالم الفنية الأدبية عامة و المعالم الفنية الإسلامية خاصة ما يمكن كل أديب وكل باحث أن يدرك العلم الفني

---

(١) تذوق الأدب طرقه ووسائله ص ١٢٧ . ١٣٤ وما بعدها د / محمود ذهني مكتبة الأنجلو المصرية .

الكبير للأدب الإسلامي ومنه القصة الإسلامية ، ومن أدق الفروق هنا : أن فريقا من الناس يظن أن الأدب إذا كان جاهليا فاسقا كان عريقا في أدبيته ، وإذا كان دينيا لم يستحق أن يدعى أدبا ، لأنه خلا من المتعة و اللهو .

صحيح أن الأدب قد يكون فاسقا ، ولكن الفسق ليس من مقومات الأدب الغائي النبيل الهادف ، ولا من خصائصه اللائقة به مهما كثر ذلك في النصوص الأدبية من أي جنس من أجناس الأدب .

كما أن الأدب قد يغلب عليه طابع الدين ، ويصبغه بصبغته ، ولكن هذا الطابع لم يفقده القوة و الجمال ، ولا يمكن أن يرمى الأدب من خلال صبغته الدينية بالعجز أو القصور ولا يشعر في الأدب الإسلامي بعجز أو قصور إلا الذين يتصورون في الإسلام نفسه العجز و القصور ، والإسلام من هذه الخصوصية ومنهم براء .

وخير مثل في ذلك حياة رسول الله ﷺ فقد كانت حياة إنسانية حافلة شاملة ، وقد صورها لنا أدبه وأحسن تصويرها ، ولها نماذج كثيرة متنوعة[1] في دنيا الأجناس الأدبية التي منها القصة الإسلامية فليكن أول نص من نصوصها ما صح عنه ﷺ في قصة " المسئولية و الجزاء " عن سمره بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة الغداة أقبل علينا بوجهه فقال : " هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا : فقلنا : لا قال : لكن أنا رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي

(١) الأدب الإسلامي وصلته بالحياة ص ٥ ، ٦ لمحمد الرابع الحسني الندي / مؤسسة الرسالة .



فأخرجاني إلى أرض فضاء أو أرض مستوية فمرا بي على رجل، ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد فيدخله في شدقيه حتى يبلغ قفاه ثم يخرجه فيدخله في الشق الأخر و يلتئم هذا الشق فهو يفعل ذلك به، قلت ما هذا ؟ قالا : انطلق، فانطلقت معهما فإذا رجل مستلق على قفاه، ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه فيتدهده الحجر فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان فيصنع ذلك، فقلت ما هذا قالا : انطلق فانطلقت معهما فإذا بيت مبنى على بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت : ما هذا؟ قالا : انطلق فانطلقت معهما، فإذا نهر من دم فيه رجل وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا دنا ليخرج رمى فيه حجرا فرجع إلى مكانه فهو يفعل ذلك به فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقت فإذا روضة خضراء فإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ في أصلها و حوله صبيان وإذا رجل قريب منه بين يديه نار فهو يحششها ويوقدها فصعدوا بي في الشجرة فأدخلاني دارا لم أرى دارا قط أحسن منها فإذا فيها رجال وشيوخ وشباب، و فيها نساء وصبيان فأخرجاني منها فصعدا بي في الشجرة فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل منها، فيها شيوخ وشباب، قلت لهما : أنكما طوفتما بي منذ الليلة فأخبراني عما رأيت فقالا : أما أنا سنخبرك : أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن



فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه و منخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال و النساء العراة الذين في مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه أكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ .

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة — قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله ﷺ: وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا تجاوز الله عنهم[1] .

وبعد فما يقول القائل حول هذا النص القصصي الكريم من كلام رسول الله ﷺ ؟

(١) صحيح البخاري جـ٩ ص ٨٠ وما بعدها طبع و نشر دار المعارف ٧ الرياض .





أيعمد الناظر إلى استجلاء الخصائص الفنية للألفاظ والجمل والتراكيب أم يعمد إلى استجلاء المعاني النبوية الشريفة أم إلى الكلام على أهداف هذه القصة وبيان مغزاها ؟ أم إلى الحديث عن الخصائص الفنية التي تتميز بها القصة في الأدب العربي على نحو مما درسه النقاد المعاصرون ؟

كحديثهم عن عناصر القصة التي تنبني من الخبر و العقد والحل وكحديثهم عن أبطال القصة ودور كل واحد منهم .

وكحديثهم عن الحبكة ومدى تلاحم بنائها في تصوير الأحداث وتجسيد الأخبار ، وبيان أوصاف هذه الحبكة من حبكة متماسكة أو حبكة مفككة، كل تلك الخصائص تتطلب من الناظر تأملا طويلا .

ولنبدأ بخصائص الألفاظ واستجلاء أوصافها ومدى تلاحمها مع الجمل و التراكيب وصياغة الصورة وأداء المعنى .

أما الألفاظ فقد تميزت بالسلاسة و الوضوح ، وبرئت من الغرابة والخشونة وجاءت كل لفظة مثل أختها حيث لا يحس القارئ بين كل لفظة و أخرى بوصف نشاز يبعد هذه عن تلك ، بل جاءت كل لفظة بما يتناسق مع الأسلوب القصصي من حيث العناية بتخير اللفظ المتلائم مع عبارات النص ، وهذا هو معنى التناسب الذي هو ضد المغايرة ، حتى لتكاد كل لفظة أن تحمل معناها و تعين ما بعدها وما قبلها في حسن العرض و سرد الحوادث و الأخبار بطريقة لا تمل .



ومن أبرز خصائص الألفاظ في هذا النص القصصي الكريم التناسب مع جو الحدث و الخبر حيث ورود كل منهما على هيئة متميزة على حسب الغاية من إيراده .

ولذلك يجد الناظر في سياق كل حدث أو كل خبر ما يناسب معناه ومبناه من حيث الجزالة و الفخامة أو الرقة والسهولة ، فأنظر إلى قوله ﷺ: "فإذا رجل متسلق على قفاه ، ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه .

فلأجل تصوير المشهد من خلال هذا الخبر الذي يشد الذهن إلى معنى القوة و الصلابة و الغلظة نجد التعبير بما يناسب المقام حيث لفظة مستلق ، وقفاه ، وفهر، وصخر ويشدخ .

وأنظر إلى قوله ﷺ: حين أورد هذا الخبر الذي يعج مشهده بمعاني الاسترواح النفسي و الاطمئنان و الهدوء حيث يقول : ﷺ : " فانطلقت فإذا روضة خضراء فإذا فيها شجرة عظيمة ، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان ، وإذا رجل قريب منه " .. إلى قوله ﷺ فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا لم آت دارا قط أحسن منها . وهكذا حتى نهاية العرض لهذا الخبر الحافل بالتشويق .

وتلك خصوصية يكاد أن يتسم بها الكلام النبوي جملة و تفصيلا سواء كان كلامه ﷺ من قبيل القصة أو غيرها من فنون النثر ، والفيصل في ذلك حديثه ﷺ في موضوعات الترغيب و الترهيب وذكر الجنة أو ذكر النار ، أو





تصوير مشاهد القيامة ، تلك الدرر النبوية التي يغلب على أسلوبها طابع القصة .

أما المعاني التي زخر بها هذا النص القصصي الفريد ، فإنها معاني فريدة من هدي النبوة ، فلا غموض ولا ألغاز ولا تعقيد . وإنما هي معاني تجلي الحقيقة تارة بأسلوب حقيقي وأخرى بأسلوب تخيلي حسن من ذلك قوله ﷺ: " لكن أنا رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى أرض فضاء أو أرض مستوية ، فمرا بي على رجل و رجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد فيدخله في شدقيه فيشقه حتى يبلغ قفاه ، ثم يخرجه فيدخله في شقه الأخر ، ويلتئم هذا الشق فهو يفعل ذلك به.

هذا العرض الإخباري ، قد تجلى معناه بأسلوب الحقيقة حيث لم يعتمد فيه ﷺ على الأسلوب المجازي من استعارة أو كناية وإنما تلاحقت معانيه وفق مبانيه حيث أسلوب الحقيقة التي أستطاع الأسلوب النبوي الفريد أن يصور هذه المعاني و يجليها للناظر وكأنما هو ازاءها حقيقة ماثلة للعيان ، من غير استعانة بأسلوب المجاز الذي يتخذه صناع الكلام لإبراز معانيهم الأدبية .

ومن الأسلوب التخيلي الحسن الذي تم بواسطته عدد من المعاني السامية الشريفة فيما ترمي إليه هذه القصة قوله ﷺ " فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه " .



فالمتأمل يرى في كلمتي "يأخذ و يرفض استعارة لطيفة حيث شبه حال من يقرع أذنه القرآن الكريم بزواجره ومواعظه و أحكامه بحال أخذ الشيء لما يرى فيه من المنفعة ، ولكن هذا الأخذ لا يلبث أن يترك ما أخذ فيرد ما ينفعه.

وكذلك الشأن في لفظة " يرفض" فقد شبه حال من يتجاوز أحكام القرآن الكريم ولا ينتفع بما فيه من الهدي بحال من يرفض الشيء النافع لقلة معرفته به ، أو لعدم تأثيره في شأن معاشه ومعاده .

ومعلوم أن النبي الكريم في كلامه كله لا يعمد إلى مثل هذه الأساليب المجازية تصيدا و تكلفا ، وإنما تجرى على لسانه عفو الخاطر ، ولذلك جاء كلامه ﷺ آيه في الإبداع وغاية في الفصاحة والبلاغة حتى لقد نطق بكلام قصير وطويل على حسب الظروف والأحوال وجاء ما نطق به نسيج وحده لم يسبقه إليه أحد ، ولم يستطع أن يجاريه فيه أحد ، وحسبنا في ذلك ما جمعه الشريف الرضي في " المجازات النبوية " وما أومأ إليه الجاحظ في البيان والتبيين " .

وإذا كان للأسلوب القصصي عدد من السمات والخصائص الفنية التي قد نشط لدراستها عدد من نقاد الأدب كحديثهم عن أغراض القصة وأهدافها وما ترمي إليه ، وكحديثهم عن الحبكة ومفهومها وأنواعها وتأثيرها في تلاحم أجزاء القصة وموضوعاتها .





إذا كانت هذه الخصائص مما يمنح النص القصصي القوة والوضوح والإمتاع و التأثير من توافر هذه الخصائص فإن كلام رسول الله ﷺ قد أثنى عليها قبل درس هؤلاء النقاد وقبل بسط آرائهم ، يقول الدكتور " محمد يوسف نجم :

" إن أهم سؤال يطرحه القارئ على نفسه بعد قراءة القصة . هو : هل تركت في النفس أثرا لا ينسى ؟ وهل هذا الأثر الذي تركته ، إن كانت قد فعلت ذلك ، ناتج عن سلسلة من الحوادث أو عن شخصية من الشخصيات ، أو عن فكرة من الفكر ؟

هذا الأثر هو العنصر السائد في القصة ، وهو الطاقة المحركة فيها والتي تستطيع أن تجعل القصة تحيا أبد الدهر و تؤثر كلما قراها قارئ أو شاهد أدوارها ممثلة حتى ليمكنه أن يرصد مظاهر هذه الحياة فيميز بين الشجرة المترعرعة الناضرة ، والشجرة الذابلة الجافة.

والقاص مبتدئ مبدع ، تزدحم الحوادث و الشخصيات والأفكار في رأسه ، ولا يسعه إلا أن ينفخ فيها الروح لتتحدث بنعمة الحياة .

وسيادة عنصر ما في القصة ، تظهر للقارئ في شكل من الأشكال التالية :

- الشخصية .

- سيادة البيئة أو الجو .

- سيادة الفكرة .



ولابد أن يخرج القارئ نص القصة الناجحة ، وقد غلب على نفسه عنصر من هذه العناصر ، أما إذا خرج منها بمزيج مختلط من الحوادث و الشخصيات و الأفكار ، فمعنى ذلك أن الكاتب أخفق إلا في إبراز أحد هذه العناصر وفي تغليبه على غيره ، ولكنه أي القارئ إذا أحس بأنه خرج من القصة وهو يتذكر شيئا ملك عليه نفسه من جميع أقطارها واستأثر بإحساسه و تفكيره وأسر لبه وشغل جو القصة العام ، وانتظم حوادثها وشخصياتها ومشاهدها فمعنى ذلك أن القاص استطاع أن يرسم لنا الصورة المجسدة لأفكار قصته ومعانيها ومغزاها وأنه استطاع أن يبرزها بما له من قدرة على التعبير المصور المحكم واختار خطوطها وألوانها من زحمة الحوادث والشخصيات[1] .

إذا كانت هذه هي الرؤية الأدبية التي يراها النقاد محققة أهداف القصة وغاياتها من خلال عناصرها المتمثلة في :

- التأثير .
- و الشخصيات .
- وسيادة البيئة و الجو العام .
- وسيادة الفكرة

إذا كان الأمر كذلك فأين تقع هذه القصة النبوية الشريفة ؟ وهل يمكن أن نطلق عليها الحكم بالجودة من خلال توافر هذه العناصر ؟

---

(١) فن القصة ص ١٤ ، ١٥ د / محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت .



الحق أن الأدب النبوي الشريف بما فيه القصة الإسلامية أدب حي خالد مؤثر أبد الدهر قد ضمن لنفسه الخلود ليس من خلال هذه العناصر أو بعضها فحسب ، وإنما من خلال توافر المعارف الربانية التي زود الله بها محمدا صلى الله عليه و سلم .

لأن قصصه الشريف ليس من قبيل الأفكار العائمة و العبارات الهائمة التي يسلط بها الأدباء أفكارهم ونزعات أنفسهم في قوالب من صناعة الكلام ، وإنما الغاية من القصص النبوي فوق ما له من الإبداع و الإمتاع حمل النفس على إتباع الحق والتزام الخلق القويم .

ومن أجل الغايات التي يسمو إليها القصص النبوي سلوك أنجع الطرق في التربية و التعليم امتثالا و تطبيقا لأسلوب القصص القرآني الذي الغاية منه العظة والاعتبار و التوجيه و التعليم .

ومن أسمى الغايات التي يهدف إليها القصص النبوي تربية الخوف والخشية في باطن النفس البشرية المسلمة من خلال أسلوب الترغيب والترهيب تلك الخصوصية التي تميزت بها هذه القصة النبوية الشريفة .

وهذه الخصوصية "نابعة أساسا مما ركب في النفس الإنسانية من طبيعة الخوف و الرجاء المتقابلتين في هذه النفس من ناحية ، والمتجاورتين فيها من ناحية أخرى ، والخوف و الرجاء قوتان مختلطتان في أعماق الكائن البشري ، بحيث يوجهان اتجاهه في الحياة، يحددان أهدافه وسلوكه ، كما



يحددان – أيضا – أفكاره و مشاعره ، إذ إنه سيختار منهج حياته منطلقا في ذلك من خوفه ورجائه[1] .

وهذه القصة النبوية واحدة من القصص النبوي الذي سار في هذا الاتجاه أعني أسلوب الترغيب و الترهيب فهناك قصص عنيت بتصوير عذاب القبر ، وقصص عنيت بتصوير مشاهد القيامة، وقصص تتحدث عن نعيم الجنة وأخرى عن عذاب الله و سخطه ورضاه .

وإذا كان من أبرز خصائص القصة المتعة النافعة تجسيد معنى الترغيب و الترهيب لتحقيق القيم الإنسانية الرفيعة من خلال عامل الخوف والرجاء الكامنين في أعماق النفس البشرية ، ولا يتم ذلك إلا بتنويع العبارات في الأسلوب القصصي المتمثل في العرض والتحضيض و الاستفهام والنهي وأسلوب الحوار والتكرار فإن هذه الخصائص قد تحققت في صياغة هذه القصة النبوية فمن الاستفهام قوله صلى الله عليه و سلم :

" قلت ما هذا ؟ "

" فقلت ما هذا ؟ "

وتتكرر هذه النقلة بواسطة هذا الاستفهام عبر كل فكرة من أفكار النص ومن النفي قوله صلى الله عليه و سلم : " فأدخلاني دارا لم آت قط دارا أحسن منها " .

---

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ص ١٥٥ ، ١٧٢ دار الشروق ببيروت .





ومن الطلب قوله صلى الله عليه و سلم : " فأخبراني عما رأيت " .

ومن أسلوب الحوار قوله صلى الله عليه وسلم :

قلت ما هذا قالوا أنطلق . وهكذا حتى نهاية عرض أفكار هذه القصة الشريفة .

وإذا كان من أبرز عناصر القصة المؤثرة ما يسميه النقاد بالحبكة ذلك العنصر الذي يعني " سلسلة الحوادث التي تجرى فيها القصة مرتبطة – عادة – برباط السببية . ولا تفصل عن الشخصيات إلا ، مصطنعا مؤقتا . وذلك لتسهيل الدراسة .. ويجب أن ينظر الناقد – أولا – إلى المواد الأولية التي تستمد منها الحبكة وإلى قيمة هذه المواد ، لأن لها أثرا قويا في استجلاء المعاني والغايات التي ترسمها الحبكة من خلال الموضوعات المتباينة التي يطرحها القاص و يضع لها الأساليب التي تعالجها بطريقة ناجحة فلا يعنى القاص – مثلا – بما يطفو على سطح الحياة من زبد الحوادث – والشخصيات ، وإنما يهتم بما يتعمق في استثارة العواطف ، ويستبطن ألوان المشكلات .. فإن مما يضمن للنص الأدبي الخلود و التأثير و بخاصة – فن القصة أن يكون على اتصال وثيق بالحقائق التي تجعل الحياة الإنسانية أكثر عمقا وأوسع شمولا[١] " .

---

(١) فن القصة لمحمد يوسف نجم ص ٦٣ ،٦٤ .





وإذا تأملنا في القصة النبوية التي بين أيدينا من حيث توافر عنصر الحبكة على نحو مما أشار إليه النقاد فإن هذه القصة الشريفة قد بلغت الذروة من حيث تكامل حبكتها ، وتكامل المواد التي بنيت منها هذه الحبكة . فالشخصيات التي أدت أدوار الحوادث في هذه القصة شخصيات من عالم أخر أية في صدق الحركة و الكلمة و الفعل و الامتثال وسلامة أداء الدور القصصي لكل حدث مع كل شخصية يكمن في صدق ما ترمى إلية القصة من معان وقيم ذلك لأنها من نسيج نبي لا ينطق عن الهوى .

وثمة خصوصية أخرى قد عنى بها النقد الأدبي الحديث حول الحبكة إذ جعلها " نوعين متميزين : هما القصة ذات الحبكة المفككة ، والقصة ذات الحبكة العضوية المتماسكة .

و يعنينا من هذين النوعين النوع الأخير الحبكة المتماسكة لصدقها على القصص النبوي بعامة و على هذه القصة الشريفة بخاصة لأنها – أعني الحبكة المتماسكة – تقوم على حوادث مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض ، وتسير في خط مستقيم حتى تبلغ مستقرها .. متحركة حركه طبيعية خالية من الصنعة و الافتعال ، مركبة بطريقة مقبولة مقنعة لا يشعر القارئ فيها بآلية العمل القصصي[١] " .

---

(١) المصدر السابق لمحمد نجم ص ٧٣ وما بعدها .



ونسوق هذه الآراء النقدية حول حبكة القصة الأدبية ، ولا نعنى بإيرادها التعرف على مدى تميز القصة النبوية بها ، لأن الكلام النبوي الشريف في مبناه ومعناه خال من عيوب النقد وتوجيهاته على حسب أراء النقاد التي لا يحتاج الكلام النبوي إليها صحة و تقويما .

والمعروف قديما و حديثا أن الأدب النبوي قد أثر في جميع الأجناس الأدبية حتى كانت اللفظة الواحدة و الجملة والتركيب من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اقتبس شيء من ذلك يعد واسطة العقد في كلام الأدباء .

وهذا يعني أننا أردنا بإيراد هذه الآراء النقدية حول القصة و الحبكة بيان توافر خصائص الأسلوب القصصي في القصة النبوية على الرغم من عدم خضوعها لتهويمات القصاصين وآرائهم وأخيلتهم . فهي معدن من لون خاص يكفي أنه كلام رسول الله ﷺ .

ولا يمنع أن نقف على شيء من خصائص الحبكة في هذه القصة النبوية الشريفة التي لم يزل الحديث متواصلا عنها وعن خصائصها .

ولا تعني الحبكة في القصة اعتماد القاص فيها على القدرة التعبيرية المتمثلة في إحكام الربط بين الشخصيات و الحوادث التي يسوقها فحسب بل هناك القدرة على استخدام الأسلوب القصصي الفريد من خلال الألفاظ المفردة و الجمل و التراكيب و المعاني و خصائص كل نوع من هذه الجزئيات



ولا يتحقق مثل هذا العمل الأدبي إلا في القصة النبوية ، لأنها تحفل بعروض حية لكثير من المشاهد بحيث تبدو وكأنها تمثل أمام القارئ و الناظر واقعا ملموسا تتملاه العين مع الحس و الخيال .

ومثل ذلك ما جرى في عرض قصته هذه حيث تحدثت عن المسئولية والجزاء ورسمت بالكلمات صورا عديدة للمشاهد التي رآها صلى الله عليه وسلم، وأخذ يستعرض المناظر الغريبة التي وقف عليها محاولا نقلها إلى أصحابه – رضوان الله عليهم بالصورة التي رآها عليها[1] ".

ويكفي في سلامة نقل الصورة و التعبير عنها ذلك الأسلوب الحواري المكرر ، وذلك الأسلوب الفجائي من خلال قوله صلى الله عليه وسلم قالا .. أنطلق . فانطلقت فإذا بكذا و كذا ...

ثم ذلك الأسلوب المتنقل مرة بواسطة الجملة الاسمية ..ومرة بواسطة الجملة الفعلية ، وكل ذلك بأسلوب متقن خال من الصنعة و التكلف . قد أديت بواسطته المعاني وفق الطريق الذي يعبر عنه النقاد بجوهر الأدب ، أو مادته اللغوية التي تتمثل في :

- الفكرة .
- العاطفة .
- الخيال .

(١) القصص في الحديث النبوي ص ١٣٥ وما بعدها .



- الأسلوب .

ولو أردنا أن نصل هذه الجزئيات بمادة هذه القصة النبوية الفريدة لتطلبت كل جزئية حديثا مجملا و مفصلا يمكن أن يشكل بحثا أدبيا فنيا مستقلا قائما بذاته .

فمن الأجود أن تصل جزئية الخيال بمادة هذه القصة النبوية لأن الخيال عنصر هام من عناصر تكوين اللون القصصي . وله أثره البعيد في جودة النص و مدى تأثيره و إمتاعه .

ومعلوم أن الأدباء يتباينون في " في حظهم من قوة الخيال و نصيبهم في طريقة النفاذ إلى ما وراء الواقع القريب الذي يجسد الواقع البعيد السابح في آفاق الخيال الغائص في أعماقه . و يتباينون في استكناه المشابهات و المفارقات بين الأشياء و التعلق بالمجهول الذي يعيش وراء الحس ، والقدرة على تلوين هذا المجهول و الاستمداد منه ، واقتباس الظلال من أطرافه .

ولذلك نجد من الأدباء من هو قوي النفاذ رحب المدى بعيد مهوى التخيل ، ومنهم ضيق الأفق محدود الساحة ... ومنهم من يستطيع أن يلف المنطقة الواسعة بالنظرة الواسعة ويجاوزها إلى ما هو أرحب منها ، ومنهم من يقصر جهده على الحيز الضيق في نظرة عميقة . ليس لها جوانب تصلها بنظرات أخرى يتفرع عنها غطاء جديد لمعنى جديد و نمط جديد ، وهم في



ذلك كله متأثرون بما يرون في بيئاتهم التي تفتحت في نورها أعينهم وما من شك أن البيئة لها أكبر التأثير في تنمية الخيال وإغنائه[1]"

وإذا أردنا أن ندرس هذا العنصر الأدبي – أعنى عنصر الخيال – وأردنا تطبيق ما أورده النقاد حوله متخذين نص هذه القصة النبوية مقياسا لصحة آرائهم ، فإن هذا الصنيع قيد يؤدي بصاحبه إلى مزالق يضل في متاهاتها عن الصواب ، لأننا إزاء كلام يسمو على كلام البشر ولا يخضع لتهويمات الأدباء وأخيلتهم .

وعلى الرغم من ذلك فإن قصة المسئولية والجزاء ذلك النص الذي بين أيدينا قد سبح في آفاق رحبة من الخيال الواسع الخصب المجنح . فقد انتقل بأحداث هذه القصة و شخصياتها من حقيقة الأرض إلى حقيقة السماء وصور جميع مشاهدها بريشة الأديب المبدع حتى لكأن الناظر و القارئ يعايش هذه المشاهد ويحسها متحركة حية تخالج روحه و تمس شغاف قلبه وتذهب بنفسه كل مذهب .

ولكنه خيال عبقري مصون من فلتات النفس وتكلف الطبع و المجازات اللغوية القابعة في أساليب المبالغة و الإيغال و الغلو .

ولذلك جاء كل مشهد وكل حدث وكل فكرة في إطار هذه القصة مفصلا على حسب ما يستوعبه ذهن السامع والقارئ من غير إيجاز مخل أو

---

(١) مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ص ٢٠٧ د / شكري فيصل ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨م .



إسهاب ممل أو إفراط في نقل الصورة الأدبية بواسطة الألفاظ التي تسم المتكلم بها بشيء من الغموض أو التعقيد أو التكلف لأن الغاية الأولى من الأدب النبوي في جميع أجناسه الإفهام و الترغيب و الترهيب وبسط محاسن الإسلام و الرقي بالأديب و الأدب إلى معاني الكمال وتنشدان الفضيلة في كل شيء .

وإذا كان ما وقفنا عليه من خصائص إنما تحققت من خلال نص نبوي واحد من القصص الرائع الذي زخر به الأدب النبوي فإن في المضي إلى الاستشهاد بنصوص أخرى ما يغري بالكثرة و الوقوف على بدائع أخرى من قصصه صلى الله عليه وسلم .

ومن جملة هذه البدائع قصة : " الأبرص و الأعمى و الأقرع من بني إسرائيل " فقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص و أقرع وأعمى أراد لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتي الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك قال : لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس . قال : فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا فقال : أي المال أحب إليك قال : الإبل – أو قال : البقر هو شك في ذلك أن البرص و الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الأخر البقر فأعطى ناقة عشراء فقال : يبارك لك فيها .





وأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك قال : شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس قال : فمسحه فذهب و أعطي شعرا حسنا قال : فأي المال أحب إليك قال البقر قال : فأعطاه بقرة حاملا . قال : يبارك لك فيها .

وأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك : قال : يرد الله لي بصري فأبصر به الناس . قال فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأي المال أحب إليك . قال : الغنم فأعطاه شاة والدا .

فأنتج هذان وولد هذا. فكان لهذا واد من إبل ، وهذا واد من بقر ، وهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص في صورته و هيئته فقال :

رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن و الجلد الحسن و المال بعيرا أتبلغ به في سفري فقال له :

إن الحقوق كثيرة – فقال له : كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله فقال : لقد ورثت هذا كابرا عن كابر . فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته و هيئته . فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته و هيئته . فقال :





رجل مسكين وابن سبيل تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله بصري ، فقيرا فقد أغناني . فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عندك وسخط على صاحبيك[1] " .

إن هذا النص القصصي من أروع الأساليب الأدبية الوصفية النبيلة الهادفة حيث جمع في إطارها – أعني النص كل مقومات الأدب الغائي إذ يلحظ الناظر في جزئيات هذا النص بروز المنهج التربوي الذي ترمى إليه القصة الأدبية إذا هي اعتمدت على الحوار و الوصف و تصوير المشاهد ، وخصب الخيال ونبل العاطفة متصلة بجوانب الحياة الفاضلة ، وما ينبغي أن تكون عليه .

وهذه الخصائص سنتبينها في ثنايا هذه القصة النبوية الكريمة ، إن الهيكل العام لبناء القصص النبوي الذي يتألف من :

١ – بداية مسبوقة بمقدمات على نمط معين يتجانس مع موضوعات كل قصة على حسب الظروف و الأحوال التي تساق من خلالها القصة .

---

(١) صحيح البخاري جـ٤ ص ٣٢٨ وما بعدها ، نشر دار المعارف ، الرياض / وصحيح مسلم جـ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٧ / نشر محمد فؤاد عبد الباقي ط الأولى ١٣٧٥هـ .



٢ – ويلي البداية المسبوقة بمقدمة تمهيد يختلف وموضوعات القصة أيضا . فهناك : تمهيد تقريري ، وتمهيد يحدد الموقف ، وتمهيد يلم شتات الأحداث حتى يصورها في مشهد حدث واحد .

٣ – ثم أفكار وموضوعات منسقة تسبق كل فكرة وكل موضوع بحديث يقصر أو يطول على حسب ما يهدف إليه الموضوع ، وما تهدف إليه الفكرة .

٤ – إطار منسق منتظم من ألفاظ متباينة تارة و متجانسة أخرى على حسب ما يتضمنه المعنى ويرمي إليه .

فلمعنى التقرير ألفاظ غاية في البساطة و الوضوح ولمعنى التأكيد وصيغ الإنكار ألفاظ في الذروة من الجزالة والفخامة و القوة ، ولمعنى الترغيب والترهيب ألفاظ متباينة نجدها مع الترغيب تجري في سلاسة و يسر ، ومع الترهيب تجري في إطار متقن قوي محكم تشى ألفاظه بمبدأ القوة و العظمة والجزالة و الفخامة تجانسا مع معنى الترهيب إذ يصدر عن قوة في الأخذ والجزاء .

وإذا تأملنا في ألوان الهيكل من خلال هذه الجزئيات فسوف نجد تحت البدايات أنواعا فبداية – مثلا – مسبوقة بمقدمات أخر . وسنجد ألوانا من هذه البدايات ، فبداية – مثلا- مسبوقة بمقدمات تمهديه ، وبداية مسبوقة بالكلام على الحدث مباشرة.





فالمقدمات المسبوقة بالتمهيد تتخذ ألوانا كثيرة .

- كالتمهيد بالتقرير .

- والتمهيد بتحديد الموقف .

- و التمهيد الحواري .

- والتمهيد بالسؤال من الرسول الكريم يلقيه على الصحابة رضي الله عنهم .

- والتمهيد بسؤال من الصحابة أنفسهم .

- وتمهيد باستثارة التساؤل .

- وتمهيد بالسؤال ثم التقرير .

- وتمهيد بإثارة قضية[1]" .

وكل هذه التمهيدات من أبرز خصائصها عنصر التشويق الذي كثيرا ما يعمد إليه صلى الله عليه وسلم لجلب انتباه السامع وشده .

فمن الصف الأول الذي هو : التمهيد بالتقرير ما نجده في هذه القصة في الحديث عن الثلاثة من بني إسرائيل .

فأولا نجد السياق إزاء مقدمة وجيزة تمهد للقصة بدءا من قوله صلى الله عليه و سلم : " إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص و أقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال :

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٧٧ وما بعدها .





فقد تقرر أن هؤلاء المبتلين إنما هم من بني إسرائيل ، وتقرر أن عددهم ثلاثة ، وتقرر أن كل واحد منهم مصاب بنوع معين من أنواع البلوى .

وبعد لفظة " فقال له " يبدأ عرض أحداث القصة متخذاً أنماطاً متباينة الطعوم : فأسلوب تقريري ، وأسلوب حواري ، وأسلوب وصفي ثم نتائج ينتهي بها كل حدث على حدة .

والغرض من هذا التباين و التنويع في الأسلوب الاهتمام بتحقق عنصر التشويق مما يحفز المستمع على الترقب و المتابعة . ويتمثل هذا التشويق في عرض الجزئيات التالية المتمثلة في العبارات النبوية من قوله صلى الله عليه وسلم :

١- "إن ثلاثة في بني إسرائيل فهذه الكلمات تثير الاهتمام ، لأنها بداية قصة تجرى أحداثها في بني إسرائيل ، وهم قوم كثيرا ما تنقل عنهم الأحداث العجيبة التي تحمل على الاهتمام و التطلع لما سيذكر عنهم .

٢- وصف شخصيات القصة بإيراد ذكرها في المقدمة بوصف كل شخصية على حدة فهناك : أبرص وأقرع و أعمى .

٣- تقرير أن الله أراد أن يبتليهم وهنا يترتب على كل حدث نتيجة تظل النفس تذهب فيها كل مذهب حتى يأتي القول الفصل الذي ينهي كل حدث ببلواه و نتيجته .





أما بقية أنواع المقدمات فإنها تصدق على ألوان كثيرة أخرى من قصصه صلى الله عليه وسلم :

فمن التمهيد بتحديد الموقف "قصة المذنب و العابد ، وقصة " الملك والساحر " و قصة " الرضيع و الأم " وقصة " الكفل من بني إسرائيل " وقصة "صوت في سحابة " وقصة " المعراج " .... الخ .

ومن المقدمات بالتمهيد الحواري :

قصة الأسئلة الثلاثة التي مفادها ما رواه أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل نخلا لبني النجار فسمع صوتا ففزع ، فقال : من أصحاب هذه القبور ؟ قالوا : يا نبي الله ناس ماتوا في الجاهلية قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، وعذاب النار ، و فتنة الدجال . قالوا . وما ذاك يا رسول الله ؟

قال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك .. الخ.

ومثل ذلك : قصة الصراط .

ومن التمهيد بالسؤال ما مر معنا في قصة المسؤولية والجزاء مما رواه سمرة ابن جندب[1] .

ومن التمهيد باستثارة التساؤل قصة أعل الغار والصخرة . وهكذا تجرى هذه المقدمات في أنواع كثيرة من القصص النبوي ليس هذا مكان سردها

(١) انظر صفحة ٩٧ وما بعدها من هذه الدراسة .





كلها و الحديث عنها .

أما بناء المعاني و صياغة الفكرة و تجسيد الصورة فإن أول ما يلحظه الناظر في قصص الرسول الكريم أن معانيها تتضمن معاني شريفة سامية من أهمها وكلها غاية في الأهمية – ما يلي :

١- الدعوة إلى الإيمان بالله جل و علا .

٢- بسط محاسن الشريعة الإسلامية وشرح أحكامها .

٣- الترغيب والترهيب.

٤- التربية و التعليم و التوجيه السليم.

٥- تربية الخلق الإسلامي في النفس المسلم ، وهذه المعاني الشريفة من أروع المعاني التي تخللت هذه القصة : قصة الثلاثة من بني إسرائيل .

فمن معاني ترسيخ الإيمان بالله في نفس البشرية المسلمة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصة :

" إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع و أعمى بدا لله أن يبتليهم، فهنا ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداث هذه القصة ومجرياتها ونتائجها وما ترتب عليها من فعل و جزاء ربط ذلك كله بالله سبحانه و تعالى ، وفي هذا الربط تعليم يربي الإيمان في النفس إنه إيمان بالله خالق كل شيء ومدبر كل شيء .



ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأبرص : ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله .. وقوله في شأن الأبرص و الأقرع معا : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت عليه ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأعمى:

قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيرا فأغناني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله .. إلى قوله صلى الله عليه وسلم :

فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك .

وهكذا تنتقل هذه العبارات عبر ثنايا هذه القصة وكلها معان تدعو إلى الإيمان بالله من خلال تفويض الأشياء كلها إليه سبحانه و تعالى وأنه وحده هو النافع و الضار .

وعن معنى بسط محاسن الشريعة الإسلامية نجد القصص النبوي سواء في هذه القصة أو في غيرها من القصص التي ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد خصوصية الالتزام بارزة في معالم كل قصة بما يحقق الغرض الديني " فتبث التوجيهات الدينية في سياق القصة الواحدة على أكثر من صورة حتى تؤدى أكثر من غرض في وقت واحد ، وذلك لأنها أغراض ذات معان متداخلة ومن أكثرها ما يكون في معنى الدعوة و التربية و التسرية[1] " .

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٤٠٦ .



وبسط محاسن الشريعة الإسلامية ذلك المعنى النبيل الغائي الذي يحدده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصة :

ثم إنه أتى الأبرص في صورته و هيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري .. إلى قوله صلى الله عليه وسلم أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن و الجلد الحسن و المال بعيرا أتبلغ به في سفري .

فهذا القول النبوي الشريف بسط لمحاسن الشريعة الإسلامية لأنه حث وتوجيه إلى الإنفاق وإخراج الزكاة و الصدقة في وجوه الخير مما فاض من المال. والصدقة و الزكاة من أهم أركان الإسلام الخمسة في حياة المسلم الدنيا و الآخرة فهما من أكبر محاسن الشريعة الإسلامية في تحقيق التكافل الاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات لتسعد البشرية كلها في ظل نظام عادل يحفظ الحقوق من خلال هذين المصدرين الزكاة و الصدقة.

وكذلك الشأن في حال الأقرع والأعمى ففي طلب كل منهما ومسألته معنى بسط محاسن الشريعة لتحقيق الصدقة و الإنفاق.

وعن معنى الترهيب والترغيب تتوالى عبارات التوبيخ والتقريع بجانب عبارات الشكر على الإحسان . فمن الأول قوله صلى الله عليه و سلم في شأن الأبرص و الأقرع .

" إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت " ومن الثاني قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأعمى :





فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله .

وعن معنى التربية و التعليم نجد طريقة العرض تبدأ بهذا التقرير الإخباري من قوله صلى الله عليه و سلم : إن ثلاثة في بني إسرائيل إلى آخر هذا العنصر الرئيس الذي اعتمدت عليه القصة في عرض أحداثها فإنه عرض ذو تعليم و توجيه إلى ما يجب أن يكون عليه المسلم امتثالا لأوامر الله وشكراً على ما أولى .

وعن معنى تربية المسلم على الخلق القويم من خلال موضوعات هذه القصة نلمح صدق المشاعر والأحاسيس بما يجب أن يكون عليه المسئول والمحاسب فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال مسؤوليته الكبرى أن يوجه الصحابة الكرام ويوجه الأمة الإسلامية كلها من خلال ما ساقه من موضوعات هذه القصة فهي دليل على عظم المسؤولية تجاه المال و النفس والخلق . ومن هنا يربي الرسول الكريم في نفس كل مسلم معنى الخلق الإسلامي الرفيع بوصف الفرد المسلم مسئولا ومحاسبا معا . بحيث يحس الفرد بقيمة فرديته ، ويحس المجتمع بقيمة وسطه الاجتماعي . فكلاهما وحدة لا تتجزأ في سبيل إثراء الحياة الإسلامية بالخير و الاستقامة على الطريقة المثلى التي يسعد الناس بها في دنياهم وآخرتهم .

فهي مقياس خلقي رفيع لا يستقيم عليه إلا أولوا العزم من المسلمين الذين خلقهم خلق الإسلام .





وإذا كان ثمة خصائص فنية أخرى مما يلح على توافره في القصة الأدبية نقاد الأدب و دارسوه كوقفتهم عند البناء الشعوري : العاطفة والخيال و الفكرة والصورة الأدبية فإن القصص النبوي الكريم عامر بهذه الخصائص الفنية .

فالعاطفة النبوية النابعة من نفس محمد الزكية وروحه الطاهرة وإحساسه العميق عاطفة جياشة صادقة مشبوبة لا يثيرها ألا حب الخير وعامل الشفقة على الأمة الإسلامية بل على الإنسانية جمعاء عاطفة تأخذ بمجامع القلوب المؤمنة الحية وتأسر النفوس المنقادة بحب الخير و العطاء الإنساني من خلال الكلمة الأدبية المعبرة ، وبخاصة كلمات القصة النبوية ، فهي قطعة نثرية بديعة " تحوي رائع التجارب في موضوعات متنوعة تعطي ذخيرة حية تمد الأدب والأدباء وتفتح لهم آفاقاً واسعة بعيدة المدى في أعماق التاريخ والحضارة و الوجود الإنساني والكوني في الماضي و المستقبل ، وتتيح لهم بكل ذلك أن يضيفوا إلى تجاربهم تجارب أخرى مما يعطي الأعمال الأدبية والقصصية بشكل خاص[1] " لونا فنيا بديعا في الإطار و المضمون . ولا غرو في ذلك لأنه كلام الرسول صلى الله عليه و سلم إنما هو إلهام وإبداع لا يخلولق أبد الدهر .

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٣٩٩ .

وإذا تأمل الناظر في عنصر الخيال في الأدب النبوي الخالد فإنه سيجد من الخصائص الفنية لهذا العنصر مثل ما تحمله العاطفة من حيث العمق والبعد و التحليق في آفاق الكلمة الأدبية المعبرة من غير جنوح إلى التهويمات والتخيلات الكاذبة التي يمليها تكلف الصنعة من خلال زخرف القول و البعد في أغوار المدلول المعنوي للفظة باستعمال شواذ اللغة الداعية إلى التقعير والتكلف .

ولذلك قل في كلامه صلى الله عليه و سلم استعمال ألون المجازي ما لم تدع الحاجة إليه .

ومن هنا فقد عريت قصته صلى الله عليه و سلم عن الثلاثة من بني إسرائيل قد عريت من المجازات اللفظية التي كثيرا ما يجنح إليها الأدباء للاستعانة بها في رسم الصورة الأدبية حتى ليكاد الكثير منهم أن يغرق في هذا الأسلوب إلى أن يفضى بعبارته إلى التعمية و الألغاز وتلك عاقبة التفريط .

بل أن الخيال في القصة النبوية كثيرا ما يتحقق على الصفة التي ترضى الذوق الأدبي و تحلق بالنفس الإنسانية من خلال ما يتسع له المعنى النبوي من غير أن يكون للألفاظ تأثير في رسم أبعاد هذا الخيال كما في هذه القصة : قصة الثلاثة من بني إسرائيل . ويكاد هذا الأسلوب البديع أن يكون مما أختص به كلامه صلى الله عليه وسلم .





أما الفكرة : فحسب الناظر أن يتملاها في كل عبارة من كلامه سواء في الحديث المروى بالسند عن حكم من الأحكام ، أو في الخطبة ، أو في الرسالة أو في العهود فإنها تتجلى للناظر في سهولة و يسر حتى يدرك الغرض من الكلام النبوي و يعرف المراد منه في أول لفظه أو جملة أو عبارة من النص الذي يقرأه .

وأما الصورة الأدبية في كلامه صلى الله عليه وسلم فإنها الصورة ذات الأبعاد التي يحدد إطارها و يحكمها إلهام النبوة و تفجر البلاغة و الفصاحة إطنابا وإيجازا وحسبنا قوله صلى الله عليه وسلم : " واختصر لي الكلام اختصارا "

ويكفي في التعرف على ملامح الصورة الأدبية في القصص النبوي أن القصة النبوية ترسم الصورة للمتلقي وفق إطار يشع من " نور الله فتتلاحم الصور لتواجه قوى الشر التي تحاول إبعاد الإنسانية عن فطرتها وإيمانها بما تقدمه تلك القوى من ألوان الأدب النابع من تصورات منحرفة مشوهة[١] " . ونجد في أعمال كثير من الأدباء المعاصرين الذين اصطبغ عطائهم الأدبي بصبغة إسلامية مكنت له التأثير و الذيوع و الانتشار وبخاصة في مجال القصة والشعر مما سنقف عليه من خلال إيراد عدد من النصوص البديعة في هذين اللونين من الأدب الإسلامي ، نجد الصورة الأدبية المرسومة بحد مرسوم .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٠ .





ولقد كثرت القصص الإسلامية المعاصرة كثرة يحتاج معها في طريقة الاختيار و الدراسة إلى مزيد من التأني . ومن هنا سأقتصر على إيراد ثلاثة من القصص الروائية إحداهن للأديب الإسلامي " نجيب الكيلاني " والثانية للأديب المسلم " أحمد بدوي " و الثالثة للكاتبة الإسلامية " عزيزة الأبراشي "

فمن القصص الروائي الرائع ما كتبه الأديب الدكتور / نجيب الكيلاني من مثل قصته " ليالي تركستان " وقصته " عمالقة الشمال " وقصته " طلائع النور " و قصته " نابليون في الأزهر " تلك التي سنخصها بالدراسة لا على أن غيرها مما كتبه في القصة دونها . ولكن لبروز ملامح الفنية الإسلامية في كثير من فصولها وأفكارها و موضوعاتها .

وثمة خصوصية أخرى برزت في سياق هذه القصة الروائية من بدايتها إلى نهايتها . وتلك الخصوصية تتمثل في حشد طائفة من الأشخاص الحقيقية والخيالية المتباينة سلوكا و مظهرا ومعتقدا مما يتيح للناظر الوقوف على قدرة هذا الكاتب الفنية التي مكنته من صياغة كل حدث بما يتلاءم مع هذه الشخصيات على اختلافها في المظهر و المخبر و النظرة إلى الحياة والأحياء .

ولقد اشتملت هذه القصة على أربعة وثلاثين فصلا في أربعة و خمسين ومائتي صفحة .

وإيراد نصوصها كاملة يفوت الطلبة على الدراسة والغاية منها ولذلك سنجتزئ نماذج من عدد من فصولها .



فمن نصوص الفصل الأول يقول الكاتب الكيلاني :

" بولاق في أواخر القرن الثامن عشر " و السفن ترسو بالميناء الشهير حاملة شتى أنواع البضائع من أنحاء الأرض .. وقصور الكبار من رجالات القاهرة تقف شامخة كقلاع صغيرة و أغلب هذه القصور يسكنها المماليك والأتراك ، وعدد قليل من المصريين الأثرياء كالتجار و أصحاب المناصب .. وخلف تلك القصور الشامخة وحدائقها الشائقة تقبع البيوت الصغيرة الكثيرة ، حيث يعيش أبناء الطبقة الدنيا ، ومنهم أصحاب الحرف الصغيرة ، والباعة المتجولون ، وصغار تجار التجزئة ، وفقهاء " الكتاتيب " ، والخدم والخفراء و غيرهم .

والحركة في بولاق دائبة لاتكل ، وأصداء أصوات الباعة تملأ الطرقات ، والنسوة يسرن متشحات بالملابس السوداء ، على وجوههن خمر شفافة، تزيدهن جاذبية و رقة وعدد من الأطفال الحفاة، يتخبطون ويسرعون هنا وهناك ، ومن آن لآخر تظهر عربة مزركشة محلاة بالمعادن الثمينة ، تجرها الجياد المطهمة يسبقها اثنان أو ثلاثة من العبيد المهرولين وبداخلها مملوك كبير المقام ، أو تركي من علية القوم ، ترتسم على وجوههم سيماء الكبرياء التي لا حد لها ، وقد يخترق الشارع فارس من رجال مراد بك أو إبراهيم بك – قادة المماليك و حكام مصر – في رعونة وطيش دون أن يخشى طيشا أو عقابا .





وفي مكان يبعد كثيرا عن ترسانة بولاق الشهيرة ، كان يوجد منزل الحاج " مصطفي البشتيلي " أحد كبار التجار ، لم يكن منزله قصرا منيفا كباقي القصور ، ولم يكن متواضعا كبيوت الطبقة الكادحة وإنما كان في مكانة بين الاثنين .

(ويستمر الكاتب في سرد أوصاف منزل الحاج) " مصطفي الشتيلي " أحد شخصيات وأبطال هذه القصة الروائية الإسلامية حتى يلج إلى الغاية والدور الذي يؤديه هذا البطل قائلا :

" وفي حجرة الاستقبال الرئيسية جلس الحاج مصطفي، وحوله عدد من الأصدقاء فيهم الشيخ " على الجنجيهي " مقرئ القرآن وصاحب الصوت الرخيم و فيهم العالم المتبحر الشيخ " إبراهيم سلامة " و " أحمد المدبولي " صاحب الخبرة في صناعة البارود و السلاح و الحاج " غمري " التاجر الصديق وغيرهم من الشيوخ و الشبان[1] " .

ثم يمضي الكاتب في وصف الجلسة التي جمعت هؤلاء الأشخاص على هيئة معينة من حيث وصف المكان و الزمان و ما عليه كل شخص من السمات و الأوصاف التي تتلائم مع الشخصية والجودة في أداء مشاهد هذا الفصل فمثلا الحاج مصطفي البشتيلي شيخ وقور مطرق دائم التفكير يعتمل في ذهنه و تتردد في خواطره و تلامس شفاف نفسه " انفعالات شتى لا يعرف من

(١) نابليون في الأزهر ص٥ وما بعدها ، د / نجيب الكيلاني .





خلالها كيف يتلقى الأمر و لا كيف يزنه الوزن السليم ، وكل شيء في هذا العالم من حوله مضطرب متناقض " يشعر وكأن روحه سجينة مقهورة لا تستطيع التحليق و الانطلاق لسحق الرؤوس العفنة ، و تحطيم كل القيم السخيفة : وكلما هم بمقاومة أعداء الدين و الفضيلة و المجتمع المسلم وقفت في طريقة ابنته " زينب " وحرمه التي اعترضت طريقة في إصرار وحزم مطلقة عبارة قاسية شديدة " لن تخرج من هنا إلا على جثتي " .

ثم يعرض الكاتب شخصية المقرئ الشيخ " على الجنجيهي " . إنها شخصية تتصنع البهجة و السرور و تداوي جراحها بالصبر و الأناة فتطلق العبارات التالية :

" لا أسكت الله لك حسا "

" أتنوي إقامة مأتم من أجل إشاعة كاذبة ؟ " كاذبة أفق يا مولانا .

وهكذا يستمر الكاتب في عرض هذه الشخصيات وأوصافها حتى يشكل من هذه الأوصاف و ما يدور في خلدها من عبارات وأراء عقدة هذا الفصل و ما ينبغي أن يتخذ إزاءها من حلول تعيد الحق إلى نصابة .

ومن هنا ندرك عقدة القصة بارزة في سيادة خليط من الناس الغرباء على الأرض و العقيدة و المجتمع إنهم سادة من المماليك والانجليز منهم كافر ومنهم مسلم لكن لا حول ولا طول للمسلمين على الكفرة من الانجليز .





وهنا يدور الحديث التالي ذو الصبغة الإسلامية في كيفية إيجاد الحل لهذه المشكلة . فينسج الكاتب الكيلاني خيوط العقدة و الحل متخذا من أبطال القصة موقفا إزاء كل شخص فيقول عن دور الحاج مصطفي :

احتقن وجه الحاج مصطفي ، وبدرت نظرة الغضب من وجهه المستطيل النحيل ، وبرقت عيناه في حدة وقام مهتاجا :

كلهم ملعونون.. لكن نحن ! ما مصيرنا ؟ وإلى متى نظل ألعوبة في يد الغرباء و الغزاة؟

هل خلقنا الله لنكون مطية يركبها كل قادم من وراء البحار ؟ هل كتب علينا أن تبقى حياتنا سلسلة متصلة الحلقات من الإذلال و الضياع .

قال الكاتب : ثم التفت إلى الشيخ " إبراهيم سلامة " وكان يجله و يحترمه ، وقال :

تكلم يا مولانا ..

هز الشيخ رأسه وتمتم : إن ما تقوله يا بشتيلي هو الصواب لكن لا تنس أن الأتراك و المماليك مسلمون مثلنا ، لكن الفرنسيين شيء أخر .

- هذا لا يهم يا شيخ إبراهيم .. أين نحن من هذا كله ؟ وإلى متى نظل ألعوبة ؟

- هذا قضاء الله يا بشتيلي – نسينا الله فوكلنا إلى أنفسنا ونحن تقاعسنا فلا حول ولا قوة إلا بالله .





ومرت لحظة صمت .. قال الشيخ إبراهيم بعدها :

- ومع ذلك فأنا أشك في المراكب الانجليزية التي رست بشط الإسكندرية ثم رحلت بعد أن أطلقت تلك الشائعة . لعلهم كانوا ينوون التهامنا . و اعتقد أن قوة الحكام العسكرية – على أسوأ الفروض – تستطيع أن تصمد أمام عدوان فرنسا المحتمل ، وقد أكد إبراهيم بك ومراد بك ثقتهم الكاملة بالنصر :

ابتسم البشتيلي في غيظ وقال :

- إنه الغرور .. ألم تسمعوا عن " نابليون " وتدويخه لأوروبا ؟ ألم تسمعوا عن أسلحتهم الحديثة ؟

- قال الحاج " غمري " التاجر :

نحن وراءنا تركيا بأسرها ؟ و السلطان لن يفرط في شبر من مملكته ..

رد البشتيلي :

- السلطان في حالة لا تسر، إنه يعالج سكرات الموت من الضربات التي يكيلها له أعداؤه .. و مع ذلك فأنا أفكر في اتجاه أخر .

الجميع – نحن .. نحن .. كيف نتصرف ؟

لقد ظل أحمد المدبولي صامتا طوال الوقت يستمع الحوار المحتدم ثم نطق أخيرا فقال:



أما أنا ففي الانتظار ، وما علي إلا أن أضاعف من إنتاج السلاح و البارود وسأبيع لمن يشتري ما عدا الفرنساويين .. وأظن أنه يكفينا نقاشا ، و لنستمع إلى الشيخ " الجنجيهي " .

قال الكاتب :

تربع الشيخ الجنجيهي ووضع يمناه على يمين وجهه ، وتنحنح ثم استعاذ وبسمل ، وأخذ يقرأ : " ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ "(١) .

وتنتهي أحداث الفصل الأول من هذه القصة الروائية الإسلامية تنتهي بسياق آية من كتاب الله سبحانه و تعالى .

ويعنى ذلك بروز الفنية الإسلامية عند الكاتب فروحه مشبعة بهدي الكتاب الكريم و السنة الشريفة .

وفي ذلك الختام لهذا الفصل تبدو سيطرة الفكر الإسلامي في أي لون من ألوان الأدب الأمر الذي يعني أن مصادر الأدب الإسلامي في الذروة منها كتاب الله المعدن و المصدر الأول للتعليم و التوجيه و الفكر وإن لم يكن كتابا متخصصا في الأدب ، لأنه كتاب الله مصدر كل خير .

(١) المصدر السابق ص ٨ وما بعدها .



ولنقف على شيء من نصوص هذه القصة في فصلها السادس. حيث احتدمت أفكار الكاتب حول الجهاد الإسلامي المظفر إزاء كل قوة تريد النيل من الأمة المسلمة وعقيدتها وأرومتها وسيرها في حياتها ومناصبتها العدوان حسدا وضغينة .

ومن هنا يسلسل الكاتب الكيلاني أفكر هذه القصة في موضوعات فصلها السادس متخذا من الفكر الإسلامي نسيجا متينا محكما لإخراج هذا النص القصصي وفق المعالم الفنية الإسلامية فيمضي قائلا :

" قال أحمد المدبولي : رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا شيئاً ، إن السلب و النهب لا يفارقهم حتى في أوقات الحرج.

أسرع البشتيلي قائلا :

ماذا في ذلك ؟

لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك .

الوضع يختلف يا مدبولي .

وماذا أطعم أولادي يا بشتيلي في هذه الأيام السوداء؟

الحرب تعني التضحية فنعم ما فعلوا !!

التضحية يا بشتيلي لا تكون سلبا و نهبا و قهرا ، والذي يضحي ويترك أولاده خاوية بطونهم إنسان مجنون .

ابتسم البشتيلي ، وقال :





لا تتكلم عن خواء البطون فأنا أعرف الكنز الذي ترقد فوقه بصراحة يا بشتيلي و هنا قاطعة قائلا :

تكلم خير لنا ان نمشي حفاة عراة جياعاً ونحن أحرار ، من أن نسكن القصور ، ونرفل في الحرير والرفد و نحن عبيد للفرنسيين .

قال المدبولي :

الكارثة هو أني لا أؤمن بجدوى المقاومة بعد كل الذي سمعته يجب أن تفتحوا عيونكم جيدا .

إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء .

وخبرتهم الحربية فوق التصور.

واستعداداتهم لا مثيل لها .

دعوا الأوهام والحماس جانبا ؛ وفكروا بعقل.

أعرف أن كلامي قد يضايقكم ولعله يوصمني بالجبن والخيانة.

ليكن فأنا رجل أحكم عقلي، وقد علمتني التجارة أشياء كثيرة[1] .

وبعد أن ينتقل الكاتب الكيلاني بأحداث هذا الفصل ضمن أسلوب قصصي فني تحكم إطاره عبارات حوارية بين أبطال مشاهده ما بين استفهام وتعجب وعرض و إقناع ومشادة. حتى إذا شكل عقدة الفصل اتجه إلى أسلوب الحل الناجع.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ وما بعدها .



ومن هنا يدرك القارئ والمتلقي قدرة الكاتب على استكناه الغاية من القصة الإسلامية .

وذلك بربطها إلى التصور الإسلامي وشدها إلى محوره. حيث تبرز نقطة الحل من نقطة الانطلاق إلى الجهاد الإسلامي فيدور المشهد الأخير من هذا الفصل في ظلا ل الأسلوب التالي من قوله:

توتر الجو في منزل الحاج " مصطفى " بصورة ملفتة للنظر ، لقد كانت زوجته أطوع له من بناته لم تسفه له رأيا أو تعترض على أمر من الأمور إن زوجها هو سيدها ، وهى تؤمن بنانه يعرف أكثر مما تعرف وخبرته في الحياة اكبر من خبرتها . ثم انه – أولا وأخيرا- رجل ، هل تستطيع أن تنسى وضعها البديهي المعروف كأنثى في منزله التابع المطيع .

لقد خرجت عن هذا الوضع المألوف فجأة، وأقامت الدنيا وأقعدتها وخاصة عندما أعادت النظر في تصرفات زوجها لقد رفض رأيها في الهجرة قبل أن تقترب ساعات الخطر لم تستطيع أن تلح عليه كثيرا ، لأنها تعلم الكثير من صلابة تشبثه وعدم تنازله بسهوله عن رأى ارتضاه .

لكنها فوجئت به يجند ابنه الوحيد ، ويدسه ضمن القوات المجاهدة . بل في الصفوف الأولى تحت أمرة (إبراهيم بك) الذي عسكر بجيشه عند بولاق.



ومعنى ذلك أن فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث ولم يكتف الزوج بذلك بل دس نفسه ضمن القوات البحرية على إحدى السفن الراسية في الميناء.

وأكبر من ذلك انه لم يرحم ابنته (زينب) فقد اختطف خطيبها ودفعه إلى الميدان. بل واشترى شحنة هائلة من البارود والسلاح بمبلغ كبير من ماله ووزعه على القوات المجاهدة، وتخلص من معظم المخزون لديه من البضائع بأبخس الاثمان كي يمول بها المحاربين.

وعندما بدت الدهشة على وجه زوجته صرخ محتدا: أيتها الجاهلة. لقد استطاع عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يجهز جيشا كاملا من ماله في صدر الإسلام. وما عند الله خير وأبقى والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل ..إنك لم تفكري في شيء سوى أولادك والمال والخنوع للحياة الدنيا .. يا للمهزلة ومنذ متى كنت تعترضين مشيئتي"[1].

وهكذا يمضى الكاتب في تصوير المشاهد وعرضها بأسلوب قصصي رائع مستلهم من الفكر الإسلامي.

فيصور موقف الزوج والزوجة حتى ينتهي الأمر بالإصرار على الجهاد. ويصور احتدام المعارك بين المجاهدين وأعدائهم مبينا غاية المسلم من الجهاد

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ وما بعدها.



وأنها في إحدى الحسنيين (النصر أو الشهادة). ومن هنا يصور الكاتب مشاهد المجاهدين ما بين قتيل وجريح مضرج بالدماء، ويصور لوعات الأقارب وأحزانهم و صبرهم و بلائهم. وكل ذلك لم يثن عزيمة أحد من هؤلاء أو هؤلاء ليقينهم أنهم أحياء مهما ماتوا، وليقينهم بعظم الأجر والمثوبة نصروا أو هزموا.

ثم يضفي الكاتب على بقية فصول القصة من سحر بيانه ما يعالج به عددا من قضايا الإسلام والمسلمين في حقبة ضعف فيها المدد وقوي فيها الأعداء، ويلح في كل فكرة يسوقها على أن قوة المجاهد المسلم لا تكون إلا بالإيمان لتكون كلمة الله هي العليا .. وأن كل شيء هالك إلا وجهه.

وبعد فلنتخير بعض الجزئيات التي أدرجها الكاتب في تلك القصة التي سكب قوالبها في أربعة وثلاثين فصلا لنتبين أن كل فصل يعبر عن مشهد تتنوع جزئياته من الأطر القصصية ذات الصبغة الفنية ما بين مشاهد درامية في أسلوب حواري متكرر في عدد من أبطال القصة الذين يسوقون أحداثها من خلال واقع مجتمع مسلم كادت تذهب ريحه وتنفلت عراه، وتقضي عليه زمرة الكفر و الإلحاد لولا أن الله سلم و انتصر للحق فهو الحق وحده لا شريك له، وهو وحده لا قوة ولا حول ولا طول لغيره.

وفيما أوردنا من نصوص الفصل السادس من فصول هذه القصة يلح الكاتب على فكرة إسلامية تربط الناس بخالقهم كلما حزبهم أمر يقول :



على لسان أحد أبطال القصة في هذا الفصل وكان تاجرا سماه : احمد المدبولي مخاطبا بطلا أخر من أبطال القصة (البشتيلي):

(رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا ثمنا ، إن السلب والنهب لا يفارقهم حتى في أحرج الأوقات وأدقها ، أسرع البشتيلي قائلا : وماذا في ذلك ؟؟ يرد التاجر احمد المدبولي لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك ، وهكذا يستمر الحوار بين هذين البطلين حتى يقاطع التاجر بهذه العبارات عن معنى الجهاد والتفكير فيه بعقل وروية حتى لا ينزلق المجاهدون ويرموا بأنفسهم إلى التهلكة فلا بد من استعداد تام وقوة تقودها قوة الإيمان والضمير، يقول التاجر : " الكارثة هي أني لا أؤمن بجدوى مقاومة الأعداء بعد كل الذي سمعته ، يجب أن تفتحوا عيونكم جيدا ، إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء ، وخبرتهم الحربية فوق التصور ، واستعداداتهم لا مثيل لها .. دعوا الأوهام والحماس جانبا وفكروا بعقل .. أعرف أن كلامي قد ضايقكم ، ولعله يصمني بالجبن ولكن ليكن ذلك فأنا رجل احكم عقلي .. وهنا يسود الأبطال صمت رهيب حتى يخرج فيهم احد أبطال القصة واسمه (إبراهيم) فينفجر غضبا لكن البشتيلى يقاطعه في هدوء ليرد على التاجر قائلا : (لك أن تفكر كيف شئت ؟ وتصل إلى ما يقنعك من نتائج لكن الشيء الذي لا جدال فيه هو إن أية أمة يعتدي عليها المعتدون لابد أن تهب للدفاع عن ذاتها وحوزتها وعقيدتها) . وهنا يعود



الهدوء إلى نفس الشيخ إبراهيم فيرد على التاجر قائلا (دائما تنسى يا مدبولى حكم اللّه في مثل هذه الأمور البديهية لأنك تفكر بعقل التاجر وأسباب التجارة ناسيا أو متناسيا إن الجهاد شيء آخر فقد يخسر الإنسان المجاهد ماله وحياته وأولاده لكنه هو الظافر الرابح . مدبولي مقاطعا ولكن كيف ؟ الشيخ إبراهيم :هكذا قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ إلى آخره من آيات الجهاد الكثيرة .

ويستمر الكيلاني في أحداث القصة حتى يختم احد مشاهدها بمشهد يتم فيه تجنيد أحد الرجال ابنه الوحيد الذي لا ولد له ولا لأمه سواه ، ويركز الكاتب على استجاشة عاطفة الأمومة نحو الولد ، واستثارة روح الحماس من الأب وينتهي المشهد بتغليب موقف الأب فينخرط الابن في صفوف المجاهدين ، وتظل الام واجمة النفس مضطربة القلب وخاصة عندما يشرد بها الخيال فتتخيل أن وحيدها قد لا يرجع إليها ، وان زوجها قد تقضى عليه رمية طائشة. ولكن فجأة يعود الابن بعد أن بلى في الجهاد حسنا يعود ليرد إلى أمه شيئا من البر بها انطلاقا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (ففيهما فجاهد) .

وهكذا تستمر أحداث هذه القصة الروائية الإسلامية بعد أن يترك الكاتب في آخر فصل من فصولها ختاما بين مصيرين : احديهما مصير الكفر بين موت وضياع ، وثانيهما مصير الإيمان بين حياتين كريمتين في الدنيا و الآخرة، فالأحياء من المؤمنين أووا ونصروا و نشروا العدل والسلام والأموات أحياء عند



ربهم يرزقون .. ويترك هذا الكاتب الإسلامي على آخر سطر من سطور قصته (نابليون في الأزهر) عبارة مات برتلى ، وعاش البشتيلي على الرغم من بقاء (برتلى) في حيا ة بين الذل والضياع والهوان ، وموت البشتيلي ملتحقا بركب الشهداء والأولياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وفى حسن هذه الخاتمة تتجلى قيم شعورية راسخة في قلب كل مسلم وبخاصة المسلم الأديب لشفافية روحه وصدقه . هذه القيم هي :

الصدق، والإخلاص، والإنسانية.

فالصدق أول عنصر توحي به إنسانية القصة.. صدق الإحساس وصدق التعبير ، حيث لا صنعة ولا تزيد . والصدق في القصة الأدبية وبخاصة القصة الإسلامية لابد له أن يعتمد على نفاذ البصيرة وألمعية الفكر ، فانه لا سبيل إلى الإحساس الصادق ، والتعبير الصادق إلا إذا كان الكاتب مزودا بقوة الفهم للنفس الإنسانية وسبر أغوارها، وبالحذق في تصيد خوالجها الباطنة.

ومعلوم أن الصدق الشعوري ، والصدق الفني من خلال براعة التصوير لأحداث القصة وعرض موضوعاتها لمعالجة واقع اجتماعي ينبغي إصلاحه إنما ذلك الإخلاص في العمل الأدبي . وأي قصه أدبية تحيد عن هذه القيم ، أو هذه الخصائص إنما هي (قصة لا يزيد طنينها على أن يعبر الأسماع ، ولا يمكن أن يكون سلطانها إلا بارد الأثر عاجزا عن أن تستجيب له النفس).





وأما الاتجاه الإنساني في القصة الأدبية ، وبخاصة القصة الإسلامية فليس عنصرا دخيلا عليها ولا مفروضا من خارج الأطر الفنية للصياغة ولكنه من طبيعة العمل الفني ، وإذا اتجه الكاتب القصصي إلى تقويم هذا العنصر وإلى علاجه من خلال عنايته بالعناصر الفنية الأخرى التي تكفل لعمله الأدبي عوامل التأثير والخلود "[1] وهذا هو ما اشتملت عليه قصة الأديب الكيلاني (نابليون في الأزهر) .

ومن بدائع القصص الإسلامية الروائية ما حرره الأديب (احمد بدوى) تحت عنوان :

(أختاه أيتها الأمل) .

في فصول ثمانية سرد الكاتب هذه القصة حدثا حدثا وفكرة فكرة وضمن كل فصل موضوعا يعالج عددا من القضايا الاجتماعية والقيم الإنسانية مستهلا كل فصل بآية قرآنية أو حديث شريف ، أو حكمة صائبة.

فالفصل الأول يبدأ بانطلاقة بطلة (القصة) تلك الفتاة التي خرجت في الثانوية العامة ودلفت لمواصلة دراستها في الجامعة. إن اسمها (نور) وفى هذا الابتداء في أول فصل من فصول القصة ما ينم عن صدق شعوري في اختيار اسم البطلة التي تبدأ برصف أول فكرة وأول حدث .

---

(١) فن القصة لمحمد يوسف نجم ص ١٢٨ – ١٣٤- ١٣٦ بتصرف .



وتتوالى أحداث ومشاهد وأفكار هذا الفصل بين خليط من الفتيان المؤمنين والفتيات المؤمنات . وكل الأفكار والموضوعات هنا لا تتجاوز تصوير اللقاء العادي المألوف بين الأصدقاء الذين تجمعهم الفضيلة ويؤلف بينهم حب الله ثم حب الناس.

ويبدأ الفصل الثاني الذي تحت عنوان (ثورة ثقافية في عام واحد) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونم ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة.

ثم يأخذ الكاتب بعد هذا النص الشريف في سرد أحداث هذا الفصل معالجا عددا من القضايا والقيم والتي في أولها (الحجاب في الإسلام).

ثم يبدأ الفصل الثالث تحت عنوان (جليس وجليس) وهنا يستهله الكاتب بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه).





ثم تتوالى أحداث هذا الفصل في إطار محكم متقن على قدرة جيدة من خلال تسخير ألفاظ اللغة لتجسيد المعاني التي يرمي إليها كل حدث .

ويبدأ الفصل الرابع تحت عنوان (الطاقة والسبيل) ويستهله الكاتب بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).

ويبدأ الفصل الخامس بهذه الكلمة من قول (غلاء ستون) أحد وزراء بريطانيا في عهد سابق.

(مادام هذا القرآن موجودا بين أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان).

وهذا القول شهادة على ما للإسلام من قوة وهيبة في نفوس الأصدقاء والأعداء . فانه- بحق – ما من قوة يمكن أن تقف أمام القرآن متى خالج الإيمان به القلوب.

ثم يتخير الكاتب عددا من الموضوعات ليعالجها في الفصل السادس تحت عنوان (الدعوة والعمل) ويستهله بقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ .

ويشرع في الفصل السابع تحت عنوان (شرط الإيمان وحد الإسلام) ويصدره بقول الله تبارك وتعالى :





" فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما".

ثم يختم القصة بفصلها الثامن تحت عنوان (عندما تصبح السيئات حسنات) ويصدره بقوله الله تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ ﴾

وإذا كانت فصول هذه القصة في جميع ما حوته من موضوعات جديرة بالدراسة والتأمل فإن في إيراد شيء من نصوصها ما يمكن أن يدلل به على سعة العطاء في الفكر الإسلامي، وعلى قدرة الأدب الإسلامي في جميع الأجناس الأدبية على الإمتاع والتأثير والتوجيه السليم . فذلك هو غاية الأدب النبيل الهادف.

فلنجتزئ شيئا من نصوص القصة في فصلها (الثاني) ذلك الفصل الذي تعج مشاهده وأحداثه وموضوعاته بأفكار إسلامية إنسانية حية تتدفق بالمعاني السامية ،والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا التي ينشدها كل أديب مسلم يبتغي بقوله وفعله وجه الله والدار الآخرة.

ومن أجل تحقيق هذه المعاني وهذه القيم والمثل الرفيعة يحشد الكاتب في ثنايا هذا الفصل عددا من الشخصيات في حديث عن (الحجاب في الإسلام) ويقوم عرض المشاهد معتمدا على أسلوب الحوار والشد والإثارة.





فلنتبين ما دار من معاني هذه القصة بين هؤلاء النسوة في حديث عن الجلباب، وأثره في حياة المرأة عفة وصيانة وجمالا، وحفظا وحشمة ووقارا ففي عبارات حوارية يقول الكاتب: (وهكذا انتصبت في مخيلة الأم منارة شامخة يتكسر الموج يائسا عند أقدامها) ولكن نورها ينفذ بهدوء وبلا ضجيج .. ينفذ رويدا – رويدا حتى يستقر في أغوار النفس .. وهنا تتنفس ندى، وتهمهم متابعة كلام مي. بتعطش، تبتسم لابتسامتها، وتنفعل مع إشاراتها.

فكرت مي فقالت: أواه كم كنت حمقاء يا ندى أكنت تتصورين أن الجلباب بهذه الأناقة المجردة دون أن تفكري في أناقته وجماله الأخلاقي؟ بل أو كنت تتصورين أن يحتضن هذا اللباس البديع قلبا بهذا الصفاء، أو عقلا على هذا القدر الرفيع من الذكاء؟ .. وهذا الرأس الصغير الذي يحنو عليه الخمار حنو الأم على وليدها أكان يدور في خلدك ما يحمله هذا الخمار من عظمة وأفكار؟؟"[1] . لم تفكري – يا صديقتي – فاعلمي أن الغاية من الحجاب تكمن في عظمة الإسلام وحفظه جمال المرأة ومحافظته على عرضها، وصيانته أنوثتها، بل جعله الإسلام حقا من حقوقها لستره إياها من الأنظار الملاحقة، و القلوب المريضة. " وهنا قامت ندى من مقعدها وجلست بجانب مي – وهمست في مسمعها آه ليتك كنت أختا لي، فردت مي: بل إننا أختان أو ليس المؤمنون أخوة "[2] نصيحتي أن تحفظي جلبابك ليحفظك من كل ما يسيء.

---

(١) اختاه أيتها الأمل ص٣٦وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص٣٧ .





وتنتقل قصة – أختاه أيتها الأمل – تنتقل بالسامع و القارئ من موضوع إلى آخر ففكرة عن الأخلاق ، وفكرة عن الحقوق ، وفكرة عن نظام الإسلام وأحكامه ، وأخرى عن مفاهيم القانون البشري وويلاته و سقطاته ، وأخرى عن عبودية الإنسان للإنسان واستذلاله إياه . والتنكر لإنسانيته وما له من حقوق . فاسمع إلى قول الكاتب في حديث قصصي عن (الظلم) " هزت فاتن رأسها آسفة و قالت : (يا حسرة على المسلمين .. كان الواجب أن يخرجوا البشرية من ظلمات الكفر إلى نور العلم والإيمان .. أما واقعهم فشيء محزن بل و مبك – والله يا أخواتي – فها هي أولى القبلتين يساوم عليها – ويصبح مغتصبوها الذين هم أعداء الله ورسوله متعاونين ضد الإسلام وأهله – والأدهى من ذلك أن هؤلاء الخونة المتنكرين الضالين المضلين ممن يتجافون إلى هذا المجتمع اليهودي يرون أنفسهم على حق ، ويرون أنهم يستحقون المكافأة على صنيعهم هذا .

اهتز وجدان (أمل) ، فغطت وجهها بكفيها وهي تغالب عبرات حارقة قائلة : الخيانة هيا الخيانة – مهما اختلفت مظاهرها ، والكيد هو الكيد مهما اختلفت أساليبه وما يلقاه المسلمون على ساحة لا يسلمون منه على الساحة الأخرى . فها هم أخوتنا من مسلمي يوغسلافيا يعذبون عذاب الهوان بالفظاعة . تصورن أن الملحدين السفلة يرمون بهؤلاء من إخواننا وأخواتنا في آلات تعليب لحوم البقر فالمتوحشون يدخلون المسلمون المؤمنين في المسالخ





أحياء ، ويخرجونهم منها عجينة من لحم و عظم ، وقد اختلط منهم كل شيء ، وربما أطعموا تلك الأجساد الزكية كلابهم وحيواناتهم ، ما السبب في هذه الفظاعة و الشراسة — يا أخواتي السبب إيمان هؤلاء المسلمين بالله — :

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

جمدت شفاه الفتيات واصتكت أفواههن ، وبرزت عيونهن من محاجرها .، وكأن يد باردة تضغط أعناقهن بوحشة ، وبدت الكلمات عاجزة عن التعبير .. وبقيت قبضات بضة مشدودة بإصرار ودقات قلوب غاضبة تكاد تحطم الأضلاع لتقفز صارخة .. وا إسلاماه[1]

وينتقل كاتب قصة (أختاه أيتها الأمل ، ليملي على القارئ درسا إيمانيا تربويا يبصر المسلمين بواقعهم وما يجب أن يكونوا عليه. من تعاهد هذا الدين وتعهده من التطبيق و النشر والدعوة والالتزام. فيقول على لسان (هند) إحدى شخصيات هذه القصة .. (أيتها الأخوات يجب أن تذكرنا دوما أنه ما أصيب الإسلام بنكسة إلا وقد سبقها خلل في تبني المجتمع المسلم لرسالته الربانية وعدم وضوح لطبيعة عقيدته، وما يترتب عليها من تكاليف على أفراده وجماعته بل وسيطرة مفاهيم وتصورات خاطئة أعطاها الانحراف قدسية المفاهيم الربانية الصحيحة .. تهلل وجه مي رضا بآراء هند وتحليلها فوافقتها قائله بحزم وعزم صدقت -   يا أختاه — صدقت. ولطالما تدبرت — قول رسول

(١) المرجع السابع ص ٤٤ وما بعدها .



الله صلى الله عليه وسلم إذا تبايعتم بالعينة، واتبعتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه عنكم إلا العودة لدينكم)

أو كما قال صلى الله عليه وسلم ردت هند على صديقتها مي. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وجازاك الله خيرا يا أختاه . وقد أضاء حديثك معنى هذا الحديث الشريف في ذهني فاللهاث وراء الحياة الدنيا، وإهمال الجهاد لنشر دين الله وتحكيمه في حياتنا وحياة الإنسانية جمعاء كل هذا سيغرقنا في حياة الذل والضعة كما هو حال المسلمين اليوم – إلا من شاء الله منهم – وها هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه – تبين لنا أن الطريق الوحيد للعزة والخلاص أن يعود المسلمون فيتدارسوا دينهم ويفهموه ويسعوا جاهدين حتى يصبح هو وحده مصدر سلوكهم وأفكارهم وكل شأن من شؤونهم ، ولو كلفهم هذا كل غالي ونفيس من متاع هذه الدنيا الفانية.

هكذا – فقط – نغسل عن أنفسنا ذل الدنيا ونتقي عذاب الله وسخطه في الآخرة هذا هو السبيل وهذه هي التجارة التي جعل الله ثمنها جنته. ومغفرته في الآخرة ، ونصره القريب في الدنيا ، اكتست مي بمزيد من خشيه الله، وتهدج صوتها بالبكاء من قدسية القرآن وهى ترتل قول الله تبارك وتعالى.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾





ويستمر الكاتب في أفكار هذا الفصل من فصول قصته (أختاه أيتها الأمل) فيختمه بما يلي :

شعت كلمات الله القدسية في نفوس الفتيات عزيمة و إصرارا على الاستجابة للتوجيه الرباني ، وتوهجت عقولهن بنور الله منارة تضيء ظلمة الجاهلية المعاصرة فليتشابك ضياؤها مع ضياء منارات مبثوثة على هذا الكوكب الأرضي ، و ليعم الأمن وسلام الإسلام كل رقعة من الأرض ، كل بني الإنسان[1] وما ذلك على الله بعزيز .

وإذا كان هذا هو شأن القصة الإسلامية تأثيرا وإمتاعا وإحكاما لمعالم القصة الأدبية فإن في المضي والوقوف على قصص أخرى ما يعين على تبين الأدب الإسلامي على تحقيق هذه الخصائص الفنية التي يضعها النقاد في معاييرهم النقدية ، ويصفون العمل الأدبي من خلالها بالجودة أو الرداءة على حسب ما يحققه الأديب وقدرته ، ويحققه نصه الأدبي بجودته. و هناك من القصص الإسلامي نصوص كثيرة كلها جديرة بالوقوف والتأمل ، ولما كان في ذكر بعضها ما يغني عن بعض فسنكتفي بإيراد شيء من نصوص قصة "إصلاح " للكاتبة الإسلامية " عزيزة الإبراشي"

(١) المرجع السابق ص ٤٧ وما بعدها .





لقد استلهمت الكاتبة هذه القصة الروائية الإسلامية من واقع الحياة التي يعيشها كثيرا من الشباب المسلم ، و الشابات المسلمات جهلا من الفريقين بأحكام دينهم الإسلامي .

وقد سكبت الكاتبة معانيها الجليلة في إطار قصصي بديع حيث عممت أفكار القصة على أبطال هذه الرواية وهم :

"إصلاح " : تلك الفتاة الجميلة التي أراد الله تعالى أن تهتدي إلى الحق ، وتر بعين اليقين معاني الإسلام ، ومكانة المرآة في ظل أحكامه العادلة ومثله الرشيدة .

ثم زينات هانم " تلك السيدة الأم التي لعب الشيطان بعقلها و عواطفها و أغواها حتى جعلت من بيتها خدما و حشما وفتيات يرعين الرذيلة ويمارسنها في مكان دعاري فاسد ممتد على شط نهر امتداده للشر والفساد على حد ما تخفق فيه أرواح وأرواح كلها جمعت لتودي بإنسانية الشاب والشابة في مهاوي الرذيلة بأي حساب .

ومن شخصيات هذه القصة " عنايات هانم " تلك الشخصية التي لا تقل عن صديقتها " زينات هانم " في التخلق بأخلاق السوء والتنكر للعرف و الشرع والتقاليد الإسلامية .



وهناك من شخصيات هذه القصة عدد من الفتيان والفتيات لكل واحد دوره الخاص به في سرد أحداث هذه القصة وعرض موضوعاتها وعلاج ما ترمي إليه من قيم إنسانية رفيعة .

ومن نصوص هذه القصة الإسلامية البديعة قول الكاتبة (عزيزة الأبراشي) في وصف أول مشهد من المشاهد القصصية التي عرضتها : (في ذلك الحي الهادئ وعلى إحدى ضفتي النهر حيث يهب نسيمه الوادع ، وتتمتع العين بمنظره الساحر تجد قصرا من أفخم القصور رابضا في أحضان جزيرة جميلة شامخا بعظمة بنيانه بين القصور الشامخة الشاهقة. التي تكتنفها البساتين المزهرة ، وتظلل شوارعها الأشجار المورقة ويشملها الهدوء[1])

وتسهب الكاتبة في وصف هذا القصر الجميل شدا لذهن السامع فتخلع على شرفات القصر وساحاته وغرفه ما يدق عن الوصف من بديع التصميم ، وتناسق البنيان ، وتناسب الأجزاء حتى فاق ما حوله من قصور جميلة رائعة وهذا الصنيع من الكاتبة مقبول إلى حد ما، ذلك أن القصة الأدبية تتطلب المزيد من الإسهاب في الوصف والصور التخيلية توصلا إلى رسم الحقيقة الماثلة في العقدة والحل والخروج منها بمخرج يليق بأهداف القصة والغاية منها ، وبعد أن انتهت الكاتبة من رسم خطوط القصة بريشة الرسام المبدع الماهر انتقلت لتحلق بالقارئ والسامع في مضامين عقدة هذه القصة مبتدأة

---

(١) إصلاح لعزيزة الأبرا شي ص٧ .



برسم لوحة جميلة تخلب الناظرين، وتحرك فيهم معاني شريفة سامية من خلال فكرة السلب والإيجاب في المضمون الذي ترمي إليه الكاتبة عزيزة الابراشى، فتعطى الفتاة (إصلاح) نصيبا كبيرا من أسلوب وعرض محاكمة الأفكار التي ينسجها خيال القاص ذي القدرة على الإبداع .

فإليك شيئا مما سجلته الكاتبة عن عقدة هذه القصة :

(ففي منعطف أحد الشوارع الفسيحة الجميلة يختفي ويظهر للأبصار مكان يلفه الحياء وتتقاسمه القوى الشيطانية غير عابئة بهذا الحياء عند آخرين إنه مكان للتجميل يجلس في غرفاته عددا من الرجال و النساء للقيام بتصفيف الشعر وتمشيطه والاشتغال بوضع المساحيق والأطباب والتنعيم لبشرة هذا الجنس وهذا الجنس .

وفى ساعة من ساعات النهار المبكر تلتقي السيدة زينات هانم ومعها ابنتاها :

(إصلاح) تلك الفتاة التي تمتاز على أختها وأمها بجمال فاتن وقوام بديع يلتقي الجميع بالسيدة عنايات هانم تلك التي جاءت إلى هذا المحل لنفس الغرض و الغاية ، إنه تصفيف الشعر والتجميل استعدادا للمشاركة في حفلة ستقام في القصر المعمور للخراب والفساد والدمار وهنا يحصل من الفتاة الجميلة (إصلاح) ما لم يخطر لأمها وأختها وصديقتها ففي أثناء حديث وتشاور وهمهمات بين السيدتين الكبيرتين زينات ، وعنايات تسللت (إصلاح) في

هدوء إلى مدير المحل، وطلبت منه أن يقوم بتجميلها وتصفيف شعرها ، سيدة من العاملات بالمحل لا أن يقوم بذلك رجل من العاملين بعد ذلك عادت إلى مجلسها مع أمها وصديقتها وأختها وأخويها ، ومضت فترة وجاء الحلاقون فاتخذت كل واحدة من النسوة الفتيات مكانها بقرب حلاق ، وقبل أن يبدأ العمل أقبلت فتاة ترتدي معطفا ابيض واتجهت نحو مقعد الفتاة (إصلاح) للقيام بعمل تجميلها ، فعلت الدهشة وجوه الجميع مستنكرين ومنكرين على (إصلاح) أن يقوم بتصفيف شعرها امرأة مثلها واشتعل الغضب في وجه أمها (زينات) قائلة :لماذا استدعيت الأنسة؟

أنسيت أن الرجال هم أجدر وامهر من النساء في تصفيف الشعر وتزين الرأس والبشرة ؟ فأجابت الفتاة (إصلاح) بصوت رزين : ما زلت اعلم ذلك يا أماه ولكني عرفت أخيرا من أستاذي في الكلية أن جلوس المرآة إلى الرجل ليزين رأسها حرام ويغضب الله تعالى، فسخر الجميع من إجابة إصلاح واتجهت إليها أختها (سوزان) قائلة في إنكار واستنكار : أستاذك ؟ حقا لقد غير الشيخ كثيرا من طباعك العصرية وآرائك الحديثة، ولشد ما أخشى عليك الاتصاف بالرجعية إذا تماديت في ذلك ، فنظرت إليها إصلاح ولم تزد على أن قالت : إذا كانت الرجعية معناها الرجوع إلى أوامر الله تعالى ورسوله ، فما أسعدني بتلك الرجعية ، وكان هذا الحوار بين الأختين على مسمع من أمهما وصديقتها عنايات تلك التي جعلت تنصت إلى كلام الفتاة (إصلاح) في



صمت ما لبث أن استحال إلى عجب أخرجها عن صمتها فراحت تتساءل قائلة: من يكون هذا الشيخ ؟ أجابت إصلاح : انه عالم جليل جاء به أبى ليرشدني ويرشد أخوتي فقاطعتها عنايات قائلة في استنكار : عالم ؟ مالك يا أبنتى وكلام الشيوخ وآرائهم إن للشيوخ طريقة في الحياة لا تناسب طبيعة نشأتك: التفتي من حوليك هل ترين أحدا من الناس يسمع لقولهم، أو يتعظ بوعظهم؟ فردت الفتاة إصلاح على هذا الكلام النتن الخبيث قائلة : سبحان الله ما أشد جهل الناس بصالحهم إذا مرضت أجسامهم بادروا إلى الأطباء للعلاج حفظا لحياتهم الفانية أما من يشفون أرواحهم بعد الله تلك الأرواح التي هي مصدر حياتهم الدائمة فهم عن هذا العلاج غافلون وبالمهرة من أطبائه مستهزئون !! ثم اتجهت إلى السيدة عنايات قائلة لها : عفوا أختي الكريمة ما أحوجنا إلى وعظ علماء الدين في هذا العصر ، أليس العلماء هم ورثة الأنبياء وللأرواح هم الأطباء؟ فلم لا نستمع إلى وعظهم وإرشادهم[1] .

وهكذا تمضى الكاتبة في حوار طويل بين أبطال القصة كلما جاء المتطرفون بقول فاسد ورأى خطل ردته الفتاة إصلاح وفندت دعاواهم وأفسدت آراءهم ودلتهم بحزمها في الرأى وقوتها في العارضة وصدقها في العبارة إلى الصواب ، ويشاء الله جل وعلا أن يصلح أمر الفتاة إصلاح.

---

(١) المرجع السابق ص ١١ وما بعدها .





وهنا تسرد الكاتبة عددا من الأفكار والمعاني في أدوار حواريه بين بطلة القصة وإصلاح . وبين معارضيها من أبطال القصة الآخرين.

ويستمر العرض والحوار فيما يزيد على إحدى وثلاثين وثلاثمائة صفحة لرسم صورة بل صورة للكيفية التي بها تم خلاص الفتاة إصلاح من براثن الرذيلة وانفتح أمامها باب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة إنها قد ودعت قصر الخراب والدمار ذلك المكان الآفن الذي أظلم نوره وأغلقت أبوابه ، ونوافذه ، وأصبح حديث المتحدثين ، وعظة الغافلين ، لقد ودعت الفتاة إصلاح ذلك القصر ورحلت إلى بيت الله الحرام لقضاء فريضة الحج وكأنما خلقت من جديد لقد رأت من نور الإسلام وهدايته ما رأت فقد سكنت نفسها وقصر طرفها واحتفظت بجمالها ورزقت زوجا شابا مسلما مستقيما تقدم لخطبتها من محرمها الذي كان يرافقها في رحلة الحج فقد طلب الشاب محسن من أخى الفتاه طلب الزواج من إصلاح فتم له ولها ما يريدان فاجتمع شمل محسن بإصلاح وما أجمل الإحسان والصلاح في حياة فردين يضمهما عقد زواج شرعي صحيح ، لقد كانت إصلاح خير زوجة لزوجها فقد فتحت أمامه أبواب كل خير، وكان محسن من المحسنين بإصلاح المهتمين بشئونها الزوجية الذي كلما دخل عليها دارها وجد عندها ما يسر ويبر فلم يزل يردد قول رسول الله ﷺ : (فاظفر بذات الدين تربت يداك) .





وأخيرا تختم الكاتبة (عزيزة الأبراشى) فصول قصتها بفصل أخير تحدد في موضوعاته ، وأفكاره ، وحوادثه المعاني الشريفة السامية التي يهدف إليها الأدب الإسلامي من خلال ألوانه الأدبية شعرا أو نثرا ، وتقوم وظيفة هذا الفصل على امتزاج آراء وأفكار تعتمل في نفس عدد من الأشخاص الذين هم عبارة عن بيت أسرى يتألف من : (محسن) و (إصلاح) زوجين كريمين عفيفين أسعدهما الحظ في ظل الحياة الزوجية المشروعة بهدى الإسلام وحكمه العادل السليم.

ومن جده وخالته : هذان الشخصان اللذان بقيا من أسرته على مر الأيام، وكانا يكرهان زواجه من الفتاة (إصلاح) لعلمهما بالماضي الذي مرت به في تربية بيتها الأسرى بين أبويها وأخواتها وصديقاتها ، ولم يعلما بعد كيف غيرت الحال من شأن هذه الفتاة التي هجرت بيت العهر والفسوق وهاجرت إلى بيت الإسلام بيت الطهر والعفة مبتدئة رحلة العمر الجديد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ولوضع الأصر والأثقال الاجتماعية التي كانت تعاني منها طوال مرحلة عمرها الأول.

ثم عادت برفقة خير زوج انتشلها من واقع مر مريض إلى مثالية إسلامية لا نظير لها ، حتى كان لهذه المثالية أثر كبير في حياة الزوج (محسن) وفى حياة غيره من معارفه وأصدقائه إذ هيأ لهم فرصا ليكونوا مثله يعيشون





سعداء مع زوجات مسلمات مؤمنات سعيدات في أسرة إسلامية يوحد شملها هدى الإسلام، وتشريعه ونظامه الكامل في الحياة .

ومن بين النصوص التي سردتها الكاتبة لأداء هذه المعاني والقيم قولها في حديث عن مقابلة الزوج محسن لجده وخالته بعد غياب طويل : (هذا أنت يا محسن – مرحبا بك يا ولدى قالت الكاتبة : فاغرورقت عينا محسن بالدمع فرحا بهذا اللقاء غير المنتظر، وفجأة مال إلى جده يعانقه ويقبل يده ، والجد مسرور برؤيته ، قالت الكاتبة : ثم جلس على الكرسي تجاه سريره ، وتكرر ترحيب الجد ، وزادت دهشة محسن ، وعجب من تبدل حالة جده وتغير مقابلته.

وفى هذه اللحظة جاءت خالته ، وأقبلت عليه في لهفة ، فقام محسن لتحيتها، فاحتضنته باكية ، وقبلته في شوق وحنان ، ولم يطل جلوسه وبدأت عاتبة على انقطاعه سائلة عن زوجته مستفهمة عن موعد عودتها من الحجاز.

وكان محسن من تلك المقابلة مبهوتا لا يدرى سببا لهذا التحول من جده ، ولا من أين عرفت خالته خبر سفر زوجته ، وما لبثا أن بدأ الحديث معتذرا : إنى أسف يا خالتي لما كان من انقطاعي عن زيارتكم وقد جئت لأعتذر ولأزيل الفكرة السيئة التي لدى جدي عن زوجتي ، ونظر نحو جده وتابع: فهل أستطيع ذلك يا جدي؟ .





وما اشد الدهشة التي استولت عليه حينما نظر الجد إليه مبتسما وقال في هدوء : لا تقل شيئا يا ولدى ، فقد عرفت عنها كل شيء جزاها الله عن صبرها خير الجزاء. فسر محسن على ما به من الدهشة والعجب وقال مستفهما: جدي يعرف حقيقة زوجتي ؟ حمدا لله فقد كفاني ما أردت إظهاره، وهل علم جدي بتدينها وصفاتها؟

- الجد : أمس - فقط- من خالتك بعد رجوعي من سفري .

فزاد عجب محسن ونظر إلى جده قائلا : أسافر جدي إلى بلاد المغرب ؟

- الجد: نعم يا ولدى بعد شفائي من المرض الذي قد اعتراني بسببك إذ كنت أظن بزوجتك الظنون ، وحاشا يا ولدى أن أظن فقد كنت رأيت بعيني ليلة زفافك ما حملني على ذلك. فانبسطت أسارير محسن وقال ضاحكا : والآن هل سر جدي بتحقيق دعاء جد العائلة الغيور؟

- الجد – حمدا لله يا ولدى ، (فخير متاع الدنيا المرآة الصالحة) فزاد سرور محسن بما سمعه وما لبث أن اتجه إلى خالته متسائلا : من أين أتت إليك أخبار زوجتي ؟ وكيف عرفت بسفرها.

فتبسمت خالته وقالت في بساطتها المعهودة : لقد رأيت زوجتك يا ولدى بعيني و أنا بداخل منزلك، وسمعت عن حقيقتها، فما وجدت لها مثلا في هذا الزمن ، فنظر إليها مبهوتا، وعاد يسائلها في دهشة : خالتي رأت زوجتي وفى منزلي ؟ إن هذا لعجيب وهل عرفتك ؟ وماذا قالت لك؟





- لا يا ولدى إنها لم تعرفني ولم تكلمني إلا كما كلمت غيري ، ولولا خجلي من أعمالك أمام جارتي لكلمتها وعرفتها بنفسي .

- عجبا كيف كان ذلك؟

كان ذلك يا ولدى منذ أكثر من شهرين ، وكان جدك قد سافر إلى (بلادنا) عندما دعتني هذه – الجارة – و أشارت إلى المنزل الذي أمام النافذة لأذهب معها إلى سماع درس من دروس الدين في منزل سيدة بمصر الجديدة[1] .

وهكذا تسرد الكاتبة أحداث وأفكار هذا الفصل في عدد من النصوص تقف بكل نص وفق الأسلوب القصصي الذي يستدعي تنويع العبارة مما يثير عوامل التأثر والتأثير وتتخذ الكاتبة من عقل العاطفة ما يهيئ للقارئ المستمع للمتابعة ، حيث إن العاطفة من أبرز الخصائص الفنية التي ينبني منها الذوق الأدبي المرهف ، ولأنها من أقوى الظواهر التي تتحكم كثيرا في حياة الشبان والفنيين والنساء وتوقظها البيئات الجميلة والمواقف العنيفة والحوادث القوية[2] .

وهذه الخصوصية قد برزت في ثنايا قصة (إصلاح) من أول فكرة سطرتها الكاتبة ولم تزل ترافقها حتى نهاية هذه القصة التي مزجت بين أفكارها بألوان من الأساليب والعبارات التي تتلاءم مع كل حدث.

---

(١) قصة (إصلاح) لعزيزة الأبراشي ص ٣٢١ وما بعدها .

(٢) الأسلوب لأحمد الشايب ص٢٢ .





وإذا كانت الأعمال الأدبية إنما تقوم من خلال ما اصطلح عليه النقاد بالبناء الشعوري : العاطفة والخيال والصورة الأدبية فإن في دراسة النصوص النثرية من خطابة وقصة مما ألمحنا إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة وذكرنا لمعا منه في هذا الفصل ، إن في هذه النصوص ما ينهض بهذه الخصائص ويحققها على الوجه الذي يتميز به الأدب الإسلامي في عموم فنونه وأغراضه، ويتجلى صدق البناء الشعوري في الشعر الإسلامي مما سنتبينه في الفصل الثالث أخر فصول هذه الدراسة.



الفصل الثالث

نصوص من الشعر الإسلامي

- موقف الإسلام من الشعر
- موضوعات الشعر الإسلامي
- خصائصه الفنية







إن الأدب من منظور إسلامي هو أدب العقيدة الإسلامية التي تحث الفرد والمجتمع على إتباع الحق وقول الحق والشهادة بالحق في كل شيء ، والأدب هو فن العبارة ذات الكلمة الصادقة ، ولذا كان لزاما على المسلم أن يلتزم في سلوكه ومعاملاته وأفعاله وأقواله بما هو خير ، والنقد الأدبي من منظور إسلامي يعنى عناية تامة باستجلاء النصوص الأدبية ليضعها تحت المجهر النقدي فيخرج صالحها من خبثها.

ولقد لازم النقاد الإسلاميون إدامة النظر في العطاء الأدبي الإسلامي حين أدركوا – عن قناعة تامة أن الإسلام هو الكفيل بإصلاح الناس من خلال معتقداتهم وأخلاقهم وعطائهم الأدبي ومن خلال هذا المنهج في النقد الأدبي الإسلامي يتعين على كل ناقد واع بصير منصف أن يقول : إن أول مصادر هذا الأدب هو القرآن الكريم ذلك الكتاب السماوي الذي غير العقلية العربية ورفع النظر من الأرض إلى السماء ، وعلم الناس أن يقرؤوا كتاب الطبيعة في فصوله المختلفة من إنسان ونبات وجبال ونجوم وارض وسماء، وان يقرؤوا ما بعد الطبيعة من إله فوق العالمين هو نور السماوات و الأرض.

وبذلك كشف القرآن عن العيون غطاءها فأصبح بصرها حديدا فنظرت إلى العالم من أعلى ورأته وحدة متناسقة الأجزاء تخضع كلها لإرادة الله تعالى ، وأعلن القرآن الكريم الثورة على النظرة المادية الأرضية التي كان ينظر بها الجاهلون وغيرهم من أمم الأرض ، فكانت ضربة المعول في الأصنام





دعوة إلى النظر الجديد فدوت كلمة (لا اله إلا الله) في جزيرة العرب معلنة ضياع الوثنية وعبادة المادية ، كان هذا في القرآن وأكثر من هذا ، وكان لزاما أن تتغير نظرة الأدب وخاصة نظرة الشعر والشعراء ليرتفع نظر الشاعر الإسلامي ارتفاعه في عقيدته، وأن يكون له جانب روحي كجانبه المادي يرى القرآن يدعو إلى العزة ، ليكف الشاعر عن المبالغة في المدح ، ويدعو إلى عفة اللسان ، ليكف الشاعر ويتحرج عن الإقذاع في الهجاء، ويرفع القرآن من شأن المرأة لتعظم في قصيدة الشاعر فيتسامى في الكلام عن جسدها إلى الكلام عن روحها أمانة وعفة وخلقا.

ولكن الشعر الإسلامي في الحقبة الزمنية من تاريخ الأدب في العصر الأموي لم يتخذ له إماما غير الشعر الجاهلي فقالبه قالبه، وموضوعاته ومادته مادته، وإن كان هناك جديد فجدة في العرض لا في الجوهر ، في الشكل لا في المضمون ، جدة لا تتجاوز رقة اللفظ بدل خشونته ، وتحوير المعنى بدل ابتكاره ، وهذا الحكم حكم ليس عاما و إنما يخص الكثير من شعراء العصر الأموي ، (لأن واقع ذلك العصر يشهد بوجود عدد من الشعراء انفردوا باتجاه جديد نحو العقيدة الإسلامية يعبر عن شعر الجهاد الإسلامي فيصور معارك الفتوح الإسلامية ، ويزن الفضائل الإسلامية بميزان الإسلام داعيا إلى الفداء بكل غال ونفيس داعيا إلى كريم الأخلاق وسمو الروح ، وعفة النسيب وسماحة الأريحة ، وسخاء اليد . ولنقف على كل شيء من هذه الخصائص في





هذه المقطوعة من الشعر الإسلامي المعاصر الذي ورث الفضائل الإسلامية من إلهامات الشعراء في مختلف العصور الإسلامية التي اتخذت القرآن والسنة محرابا لشعرها وشعورها:

ودع الناي وخل الوترا ... واهجر الكأس فقد طال السري

لا الكرى يطبق اجفاني ولا ... عادت الأجفان ترضي بالكرى

ولقد بتنا سكارى لا نعي ... واصطحبنا نستعيد الخدرا

فإذا نحن على قارعة ... غادرتنا طللا مندثرا

لا تلوموا دولة البغي على ... بغيها الساحق حين انتصرا

السياسات التي حاقت بنا ... علمتها كيف تجنى الظفرا

والقيادات هواها أن ترى ... أن كل الصيد في جوف الفرا

والخيانات حديث يفترى ... والعمالات كلام يمترى

والشعارات لديهم ثروة ... تلمس الشمس بها والقمرا

فرقتنا شيعا مجنونة ... ذهل العقل بها وانتحرا

جرعتنا السم من تأويلها ... ولقينا من أذاها الضررا

وبعد أن سكب الشاعر هذه العاطفة الإسلامية المتوهجة في هذه المعاني الإسلامية مؤنبا ناصحا لائما كل مسلم محاسبا كان أو مسئولا عن المجتمع



المسلم في كل أرض ، بعد أن تهدا ثورة تجارية الشعرية يأخذ في نفس طويل من الملحمة معددا ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون المؤتمنون على الإسلام ورسالة الإسلام فيقول :

أيها الساعون للمجد بنا ... لن يكون المجد إفكا مفترى

حرروا أنفسكم من إثمها ... واتركوا البغي وجافوا المنكرا

قد رجونا النصر من ثوراتكم ... فإذا نحن رجعنا القهقرى

قسمتنا قسمة ضيزى بها ... بلغ الأعداء منا الوطرا

ما رأينا من فقير يغتني ... منكم إلا الغنى افتقرا

أشعلت في كل نفس حسرة ... ورمت في كل قلب خنجرا

يا عذارى الشعر أسدلن الرؤى ... بدد الخطب خيال الشعراء

أنا رجعي لأني مؤمن.. ... اتقي الله و أخشى القدرا

عربي مسلم لا أنثني... ... اتحدي بثباتي الأعصرا

قبلتي مكة لا موسكو ولا ... أمريكا لا لا ولا انجلترا

كان في الليل لدينا عسكر ... وصحونا ففقدنا العسكرا

وتستمر أبيات الملحمة على هذا النسق بشعر يقرع جرسه الأذن ويملأ الفم ويستثير العواطف ويلهب الوجدان والأحاسيس تحت مقاطع من



عناوين الملحمة كتصوير الشاعر نكبة حزيران ومأساة فلسطين وجهاد الفدائيين من ذلك قوله :

الفدائيون يا زرع الوغى ... يا جنود الثأر يا أسد الثرى

يا نداء الوحي في أقدامه ... يا ضياء في الدياجي نورا

وحدوا اشتاتكم واتحدوا ... واربطوا أحزابكم ربط العرى

واصبروا إن عظم الخطب فما ... يدرك النصر سوى من صبرا

وانصروا الله يهبكم نصره ... واشكروه يعط من قد شكرا

وبيت القصيد في هذا الشعر الإسلامي يلهب الشاعر حماس الفدائي المسلم ليجعله حربه وقتاله واستشهاده في سبيل الله وله ليهبه النصر أو يهبه الشهادة في سبيله.

وبعد : فقديما قال النقاد : (أعذب الشعر أكذبه) أي أن الشاعر متى اعتمد في صوره الشعرية على الخيال المجنح الغارق في المعاني غير الحقيقية كان في إلهامه الشاعري بعيدا عن الواقعية مما يفرض عليه التعمية والألغاز أحيانا في تلمس المعنى والخروج به إلى المتلقي في ثوب قد يعري من الصحة وينعكس الإبداع فيه إلى صورة مشوهة يمجها الذوق وينفر منها العقل وترفضها الفطرة السليمة ، وتلك المآخذ قد عرى منها شعر الأستاذ حسين عرب في كثير من أبيات ملحمته ، ذلك لأنه في نزعته الإسلامية تقيد



بالمعاني الحقيقية التي يمنحها الإسلام كل فرد ولكل مجتمع ، فانطلق الشاعر في صوره ومعانيه وأخيلته من هدى الإسلام الذي هو معان حقيقة لا تحتمل التأويل والتخييل المفرط.

أنـا رجعـى لأنـي مـؤمن — اتقـى الله وأخـشى القـدرا

عربـي مـسلم لا أنثنـى — أتحـدى بثبـاتي الأعـصرا

وحـدوا أشـتاتكم واتحـدوا — واربطـوا أحـزابكم ربـط العرى

إلى قوله : واصبروا . وانصروا الله واشكروه . واثبتوا ولا تخدعوا بسياسات أعدائكم، واحذروا ، وامضوا في جهادكم لله أولا ثم الوطن والحقوق.

ومن خلال أفكار هذا النص الشعري للأديب حسين عرب ، ومن خلال نظرة الإسلام وتصوره الشامل للحياة يمكننا القول عن موقف الإسلام من الأدب بعامة ، ومن الشعر بخاصة : إن أول ما يحسن ذكره في هذا المقام أن نقف على شيء من النظم والعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة إبان العهد الجاهلي لتتضح الرؤية في تحديد موقف الإسلام من الأدب عامة ومن الشعر خاصة.

وإذا كنا بصدد الكلام على موقف الإسلام من الأدب بعامة وموقفه من الشعر بخاصة فإن هنالك عادات ونظما وتقاليد وأعرافا وأخلاقا درج عليها العرب في جاهليتهم وجاء الإسلام فأقر من هذا كله ما هو وثيق الصلة بتشريعاته وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



فمن العادات التي درج عليها الجاهليون : عادات في الزواج وعادات في المهن والصناعات ، إلى جانب التمرس بأخلاق إيجابية وأخري سلبية .

فمن الأخلاق الحميدة : عزة النفس ، كره الذل ، بغض الظلم ، الترفع عن أخذ الدية، إكرام الضيف ، حب السلام ، حفظ حقوق الجار.

ومن الأخلاق السيئة التي تفشت في المجتمع الجاهلي : لهو الشباب ، قلح الشيوخ، ابتذال المرآة صغيرة وكبيرة ، معاقرة الخمر ، لعب القمار ، الدعوة إلى الثأر ، تأريث العداوات.

وقد خالج هذه الأخلاق ألوان من المحامد والفضائل ، كصفاء النفس ، والإيمان بالله تعالى ، و إكرام المرآة للرجل ، وإكرام الرجل للمرآة ، التأثر بالحكم الصادقة وحب المشورة ، والحلم والأناة .

وحين جاء الإسلام أقر من هذه القيم ما يلي : حب السلام ، الشجاعة ، الإيثار ، الكرم ، صلة الرحم ، حسن الجوار ، مساعدة الفقراء ، حسن المعاشرة ، الحلم ، الصدق ، الأمانة ، الوفاء ، الرأفة بالحيوان ، التكافل الاجتماعي ، مقت الظلم ، حقوق المرآة ، الحقوق الزوجية ، بر الوالدين ، ثم ختم هذه القيم الرفيعة والمثل العليا بقول رسول الله ﷺ : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) .

وهذا يعني - بالضرورة - أن الأدب الإسلامي بمصدريه النثر والشعر قد اتخذ من هذه القيم مادته التي ينزع عنها في معالجة الأدواء التي يشكو منها الفرد والجماعة على حد سواء.



وعلى الرغم من أن نقاد الأدب قد نادوا بتأثير العقل والعاطفة والخيال على العطاء الأدبي فإن الإسلام في نظرته إلى الأدب قد وسع دائرة النظرة عند النقاد فسما بالعقل، وسما بالعاطفة ولم يحجب الرؤية الأدبية من خلال الخيال الشاعري، ولكنه عمل على تهذيب العواطف والارتفاع بخيال الأديب عن سفاسف الأمور حتى لا يطغى جانب العاطفة على جانب العقل، فلكل منهما أثره وجدواه في جودة الأدب ورفعته، وقيمه الفنية .

وقد تحدث الإسلام عن المعين الأول للأدب والقيم الإنسانية كلها ذلك المعين هو ((العقل)) فقد جعل له الإسلام مزية تفوق أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييد هذه المزية إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء .

وتلك المزية : هي التنويه بالعقل والتعويل . عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف .

ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونه إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ – أحيانا – شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنه منزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار .

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضيه في سياق





الآية بل تأتى في كل موضع من مواضعها مؤكده جازمة باللفظ والدلالة وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهى التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه ، ولا يأتي تكرار الاشاره إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها.

وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة .

فالعقل في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع من المحظور والمنكور، ومن هنا كان اشتقاقه من ماده (العقل) التي يؤخذ منها العقال، وتكاد شهره العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر .

وهذا يعنى أن الأدب فن جميل قوامه العقل والعاطفة معا فلا يحسن أن يطغى جانب احدهما على الآخر وهاهو العقاد يناقش مسألة الفن الجميل من خلا ل المنظور الإسلامي، الذي العقل والعاطفة مادته فيقول : إن كثرة الأنصاب والتماثيل في المعابد والصوامع والبيع ليست بالقياس الصحيح





لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذي يدان به في المعبد أو البيعة ، لأن المعابد الوثنية كانت تتسع للأنصاب والتماثيل وليست بالنموذج الصالح للأديان في الهداية إلى معاني الجمال و الحض على الفنون الجميلة، وهي في جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التي لا تجتمع والجمال في شعور واحد.

إنما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بالنظرة السوية المعتدلة إلى الحياة فلا يقال عن دين إنه يحيي الفنون الجميلة أو يتقبل إحيائها إذا كانت له نظره زرية إلى الحياة، وكان ينظر إليها كأنها وصمه زرية، و إلى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول وانحراف بالإنسان عن عالم الروح والكمال، إن هذا ليس من الجمال في شيء.

والإسلام وهو يرعى حقوق الجمال والاستمتاع به قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها. والتفكير في آلائها : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ سورة الكهف.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ سوره الحجر ،﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ سوره ق، ثم إن الجمال بمفهومه الواسع يكون في الصورة والمشهد واللمس والذوق والتمييز بين الأشياء ويكون في المظهر والمخبر والصوت الحسن، ناهيك بترتيل القرآن الكريم من ذي الصوت الحسن



الجميل، قد أبيح للمسلم الترتيل القرآني وطولب به ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ سوره الفرقان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ سوره المزمل.

ولا أعذب ولا أجمل من صوت القرآن يسري في الوجود مع سكون الليل[1].

وبهذا يكون للأدب الإسلامي مقومات أساسيه يجب أن يقوم عليها بناؤه وعلى الأديب إن يستلهم من هذه المقومات عواطفه ومشاعره وكل أحاسيسه وتجاربه، وهذه المقومات يمكن أن نلخصها فيما يلي :

القرآن الكريم :

ذلك الكتاب السماوي الفريد هو المنبع الأصيل للأدب الإسلامي ، لأنه كتاب العربية الشامل ، ونظام الإسلام الفريد الكامل ، أنزله الله على رسوله فبهر العرب، وشدهم شدا بسلامة منطقة ، وقوة بيانه ، وأسلوبه الغني الرائع ، واستوى في الإعجاب ببيانه المؤمنون وغير المؤمنين وقصة الوليد بن المغيرة ، وإسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- خير شاهد علn ما للقرآن الكريم من حجة ناصعة وساطعة ، وبيان رفيع وإعجاز بياني يأسر القلوب ، ويشد النفوس ، ويستثير العقول ، ويمتع العواطف .

---

(١) التفكير فريضة إسلامية – عباس العقاد ص ٢٧ .



والمتأمل في كتاب الله من هذه الوجهة يجد فيها التعاليم الإلهية التي تسمو بالنفس الإنسانية لتخلصها من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان، ويجد فيه التصوير الفني للعواطف، وأشواق النفس الإنسانية كوصف الجنة وما وعد الله به المؤمنين المتقين من جزاء أجر ومثوبة.

ويجد فيه مشاهد الكون والحياتين الدنيا والآخرة، ويجد كل هذه المشاهد مجلوّة في نسق بديع نابض بالحركة والحياة، ويجد فيه القصة بخصائصها الفنية الرائعة التي لا تصدق على القصص الأدبية لأن معين هذه مستمدة من التهويمات والخيال، ومعين القصص القرآني مستمدة من الحقيقة في الإطار والمضمون.

ومن مقومات الأدب الإسلامي: رسمه التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، و إذا فتش الأديب عن مضامينه في أعماله الأدبية فسيجد ضالته في ثنايا هذه المخلوقات من طبيعة صامتة كالأرض والجبال، ومن طبيعة متحركة كالإنسان والطير والحيوان والماء والنبات، وكل هذه المخلوقات مدد فياض ينهل منة الأدباء ليؤدوا خلاصة تجاربهم وتفاعلهم مع الحياة إلى الأحياء في صورة ناطقة حية تجسد للقلوب معاني الفضيلة، وتجسد للعواطف معاني الاتجاه إلى الله فاطر الأرض والسماوات ومن فيهن وما فيهن. ومن مقومات الأدب الإسلامي التاريخ الإسلامي: فهو صفحات مشرقة وصور حية لم تزل تبني أمجاد الإسلام في ضوء ما يعود بالخلف إلى السلف في ظل





التوجيهات الربانية في السلم والحرب وفي عموم شئون الحياة . ولذلك يجد الأديب المسلم في التاريخ الإسلامي عطاء ثرا متميزا يعد من أرقي ألوان المعارف التي تمد الأديب بطاقة تعبيرية عن أدب خالد رفيع .

وبهذا يمكن أن يرسم الأديب للأدب الإسلامي منهجا تبين فيه خصائص هذا الأدب . من مقومات هذا المنهج كتاب الله وحديث رسوله لما لهما من أثر في مضامين الأدب بعامة والأدب الإسلامي بخاصة بل إن من مقومات الأدب بعامة ذلك الإنسان الذي خلقه الله وجعله محور الوجود إذا كبت أشواق الجسد ، وترك ملذات الدنيا ، واعتزل الحياة لأن كل هذه الماديات تطمس وتشوه جانب الخير في أعماقه. ولكن نصحح هذا المفهوم عن الإنسان نقول :

لقد جاء الإسلام ليصحح النظرة إلى هذا المخلوق . فهو ليس مادة فحسب. وليس روحا فحسب. وإنما يجمع في طبيعته وتركيبته بين المادة والروح .

أما الجانب الأول فهو ما يشير إليه القرآن في قول الله تعالى : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٖ ٧١ ﴾ [1] .

وأما الجانب الثاني فهو ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [2] .

---

(١) سور ص الآية ٧١

(٢) سورة ص الآية ٧٢ .





ومن هنا يعلم - بالضرورة - أن الإنسان في آدميته لا يكون إنسانا بمادة الطين وحدها. مع تسليمنا بأن الله وحده قادر على كل شيء - وإذا ما صلة التوازن الإسلامي في طريقة العيش الحلال ؟ يتضح ذلك في أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالجمع بين الجانبين المادة والروح، وإن غلب احد الجانبين على الأخر اختل التوازن في ممارسة الحياة على النحو السليم الذي لا يشوبه فساد.

ومن هنا يدرك كل ذي بصيرة أن الدين الإسلامي إنما طلب من المسلم أن يقيم التوازن بين هذين الجانبين في طبيعة تكوينية. أي بين الجسد والروح. فهو يعطي الجسم حقه ولكن ليس على حساب الروح، ويعطي الروح حقها ولكن ليس على حساب الجسد . وإذاً فمهمة الإنسان هي إقامة هذا التوازن في طبيعته المزدوجة، يأكل ويشرب ولكن لا يسرف يصلي ويتعبد ولكن لا يعتزل العمل والإنتاج، ولا يعتزل المجتمع والحياة ولا يعطل ما منحة الله من ملكات وقدرات ومواهب وطاقات . أعلاها وأغلاها وأزكاها نعمة العقل تلك النعمة التي هي أنفس وأغلى ما يملكه كل مخلوق بشري .

ومعيار التوازن في الحياة تزنه بالقسطاس المستقيم آيات بينات من كتاب الله تعالى . وتزنه بالمعيار الصحيح أحاديث رسول الله ﷺ فمن آي الذكر الحكيم قول الله تبارك وتعالى : " ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ





قليلا ﴿٢﴾ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (١) ، ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ "(٢) ، ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴿٦٧﴾ ﴾ "(٣) "

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴿٧﴾ ﴾ "(٤) **وأما الأحاديث فمنها تلك الكلمات الشفافة الحوارية التي يعلمها رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه أصحابه الأجلاء : ((يا عبد الله بن عمر إن لله عليك حقا وأن لبدنك عليك حقا وان لأهلك عليك حقا)).**

وحدث أن وعظ رسول الله أصحابه بكلمات وجلت منها القلوب فأجتمع عدد منهم واتفقوا على أن يصوموا النهار أبدا ويقوموا الليل ويعتزلوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا وزينتها . فخطب فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم قائلا : (ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم ؟ أما إني ليس أمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا فإنه ليس في ديني ترك ذلك ، ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد) أو كما قال صلى الله عليه وسلم إلى آخر ما ورد في هذه الخطبة النبوية الشريفة .

---

(١) سورة المزمل الآية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٩

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٧

(٤) سورة الطلاق الآية ٧





فهذا هو هدي الإسلام الخالد حفظته الآيات وبسطته الأحاديث وأفاده الأدباء والعلماء ومفكرو الأمة ولم يزل معينا فياضا ينهل منه كل وارد إنه مجد بناه القرآن ومد رواقيه الرسول الكريم ونشره الرعيل الأول من المسلمين وسيظل نشره أمانة في أعناق المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو جهاد أبدي - ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [1].

والأدباء في كل مجتمع هم حملة لواء المعرفة، والشعر من الأدب ولكن أي أدب ؟ إنه ذلك اللون الفني الذي يعبر معناه مدكرا الماضي هاتفا بالحاضر لا يلوي معناه إلا على العمل والإنتاج ليمكن لشرع الله في الأرض.

ما لشعري على القديم يغار	مستهل في كل معنى يثار
لا تقل راعني وخيب ظني	بدؤك الشعر يحتويه أدكار
أنا في مطلع القصيدة أحاكي	كل صوت أصداؤه تستعار
فلئن قلت يا فؤادي أقصر	إن دهري من شؤمه مستطار
فلى الكون كله نغمات	يا فؤادي لكل معنى شعار
خل شكواك مرة و تفاءل	بك أزرت – في شؤمها الأشعار
تشتكي حاضرا وتندب ماضٍ	أو ما عاب شعرك الافتخار

(١) سورة الفرقان الآية٥٢



أملأ العين من مشاهد عصر ... في أعاجيبه العقول تحار

وتقدم فإن دينك أمر ... ليس فيه تراجع و انحسار

وتدبر فإن شرعك ينهى ... أن تخوض الأمور وهي خسار

ليس ينهاك دينك إلا ... عن فعال تعيبها أوزار

قد سئمنا جرس النشيد رتيبا ... رددته في عزفها الأوتار

أي معنى إذا أدركت عظيما ... غيبته في سفرها الأعصار

ومضى قد وفي بذمة عهد ... فيه للناس عزة وانتصار

أنت أولى بالعهد في عصر قوم ... ضيعتهم في دربها الأشرار

أو يجدي إفتخارنا بجدود ... وعلينا من الخنوع دثار

جسم الداء للعيان مطبا ... كي يرى القلب ما ترى الأبصار

أنقذ الناس من براثن قانو ... ن ينوء منه الأوار

إن قبست الضياء سرت سويا ... أو أممت الظلام فهو عثار

لا تقل يحكم الأمور كبير ... قد يساوي الكبار قوم صغار

فارق السن لا يعيب إناساً ... قد يهاب الصغار قوم كبار[1]





وإذا فالتوازن في المجتمع الإسلامي إنما هو في العطاء والعمل من كل فريق على حسب ما يحسن، وإنما هو امتثال لا إفراط فيه ولا تفريط وإنما هو عطاء مستمر يؤتى ثماره وفق درب سوى لا ترى فيه عوجا ولا أمتا .

ومن هنا ندرك موقف الإسلام من الأدب بعامة، ومن الشعر بخاصة. وانه موقف يتجلى فيه : ((الصدق الفني الذي يحكم إطاره العقل والعاطفة والخيال معا في بعد عن المبالغات المفرطة التي يلفظها الحس الصادق، وفي بعد عن التكلف الثقيل عن النفس والتصنع المنفر للحس والمبعد عن الطبع مع المحافظة على سلامة اللغة رونقا وديباجة لكي تظهر محاسن الأدب وتبرز لطائفه التي تتفاعل معها الأحاسيس))[٢]

وهذا من حيث تجلى النتاج الأدبي ونضجه وتكامله فيما يتناول البناء الفني شكلا ومضمونا .

أما من حيث المنهج فمعلوم ((إن نظره الإسلام إلى الأدب لم تتناول موقفه من الفنون الأدبية جميعها، لأن كثيرا من هذه الفنون جد على المسلمين بعد الكتاب والسنة سوى الشعر والقصة والخطابة، فهذه ألوان صاحبت الحياة الأدبية عند العرب في جاهليتهم وبعد إسلامهم وكان للإسلام منها موقف واضح محدد))[٣]

---

(١) ديوان إسلاميات لمحمد الدبل – الطبعة الرابعة – مكتبة العبيكان – الرياض .

(٢) الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي للدكتور / زهدي الخواجة ص ٣٨ .

(٣) نحو مذهب إسلامي في الأدب و النقد د / عبد الرحمن الباشا ص٤ طبع جامعة الإمام ١٤٠٥ .



أما القصة والخطابة فموقف الإسلام منهما موقف يتجلى فيه سلامه النقد وصحة التوجيه ويكفى في ذلك خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء من بعده وخطب الولاة وقاده الجيوش الإسلامية فإن هذه الخطب قد سارت على نحو مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول في هذا الشأن وحسبنا في ذلك ما أوردناه من نصوص خطابيه لعدد من الخطباء الأنبياء وحسبنا في ذلك ما اشرنا إليه من الخصائص التي تميز بها كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القدوة الحسنة للمسلمين في كل شيء.

وأما القصة فلا تقل شأنا عن الخطابة غير أن هذا اللون لم يكثر كثرته إلا في عصر النهضة الحديثة وذلك من حيث المنهج أما من حيث الصدق الفني والنضج الأدبي فيكفى في ذلك ما سقناه من نصوص القصة الإسلامية من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما الشعر فلون تختلف نظره الإسلام إليه عن هذين اللونين : أعنى الخطابة والقصة .

ونظراً إلى خطورته في حياه العرب والمسلمين أدبيا وفكريا فقد حدد الإسلام موقفه منه فنيا ومنهجيا .

وقد أشرنا إلى شيء من هذا الموقف فيما سبق ذكره ومن حيث المنهجية فإن نظره الإسلام إلى الشعر تقوم على المواقف والحوادث التالية :





١ – ما ثبت عن رسول الله ﷺ في سماعه الشعر ومدحه إياه وطلب المزيد من إنشاده.

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله أو ينافح ، ويقول الرسول الكريم حول هذا الشأن : " إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ .

٢ – أن الإسلام أحدث تغييرا في وظيفة الأدب ومنه الشعر فلم يبقى هذا اللون متعة يستمتع بها الناس في أنديتهم وأسمارهم[١] بل رقى بفن القول حتى شده إلى محور الجهاد في الله تعالى .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم))[٢] إلى غير ذلك من المواقف والأدلة التي تحدد موقف الإسلام من الشعر كهجاء الشعراء للمشركين وذب الشعراء عن عقيدة الإسلام ، ومن بدائع هذا اللون الذي يعد من عيون الشعر وروائعه : قصيدة إسلامية لشاعر الإسلام : كعب بن مالك الأنصاري ، ذلك الشاعر الفحل الذي ذب عن الإسلام بسيفه وشعره ، وبسط محاسن الإسلام وأخلاق الرسول الكريم في كثير من قصائده الإسلامية التي لم تزل باقية أبد الدهر تشهد بمآثر ذلك الشاعر ، وتشهد بمآثر المسلمين وبطولاتهم ومواقفهم

---

(١) المصدر السابق ص٦ – ٧

(٢) الحديث في فيض القدير جـ٣ ص٣٤٣ للمناوي – دار المعرفة بيروت





من الدعوة الإسلامية أيام الفتوحات والغزوات النبوية التي خاض غمارها صحابة رسول الله ﷺ يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه ، يقول كعب رضي الله عنه وأرضاه :

أمر الإله بربطها لعدوه	في الحرب إن الله خير موفق
لتكون غيظا للعدو وحيطا	للدار أن دلفت خيول النزق
وبعيننا الله العزيز بقوة	منه وصدق الصبر ساعة نلتقي
ونطيع أمر نبينا ونجيبه	وإذا دعا لكريهة لم نسبق
إن الذين يكذبون محمدا	كفروا و ضلوا عن سبيل المتقى

إن هذه نغمات إسلامية تحس في نبراتها وتلمس في نظم ألفاظها وحروفها معاني كتاب الله سبحانه وتعالى فقول كعب رضي الله عنه : أمر الإله بربطها لعدوه .. إنما هو مستفاد من قول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١) .

واستمع إلى رائعته في إجلاء بني النضير ومصرع زعيمهم كعب بن الأشراف اليهودي الذي كان من ألد خصوم النبي والمسلمين :

لقد خزيت بغدرتها الحبور	كذاك الدهر ذو صرف يدور

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .





وذلك أنهم كفروا برب ..... عزيز أمره رب كبير

وقد أوتوا معا فهما وعلما وجاءهم من الله النذير

فقالوا : ما أتيت بأمر صدق وآيات مبينة تنير ...

فقال : بلي لقد أديت حقا يصدقني به الفهم الخبير

فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجز الكفور

فلما أشربوا غدرا وكفروا وحاد بهم عن الحق النفور .....

إلى أخر ما جاء في هذا النص الذي سنقف على خصائصه الفنية في وضع آخر من هذه الدراسة ، وخلاصة ما يمكن أن نقول عنه – هنا : إنه شعر العاطفة والعقل خدمة للدعوة، ونشرا لدين الله تعالى في الأرض.

وحكمة الشاعر كعب رضي الله عنه حكمة رجل مؤمن مصدق بكل ما جاء به النبي الكريم من عند الله تعالى ، إنها حكم مستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى يتسم بها شعر كعب كما ورد في أبيا ت هذه القصيدة وفي قوله من أخري :

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه والصدق عند ذوي الألباب مقبول

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل

وإن تروا أمرنا في رأيكم سفها فرأي من خالف الإسلام تضليل





ومن حكمه الصائبة قوله :

من يفعل الحسنات لله يشكرها — والشر بالشر عند الله سيان

وإنما قوة الإنسان ما عمرت — عارية كارتداد الثوب للعاني

إن يسلم المرء من قتل ومن مرض — في لذة العيش ابلاء الجديدان

فإنما هذه الدنيا وزينتها ... — كالزاد لابد – يوما – أنه فان

إن هذه بعض روائع الشاعر المسلم كعب بن زهير رحمه الله ورضي عنه وأرضاه ، إنها عقود الجمان وأصداف الدر ، وجوهر العقود .

أما ألفاظ الشاعر من حيث الجزالة والفخامة فإنها لبنات مرصوصة يأخذ بعضها بحجز بعض .

وأما من حيث السهولة والعذوبة فألفاظ من نهر جار سلسبيل ومن حيث الوعورة والغرابة فشعر كل ألفاظه وجمله وتراكيبه بناء فني خال من التكلف والتقعر ، ولا ريب في توافر هذه الخصائص في شعر كعب وغيره من شعراء الإسلام لأن دين الله تعالى ثقل نفوسهم وهذب طباعهم وألان عريكتهم وميز بينهم وبين غيرهم في السلوك مظهرا ومخبرا ، فجاء أدبهم أدبا حيا خالدا سحا غدقا يهتف بالإيمان من أجل الإيمان ويزرع الخير في الحياة للأحياء حبا وأمنا وسلاما ورعاية لأنه دين الله تعالى للناس أجمعين.





ولكعب رضي الله عنه باع طويلة في الشعر أورد أخباره صاحب الأغاني : من ذلك قصيدته في حادثة قتل عثمان رضي الله عنه ، فقد وقف كعب على مجلس الأنصار في مسجد رسول الله ﷺ وانشد :

من مبلغ الأنصار عني آية	رسلا تقص عليهم التبيانا
إن قد فعلتم فعلة مذكورة	كست الفضوح ولبدت الشنئانا
الله يعلم أنني لم أرضه ...	لكم صنيعا يوم ذاك وشانا
يا لهف نفسي إذ يقول : ألا أرى	نفرا من الأنصار لي أعوانا
قوم يرون الحق نصر أميرهم	ويرون طاعة أمره إيمانا
إن يتركوا فوضى يروا في دينهم	أمراً يضيق عنهم البلدانا
فليعلين الله كعب وليه	وليجعلن عدوه الذلانا
محصن الضرائب ماجدا أعراقه	من خير خندف منصبا ومكانا
عرفت له عليا معد كلها	بعد النبي الملك و السلطانا
من معشر لا يغدرون بذمة	كانوا بمكة يرتعون زمانا
يعطون سائلهم ويأمن جاره	فيهم ويرمون الكماة طعاما

ومما أورده صاحب الأغاني من أخبار كعب : أن قريش كان يهجوهم ثلاثة نفر من الأنصار : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحه



قال: وكان حسان وكعب يعارضان قريشا بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحه يعيرهم بالكفر ، وينسبهم إليه ، ويعلم أن ليس فيهم شيء شر من الكفر فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب وأهون شيء عليهم قول ابن رواحه ، فلما اسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحه .

وكان كعب بن مالك رضي الله عنه شاعرا فحلا مقدما فها هو يستأذن رسول الله ﷺ في هجاء الأعداء ، فقد حدث سماك بن حرب قال : أتي إلى رسول الله ﷺ فقيل إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحه فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه ، فقال له : أنت الذي تقول : ((فثبت الله ؟ قال : نعم يا رسول الله أنا الذي أقول :

فثبت الله ما أعطاك من حسن ثبيت موسى و نصرا كالذي نصرا

فقال وأنت فعل الله بك مثل ذلك ؟ قال : فوثب كعب بن مالك فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه فقال : أنت الذي تقول : ((همت)) قال : نعم يا رسول الله أنا الذي أقول :

همت سخينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

فقال : أما إن الله لم ينس لك ذلك .

وها هو رسول الله ﷺ يحكم بحسن شعر كعب رضي الله عنه فقد روى الشعبي : أنه لما انهزم المشركون يوم الأحزاب فقال يا رسول الله ﷺ : إن





المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى ويهجونكم ، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحه رضي الله عنه فقال : أنا فقال ﷺ إنك لحسن الشعر ، ثم قام كعب فقال أنا ، فقال ﷺ وإنك لحسن الشعر وحدث جويرية بن أسماء قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال: أمرت عبد الله بن رواحه فقال وأحسن ، وأمرت حسانا فشفي وأشتفى .

ولما سأل معاوية بن أبي سفيان جلساءه عن أشجع بيت وصف به شاعر قومه قال روح بن زنباع قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... قدما ونلحقها إذا لم تلحق

ومع هذه المذهبة العينية لكعب رضي الله عنه أنها أبيات جديرة بالدراسة و النظرة الفاحصة ، إنها قصيدة لشاعر أحبه رسول الله ﷺ لما له من مواقف تشهد بصدق إيمانه ، ورسوخ العقيدة في نفسه هذه القصيدة نظمها كعب في الرد على عبد الله بن الزبعري قبل إسلام هذا الأخير .

اشتملت وحداتها العضوية على صور أدبية فنية. صاغها – كعب رضي الله عنه – بريشة الشاعر المبدع . فجاءت قصيدته خطابا للعقل والعاطفة متسمة بالواقعية والتاريخ والصدق الشعوري . وهذه الخصائص مجتمعة تؤكد ثبوت الشعر الإسلامي وقوته وتفاعله وأثره و تأثيره وإن ما يراه بعض النقاد قدماء ومعاصرين عن أن الشعر الذي نظمه شعراء الإسلام من الرعيل الأول فقد بعض السمات الفنية من توهج العواطف ، والإبداع في الصور ، وسعة





الخيال ، وتميز بخصائص أخرى كفطور العاطفة ونضوج الصورة وضيق الخيال ، حكم فيه تسرع والفيصل فيما ذهب إليه هؤلاء النقاد أن نستمع إلى شيء من قصيدة كعب فهي البرهان على خلاف ما يرمون إليه .

يقول رضي الله عنه وأرضاه :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم	من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار وأعلام كأن قتامها	من البعد نقع هامد متقطع
مجالدنا عن ديننا كل فخمة	مذربة فيها القوانس تلمع
ولكن ببدر سئلوا من لقيتم	من الناس و الأنباء بالغيب تنفع
وأنا بأرض الخوف لو كان أهلها	سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله :	أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع
نجالد لا تبقي علينا قبيلة	من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا
وقال رسول الله لما بدوا لنا	ذروا عنكم هول المنيات و أطمعوا
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى	وليس لأمر حمه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم	كأنهم بالقاع خشب مصرع
ونحن إناس لا نرى القتل سبة	على كل من يحمى الذمار ويمنع





بنوا الحرب لا نعيا بشيء نقوله ولا نحن مما جرت الحرب نجزع

إلى أخر ما قال كعب رضي الله عنه – في هذه الرائعة الحماسية التي تقارب أبياتها خمسين بيتا ، كل بيت يعبر عن معنى سام شريف تتلاحق فيه الصور حتى كأن السامع يشاهد المعركة الإسلامية عيانا .

وقد أشرنا إلى شيء من خصائص شعر كعب فيما سبق ولعله يكفي في الوقوف على مواطن الإبداع في شعره[1] .

وإذا كانت هذه الدراسة إنما تعنى بتفحص مواطن الإجادة و الإبداع في عدد من نصوص الخطابة و القصة و الشعر ، واستجلاء الخصائص الفنية في كل نص يختار . إذا كانت الغاية من هذه الدراسة هو ما ذكرنا فإنه يحسن الوقوف على تبين المادة الأدبية التي يستمد منها الشعر الإسلامي معانيه ومبانيه ، ويحسن الوقوف – أيضا – على أغراض هذا اللون من الشعر .

ولإن قيل : هل هناك فرق بين هذا الشعر وغيره من نصوص الشعر العربي في المادة و الغرض ؟؟ لإن قيل هذا فالجواب أنه لا فرق بين نصوص الشعر من حيث القوالب فهذا وذاك بلسان عربي مبين ، ولكن هناك فرق بين اللونيين من حيث الغاية و الغرض .

ومن هنا نجد نصوص الشعر ذي النزعة الإسلامية متميزا على غيره من نصوص الشعر في هذا الشأن ، لأن الشعر الذي غايته بسط محاسن الشريعة

(١) أنظر ص ١٩٧ ، ١٨٠ من هذه الدراسة .



الإسلامية و الذب عنها و توجيه المجتمع وخدمة الفضيلة لابد أن يكون متميزا في شكله ومضمونه .

ولابد أن يرقى في خصائصه الفنية إلى ذروة الإجادة والإبداع لأنه ذو كلمة طيبة والكلمة الطيبة لا تخدم إلا معنى غائيا طيبا ولإن قيل : لكن مادة الشعر العربي كله هو الكون ومن فيه ومن عليه فلا فرق بين نصوص الشعر التي تستمد معانيها وأغراضها من عوالم الطبيعة صامتها ومتحركها.

فالجواب نعم لا فرق في كنه المادة حجما ولونا . ولكن هناك فرق في تسخير هذه المادة وتطويعها لخدمة الفكر والأدب بما ينفع الناس .. فهل نقرن قول الشاعر العربي:

دع المساجد للعباد تسكنها ... وقم بنا نحو حانوت ومزمار

هل نقرن هذا البيت بقول الشاعر الإسلامي :

فدع عنك سوءات الأمور فإنها ... حرام على نفس التقي إرتكابها

واد زكاة الجاه وأعلم بأنها ... كمثل زكاة المال تم نصبها

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم ... فخير تجارات الكراء إكتسابها[1]

إنه فرق ما بين الثرا والثريا. وهل نقرن نظرة الشاعر العربي والشاعر الإسلامي سواء كان عربيا أو غير عربي هل نقرن نظرة الشاعرين إلى الحياة

(١) ديوان الإمام الشافعي ص٥١ تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي .





حين ينظر إليها الشاعر المسلم على أنها وسيلة لا غاية . وينظر إليها الشاعر غير المسلم أو الشاعر المسلم الذي لا ينزع في شعره إلى معاني الإسلام فينظر إلى الحياة على إنها غاية يتمتع بها الإنسان و يرضي عواطفه و يشبع غرائزه بما أبيح وبما حرم . ادعاء بأن هذا من حرية الفكر و الأدب . لو صح أن نقرن هذه النظرة بتلك لما صح أن يكون هناك قانون و تشريع يهدي الناس إلى ما يقوم حياتهم و يسعدهم و يربطهم بآخرتهم التي هي السعادة و الحياة الصحيحة و الأبدية .

ومن هنا لا يوجد فرق في مادة الشعر العربي سواء كان من اللون الإسلامي أو غيره . فإن الكون ومن فيه و من عليه هو مادة الشعراء و لكن تختلف النظرة من حيث تسخير هذه المادة .

ولابد أن تختلف الأغراض الشعرية عن الشعراء تبعا لاختلاف نظراتهم فالمرأة – مثلا – إحدى مواد العطاء الشعري لكنها في نظرة الشاعر الذي لا يزن الكلمة الشاعرية بمعيار الإسلام ونظرته إنما هيا إلعوبه و متعة وتسلية ووصف مجرد . لكنها في نظرة الشاعر المسلم وروايته الأدبية بيت طمأنينة وسعادة و سكون وعفة و طهر .

ولذلك نجد أغراض الشعر الإسلامي من أجل الأغراض وأرفعها وأشرفها ويكفي أنه فوق أغراضه التي تتناول عفة المرأة و طهرها و تتناول وصف الطبيعة للعبرة و العظة و إبراز عظمة الخالق . يكفي أن أغراض هذا الشعر





تتوج بشرح محاسن الشريعة و الذب عن رسول الإسلام و الدعوة إلى الجهاد ووصف البطولات الإسلامية . و تجسيد غايات الدعوة إلى دين الله ورثاء شهداء الإسلام وهجاء أعداء الله والعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق . ومن نصوص هذا الشعر قول الشاعر الإسلامي كعب بن زهير في رائعته الإسلامية " بانت سعاد " تلك الرائعة التي خص بها الشاعر مديح رسول الله صلى الله عليه و سلم ومنها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة	لا يشتكي قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذي شبم من ماء محنية	صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه	من صوب غادية بيض يعاليل
واها لها خلة لو إنها صدقت	موعودها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها	فجع وولع وإخلاف و تبديل
فما تدوم على حال تكون بها	كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالوعد الذي زعمت	إلا كما يمسك الماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا	وما مواعيدها إلا أباطيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت	إن الأماني و الأحلام تضليل
أرجو وأمل أن يعجلن في أبد	وما لهن طوال الدهر تعجيل
أمست سعاد بأرض لا يبلغها	إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولا يبلغها إلا عذافرة ...	فيها على الأين أرقال وتبغيل
من كل ناضجة الذفرى إذا عرقت	عارضتها طامس الأعلام مجهول
ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق	إذا توقدت الحزان و الميل
ضخم مقلدها فعم مقيدها ..	في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
حرف أخوها أبوها من مهجنه	وعمها خالها أدماء شمليل
عبرانة قذفت باللحم عن عرض	ومرفق عن ضلوح الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومذبحها ..	من خطمها ومن اللحيين برطيل
تمر مثل عسيب النخل ذا خصل	بعتزر لم تخنه الأحاليل
قنواء في حريتها للبصير بها	عتق مبين و في الخدين تسهيل
غلباء وجناء علكوم مذكرة	في دفها سعة قدامها ميل
يمشي القراد عليها ثم يزلقة	عنها لبان وأقراب زهاليل



وجلدها من الطوم لا يؤبسه ... طلح بضاحية المنين مهزول

تخدى على يسرات و هي لاهيه ... زوابل وقعهن الأرض تحليل

سمر العجايات يتركن الحصى زيما ... ولا يقيها رؤوس الأكم تنعيل

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت ... وقد تلفح القور العساقيل

يوم يظل به و الحرباء مصطخما ... كأن ضاحية بالنار مملول

وقال للقوم حاديهم و قد جعلت ... ورق الجنادب يرقد الحصى قيلوا

شد النهار ذراعا عيطل نصف ... قامت فجاوبها ورق مثاكيل

نواحة رخوة الضبعين ليس لها ... لما نعى بكرها الناعون معقول

تفرى اللبان يكفيها ومدرعها ... مشقق عن تراقيها رعابيل

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم ... إنك باين أبي سلمي لمقتول

وقال كل خليل كنت آمله .. ... لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلي لا أباليكم ... فكل ما قدرا الرحمن مفعول

كل أبن أنثى وإن طالت سلامته ... يوم على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... و العفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ و تفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيه الأقاويل

أني أقوم مقامة لا يقوم له أرى و أسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له من النبي بأذن الله تنويل

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نقمات قيله القيل

ولهو أهيب عندي إذ ألمه وقيل إنك منسوب و مسئول

من ضيغم من شراء الأسد محدده ببطن عثر غيل دونه غيل

يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما لحم من القوم مغفور خراذيل

تظل منه حمير الوحش ضامرة ولا تمشي بواديه الأراجيل

إذا يساور قرنا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مجدول

ولا يزال بواديه أخو ثقة مطرح البز والدرسان مأكول

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما اسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داوود في الهيجاء سرابيل

بيض صوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول



يمشون مشي الجمال البزل يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

لا يثبت الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياد الموت تهليل[1]

هذه رائعة الشاعر و الصحابي (كعب بن زهير) في مدح رسول الله صلى الله عليه و سلم رائعة تربوا أبياتها على ستين بيتا حفظتها مصادر الأدب ما بين زيادة و نقص وتباين في الرواية و الذي يعنينا من هذه القصيدة الإسلامية الوقوف على مواطن الإبداع في معانيها و مبانيها .

لقد استهل الشاعر (كعب) قصيدته بمطلع غزلي عذري عفيف على عادة الشعراء القدماء و يصل هذا المطلع إلى أربعة عشر بيتا من قوله :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يجز مكبول

إلى قوله :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

وبعد هذا المطلع يدلف الشاعر إلى وصف ناقته على عادة الشعراء قديما إذ لهم بالنياق شأن كبير في وصف سيرهن وأجسامهن وطباعهن ووصف المفاوز و الفلوات التي تقطعها الناقة وصولا بذي الحاجة إلى غرضه و تحقيق مراده .

ويشتمل هذا الوصف على واحد و عشرين بيتا من قوله

---

(١) القصيدة متناثرة في عدد من المصادر الأدب ومنها (جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام جـ٢ ص٧٨٩ وما بعدها تحقيق الدكتور / محمد على الهامشي مطابع الجامعة .



ولا يبلغها إلا عـذافرة ... فيها على الأين أرقال وتبغيل

إلى قوله :

تفري اللبان يكفيها ومدرعها مشقق عن تراقيها رعابيل

ثم يبدأ نفس القصيدة في الغرض منها وهو مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأخذ الشاعر في إبداء عذره عما اقترفه في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل في الإسلام ، ويمهد لهذا العذر بأربعة أبيات هيا قوله :

تسعي الوشاة بجنبيها وقولهم إنك يابن أبي سلمي لمقتول

وقال كل خليل كنت آمله .. لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلي لا أباليكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل أبن أنثي وأن طالت سلامته يوم على آلة حدباء محمول

وبعد هذا التمهيد للغرض يبدأ الشاعر في المديح موجها الخطاب إلى رسول الهدى لقوله :

نبئت أن رسول الله أوعدني و العفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ و تفصيل

ويستمر مديح الشاعر وثناؤه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ومديح صحابته و النور الذي جاء به من عند الله إلى أخر القصيدة .





وإذا تأملنا الخصائص الفنية الرائعة فإن القول عن قوالبها يستدعي الوقوف على ما حوته هذه القوالب من معان شريفة سامية . فإن الإبداع لا يقف عند حد اللفظ السهل الكريم أو المعنى السامي الشريف وإنما لكل منهما أثره في إيجاده الشاعر وتلك مسالة عرضت لها مصادر النقد الأدبي القديم وبسطتها على نحو مما جاء في البيان و التبيين للجاحظ ، و الصناعتين لأبي هلال العسكري ، وسر الفصاحة لأبن سنان الخفاجي ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني والمثل الثائر لأبن الأثير . حتى انتهى عبد القاهر الجرجاني بهذه القضية إلى أن المزية كل المزية ليست في اللفظ وحدة ولا في المعنى وحدة وإنما في النظم .

ومن هنا فإن مزايا الإبداع في قصيدة (كعب بن زهير) لا تقف عند حد الإجادة في الألفاظ وخصائصها ، ولا تقف عند حد الإجادة في المعاني وخصائصها وإنما تبرز ملامح الجودة والإبداع في كل واحدة من وحدات هذه القصيدة العصماء لفظا لفظا و تركيبا تركيبا ومعنى و خيالا و عاطفة وصورة أدبية ، الأمر الذي حدا بعلماء النقد و الأدب عبر تاريخ الفكر الإسلامي إلى تناول هذه القصيدة بالشرح و النقد و التحليل .

ولعل أكبر خصوصية تطلعنا في أسلوب القصيدة هو إكثار كعب رضي الله عنه من الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى تقصي معاجم اللغة للإبانة عن





معانيها . وبخاصة ما ورد من كلمات في وصف الناقة وسيرها والطريق التي تسلكها فقد جاء في عدد من أبيات القصيدة ما يزيد على ثلاثين لفظة منها :

عذافرة . أرقال ، تبغيل ، الذفري ، لهق ، الحزان ، شمليل ، عبرانة ، برطيل، قنواء ، علكوم، زهاليل .

اطوم ، الأكم ، العساقيل ، مصطخما ، مثاكيل ، رعابيل ، خراذيل ، معازيل ، القفعاء ، التنابيل .

وهذا الإغراب في هذه الألفاظ لم يكن وليد صنعة وتكلف وإنما هو نسيج الشاعر المطبوع الذي يصور بيئته بالحس و اللمس و اللسان فالبيئة التي نشأ فيها كعب بن زهير بيئة جاهلية و هذه القصيدة جاءت أول دخوله في الإسلام حيث لم يزل حديث العهد بحياة الجاهليين .

وحين أسلم وأنتقل من حظيرة الجاهلية إلى حياة الإسلام لانت عريكته وسلس طبعه وانقادت له لغة القريض على نحو من هدي الإسلام الذي يهذب النفوس والطباع فيلين مع ذلك الفن الذي يزاوله الشاعر مع فخامة وشدة أسر فأسمع لقوله من شعره الإسلامي حين حسن إسلامه فرق ولان وسهل وانسابت له المعاني الإسلامية من ذلك قوله :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني ... سعى الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... و النفس واحدة والهم منتشر

والمرء ما عاش محدود له أمل ... لا ينتهي العيش حتى ينتهي الأثر



وقال ابن الأثير ومما يستحسن له قوله :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ومن دعا الناس إلى ذمة ذموه بالحق وبالباطل[1]

ولنعد إلى قصيدته " بانت سعاد "

في هذه الرائعة يتجلى الإبداع في وحدات كل بيت يحمل صورة أدبية وبخاصة حين دخل الشاعر كعب في الغرض الرئيسي منها وهو مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

و تبرز ملامح الإبداع في توفيق الشاعر إلى ما يحب أن يمدح به النبي الكريم، فإن أسمى ما يمدح به محمد صلى الله عليه وسلم أنه النور الفائض على العالمين :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الحق مسلول

ومن أرفع الصفات و أطيب الخلال أن يثني على محمد صلى الله عليه وسلم بالشجاع والعفو عند المقدرة .

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

و يتجلى الإبداع في وحدات القصيدة لفظا لفظاً وتركيبا تركيبا فلم يغرب ولم يتقعر ولم يتكلف وإنما جاءت القصيدة نظما متساوقا كل لفظة

---

(١) الشعر في موكب الدعوة د ٧ صادق لعبد الحليم محمد ص ١٧٧ ، ١١٨ .



تليق بالمعنى الذي يحمله البيت وتجسده الصورة فليس مفهوم الإبداع أن يأتي الشاعر بالمعاني المبتكرة دون أن يسبقه إليها من قبله من الشعراء . وإنما الإبداع هو أن يأتي الشاعر بالصورة الأدبية في إطار واضح جلي قوي اللفظ جميله عميق المعنى لا ألغاز فيه ولا غموض ومما يدل على إبداع الشاعر كعب بن زهير في رائعته " بانت سعاد " أن هذه القصيدة بلغت من الشهرة و الذيوع مبلغا كبيرا ، وأصبحت نموذجا يحتذى في المدح ، وتولاها بالشرح و التحليل كثير من الأدباء ، لأن فيها – كما يقول الدكتور / الحوفي – في كتابه "الإسلام في شعر شوقي " ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها في الجاهلية كحديث كعب رضي الله عنه عن القرآن الكريم ، وعن هداية النبي صلى الله عليه وسلم للناس و تأييده من ربه ، وبذلك فتح الباب لمن جاء بعده ليسير على نهجه ، وفي ذلك خدمة كبرى للإسلام[1]

وآية الإبداع والإجادة في قصيدة كعب بن زهير ذلك المعنى الإسلامي الرائع حيث فوض الأمور كلها إلى الله وحده وهذا محض الإيمان بالدين الجديد الذي آمن به ، ويتجلى هذا المعنى في قوله :

فقلت خلوا سبيلي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

ويتبع ذلك المعنى معاني إسلامية فتق أكمامها كعب لمن جاء بعده كقوله :

(١) المرجع السابق ص ١١٧ .





إن الرسول لنور يستضاء به و كقوله :

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ و تفصيل .

وكثيرا تلك النصوص من الشعر الإسلامي منذ عهد الدعوة المحمدية إلى اليوم عند شعراء الإسلام الذين لا يزالون ينافحون عن الإسلام ويشرحون معاني العقيدة و يبسطون محاسنها للناس فلنقف على شيء من هذه النصوص وقفات مع بعض شعراء الدعوة الإسلامية و بعض النماذج من شعرهم الإسلامي ، وذلك اللون الذي لم يزل يهتف به الوجود منذ فجر الدعوة الإسلامية على يد القائد و المعلم الأول رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه وإلى اليوم لم يزل يهتف هذا الصوت ، ولم تزل تهتف هذه الحناجر معيدة إلى الأذهان و القلوب صوت شاعر الإسلام شاعر النبي الكريم "حسان بن ثابت رضي الله عنه " :

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء

ينازعن الأعنة مصعدات ... تلطمهن با لخمر النساء

هذا الصوت لم يزل يدوي عبر كل ناحية من بلاد الإسلام كلما حزب أمر وجد آخر فروسية إسلامية ، وبطولات إسلامية ، وصبر وثبات في الملمات والشدائد والمواقف ، صبر وثبات عن يقين وإيمان برسالة السماء إلى الأرض صبر وثبات وبلاء عن يقين وإيمان بما للمسلم الصابر المحتسب الذي يرزق الشهادة في سبيل الله تعالى فلنتأمل ذلك المشهد الإيماني الذي عاشه .



شهيد الإسلام وشاعر الإسلام :خبيب بن عدى رضي الله عنه وقد سيق إلى الموت الذي خير بينه وبين الارتداد عن دين الإسلام فاختار الموت طمعا في نيل الشهادة ، ولم يقف هول الموقف دون الشاعر الإسلامي خبيب رضي الله عنه فقد صور ما حل به أبداع تصوير، وفى ذلك يقول رضي الله عنه وأرضاه:

لقد جمع الأحزب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع

وكلهم يبدى العداوة جاهلا ... علي لأني في وثاق بمضيع

الى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مصرعي

وذلك في شأن الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناي فى غير مجزع

وما بي حذار الموت أني لميت ... ولكن حذارى حجم نار ملفع

فلست بمبد للعدو تخشعا ... ولا جزعا أنى إلى الله مرجعي

ولست أبالي حين اقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ذلك الموقف الهائل ، ذلك الصوت المتأجج، تلك العاصفة المشبوبة الثائرة ، ذلك الوهج الذي أحرق قلوب الكفر باختيار الشاعر ، ما لم يخطر في أذهانهم ، ويح خبيب لقد اختار الموت على الكفر ، بل هنيئا لخبيب لقد اختار



ما اختاره الله له ، لقد آثر الآخرة على زخرف الدنيا وزينتها فصار إلى الله تعالى مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

هذا الصوت الشاعري ولم يزل يفوه به سلاح المجاهدين ، ويردده أصداء تكبيرهم ذوداً عن الإسلام وأهل الإسلام ، ومقدسات الإسلام.

يقول الشاعر الإسلامي المعاصر ((يوسف العظم)) :

هذه خفقة قلب في الحنايا ودماء قد تنزت من جراحي

خطها نسر جريح شامخ نهشته الطير من كل جناح

بأت في الأقصى يناجي جرحه يا الحطين تباهى بصلاح

فمتى يبسم للكون غدى ومتى يشرق للدنيا صباحي؟

هذه شاعرية الأديب المسلم ، وهذه عواطفه المضمخة بالعطاء الثر فهل كان الأدب الإسلامي بمعزل عن الحياة وواقع الحياة ،إليك صدى هذه الواقعية التي لم يزل جسد الأمة الإسلامية يئن ويشكو من نهشتها وثقلها :

كسرنا قوس حمزة عن جهالة

وحطمنا بلا وعي نباله

فمزقنا العدو ولا جهاد

وشردنا الطغاة ولا عدالة





وباتت أمة الإسلام حيري

وبات رعاتها في شر حالة

فلا الصديق يرعاها بحزم

ولا الفاروق يورثها فعاله

ولا عثمان يمنحها عطاء.....

ويرخص في سبيل الله ماله

ولا سيف صقيل من علي

يفيؤنا إلى ((عدن)) ظلاله

ولا زيد يقود الجمع فيها

لحرب أو يعد لها رجاله

ولا القعقاع يهتف بالسرايا

فتخشى ساحة الهيجا نزاله

ولا حطين يصنعها صلاح ......

طوي الجبناء في خور هلاله

سرى صوت المؤذن في حمانا





وقـــد فقـــت مآذنـــا بلالـــه....

واقـــصانا يدنـــسه يهـــود....

ويعبـــث في مرابعـــه حثالـــة

نـــشد رحالنـــا شـــرقا وغربـــا

وأولى أن نـــشد لـــه رحالـــه[1]

وإذا كانت هذه المواقف الإسلامية الخالدة إنما تعبر تعبيرا صادقا عن شعر الدعوة الإسلامية وجهاد المسلمين عبر تاريخهم الطويل ، إذا كان الأمر كذالك فإن من أجل الموضوعات التي ترسمها الشعراء الإسلاميون موضوع شعر الجهاد ، وهذا اللون من الشعر يكاد يكون أقل حظا من الذيوع إذا قيس بأغراض وموضوعات الشعر الأخرى ، وقد كان المنتظر لهذا الشعر أن يسبق سواه ، لأنه يمس شغاف القارئ المسلم ، ويعبر أصدق تعبير عن روح الحمية الصادقة والحماسة المتدفقة ، فقد جاء الإسلام بمعان جديدة غيرت مجرى التاريخ ووجه الحياة الإنسانية ، وأقامت للبشرية صرحا عاليا من المثل الرفيعة والقيم المثالية .

وقد تغلغلت هذه المعاني ، وهذه القيم ، في نفوس الصدر الأول من رجال الإسلام وأبطاله وأعلامه فهاموا بها وأشربوا تطبيقها في دنيا الواقع دفاعا عن

---

(١) في رحاب الأقصى ديوان يوسف العظم ص ٨ و ٢٠٧ وما بعدها المكتب الإسلامي .



العقيدة وافتداء لها بكل غال ونفيس ، ولذلك نطق شعراء الإسلام وخطباؤه في تلك الحقبة من الزمن وفيما وليها من عهود الإسلام ، نطقوا بما يعبر عن هذه المعاني مستمدين عطاءهم الفكري من فيض القرآن الكريم والسنة النبوية الخالدة ، فصوروا معارك الفتوحات الإسلامية ، ووزنوا الفضائل الإنسانية بميزان الإسلام داعين إلى التضحية والفداء وسمو الروح والصبر والثبات أمام الأعداء .

وشعر الجهاد في الأدب الإسلامي ممتد الرواق من عهد النبوة المحمدية وعهود الخلفاء الراشدين وسلف الأمة من اقتدى بهدي رسول الله ﷺ ، وطبق القرآن الكريم والسنة النبوية منهجا وشريعة ونظام حياة .

إن على مؤرخي الأدب في العصر الحديث وعلى نقاد الشعر أن يقفوا وقفة طويلة متأملة في ذلك العطاء الذي حفظته لنا كتب التاريخ والسير ودواوين الشعراء ، على هؤلاء جميعا أن يفسحوا في تاريخهم التحليلي فيوجدوا مجالا لشعر الدعوة الإسلامية تحليلا تفسيرا ونقدا هادفا بناء ، وأن يتجاوزوا دواوين الشعراء إلى أمهات كتب التاريخ فلسوف يجدون كثيرا مما قيل في شعر الفتوح الإسلامية ، وفى غزوات المصطفى ﷺ وفي غزوات خلفائه ، وفي معارك الحروب الصليبية وفى الحرب المعاصرة بين المسلمين وأعداء الإسلام ، وسوف يجدون في هذا اللون من الشعر –أعنى شعر الجهاد– سوف يجدون ، ما يبرز قيم الإسلام ، ويذكي في أرواح الشبيبة المؤمنة معاني البطولة والفداء للإسلام





ومجد الإسلام وللمسلمين جميعا في كل أرض ، ولقد تخيرت بعض النماذج من شعر الجهاد في العصر الحديث ناهيك بما تزخر به كتب الأدب من نصوص ذات مدد فياض من هذا الشعر ، ولنستمتع الآن إلى قول شاعر الدعوة الإسلامية المعاصرة((أحمد محرم)) من قصيدته ((إيطاليا في طرابلس)) :

كيف القرار ونار الحرب تستعر والهول مضطرم البركان منفجر؟

ويح العيون أغشاها النعاس وقد شف الهلال عليها الحزن والسهر؟

يبيت يخفق من خوف ومن حذر حران يرقب ما يأتي به القدر

ربع الحطيم فأمسى وهو منتفيض وأقفلت يشرب الأحزان والذكر

ويح الحجيج إذا حانت منسكهم ماذا يرى طائف منهم ومعتمر

أيطرب البيت أم تبكي جوانبه حزنا ويعول فيه الركن والحجر؟

أين ابن عم رسول الله يطفئها حربا على كبدي من نارها شرر

أين ((اللواء)) وخليل الله يبعثها.. عمرو ويصرخ في آثارها عمر؟

اين المعامع ترفض النفوس بها... هلكى ويستن فيها النصر والظفر

أين النفوس ترامى غير هائبة أين العزائم تمضي ما بها خور؟

اليك- ربي- ولا من عليك بها فمالنا دون ما تبغي بنا وطر

أين التواريخ تستقصي عجائبها وأين ما وعت الآثار والسير؟





حرب بلا سبب ماجت فيالقها ... فالبر يرجف والدماء تستعر

يا موقد الحرب (بغيا) في (طرابلس) ... بأي عذر إلى التاريخ تعتذر؟

أذاك والعصر عصر النور عندكم ... فما يكون إذا ما اسودت العصر؟

أين الألى زعموا الإنصاف شرعتهم ... وقام قائمهم بالعدل يفتخر؟

يا أكثر الناس إنصافا ومعدلة ... العدل يصعق والأنصال يحتضر

نعم الشريعة ما سنت حضارتكم ... الحق يخذل والعدوان ينتصر

لسنا وإن عزبت أحلامنا وخوت ... منا الرؤوس بقول الزور ننبهر

متى أرى الجيش والأسطول قد شفيا ... داء الذين زجرناهم فما ازدجروا

داء الحضارة في أسمى مراتبها ... فما على الكلب أن يعتاده السعر[1]

إن هذه النغمات الإسلامية للشاعر احمد محرم تغري بنا إلى المضي مع الجهاد الإسلامي المظفر عبر التاريخ الحافل الطويل؟

فماذا عن دور الأدب شعرا ونثرا في حياة حقب زمنية في كتب التاريخ والسير الإسلامية بعصر الحروب الصليبية؟ لقد لمَّ شتات هذا الموضوع كثير من الأدباء والنقاد والمؤرخين على اختلاف وتباين في مادة العطاء والعرض والتحليل، فمن كاتب عني بحصر النصوص وجمعها ومن كاتب استفرغ جهده في النظر إلى مادة هذا الأدب محللا ومعللا ومن مؤرخ اهتم بالتراجم

---

(١) شعر الجهاد في العصر الحديث ص ٥٠ وما بعدها جمع د /عبد القدوس أبو صالح و الدكتور محمد رجب البيومي.



الذاتية للقادة والحكام والولاة والعلماء والأدباء ومن مؤرخ جعل همه في التأريخ للوقائع والحوادث الإسلامية التي خاضها جنود الإسلام مع الجيوش الصليبية في عدد من الغزوات والوقائع .

وفى الآونة الأخيرة ظهر على صعيد الحياة الفكرية والأدبية المعاصرة عدد من الدراسات التي تناولت الأدب ودوره في تلك الحروب من ذلك ما سطره يراع الأديب الإسلامي الدكتور/عمر عبد الرحمن الساريسى في كتابه ((نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية)) وقد تخيرت عددا من نصوص الشعر التي صورت آثار الحروب الصليبية وآثار الجهاد الإسلامي ، مما كان سببا في إذكاء الروح الحماسية عند المسلمين ، وسببا من أسباب نصرهم في عدد من الغزوات ، ويقول الكاتب الدكتور عمر الساريسى :

غير خاف عن احد أن أدب الدعوة إلى الله تعالى على عدم تحققه في أذهان كثير من الدارسين ، متميز على غيره من ألوان الفكر المختلفة المنازع والاتجاهات التي تتوزع أدبنا العربي .

ففي كل عصر من عصور الأدب نجد أمثلة بينة الوضوح ، فإننا نجد الأدب الجاد الذي يستشعر مسؤوليته التاريخية في حمل هموم الأمة وتراثها ، ونجد الأدب الذي لا يهمه إلا أن يلبي نداءات فردية حرة من كل قيد .

ودور الأدب في الحروب الصليبية دور له عطاؤه الجم الثابت ثبوت المجاهدين في معارك تلك الحروب .





ولا يسعر الحروب ويشب أوارها مثل الشعر، من ذلك في استنهاض الهمم، ويقول القاضي الهروي، وقيل الأبيوردي:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

إن الشاعر في هذا المطلع، يصرخ ببكاء الناس بكاء أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره.

وأنهم بكوا حتى لم يبقى مجال للذم ولكن الشاعر هنا لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته لن يغنى في معركة يسعر نارها ضرب مسدد وسيف قاطع .

فأيها بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم ؟

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم ؟

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن الجهاد مع إخوانهم المسلمين فيبدأه المقطوعة بتوجيه نداء حار :أيها الإسلام أن أصحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو سيجعل أعزتكم أذلة ، فكيف تنامون ملء عيونكم ، وتعيشون عيشا ناعما



مرفها ، وفى أخوانكم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوسهم فلا يجدون للراحة معبرا ولا للنوم سبيلا فهم أبدا على صهوات خيول هم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا يجدون من يواري جثثهم أما أنتم ففي ثياب النعمة ترفلون .

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالى داميات اللهاذم

وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة ... تظل لا الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم

سللن بأيدى الشركين قواضبا ... ستغمد منهم في الطلا والجماجم

يكاد أن المستجن بطيبه... ... ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم

قال الدكتور الساريسي :

في هذه الأبيات يصور الشاعر المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة ، فقد أبيحت فيها دماء كثير من المسلمين ، ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن ، ولم يجدن ما يدفعن به عن إعراضهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياء وخوفا .





وقد اشتدت هذه الحروب ، واستحر فيها القتل حتى بدت أسنة السيوف حمراء لاهية ، وحتى أن الصبيان ربما ظهر في شعرهم الشيب لما في هذه الحروب من هول الطعن والجلاد .

وفى أبيات يصور الشاعر تخاذل بعض المحاربين قائلا :

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... ومـاحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبوا النار خوفا من الردى ... ولا يحبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم

فليتهم إذا لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجراء ذحمى الوغى ... فهلا أتون رغبة في الغنائم

قال الدكتور السارسي :

يرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألما يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إسفافه ، وطمس معالمه .

وفى نهاية القصيدة يبلغ الألم بالشاعر مبلغاً أشد فعلا وتأثيرا فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم ، وما سينتج عنه من إذلال وصغار لأجيالهم القادمة إن لم يتداركوا أمرهم بفعل الحسام .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للردى ... فلا عطست إلا بأجدع راغم





دعوناكم والحرب تدعو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا نخوة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن انتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالحرائم

قال الساريسي :يتسرب غضب الموقف في عروق الشعراء فيأتون بأجزل العبارات مضمخة بلغة العواطف المنفعلة الصادقة التي وقودها الصدق في القول[1] .

ويستمر عطاء الشعر الغسلامي عبر تاريخ الإسلام فيطالعنا شعر الملاحم فماذا عن ذالك الفن الشعري المطول؟ ما نصيب الأدب أو الشعر الإسلامي منه ؟ وهل شعر الملاحم مقصور على العرب الجاهليين وعلى من قبلهم ومن بعدهم من الأمم الأخرى ؟ الإجابة على هذا السؤال ما قاله أحد النقاد المعاصرين من أن مظاهر الشعر باتفاق النقاد منحصرة في ثلاثة فنون رئيسية: هي الشعر الغنائي ، والشعر التمثيلي ، والشعر الملحمي ، ذلك اللون الذي منه شعر .

قصص بطولي متشعب طويل السرد فيه العظمة والخوارق والأهداف الكبيرة والآمال العريضة ، والنزعة الإنسانية والاتجاه القومي ، والمجال الرحب هدفه الجماعات لا الأفراد ، وتمجيد الأمة لا نقد المجتمع وبهذه الأوصاف يشذ عن اللونين : الغنائي والمسرحي وتعني الملحمة في اللغة : المعركة العظيمة ،

---

(١) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية الدكتور عمر الساريسي ص ٢٤ وما بعدها .





والملحمة على حد قول ابن خلدون تعني تاريخ الدول ، أما في اليونانية فتعني الملحمة القصة أو الشعر القصصي الذي يختص بوصف القتال . ولما كانت الملحمة قصة طويلة ذات حادثة واحدة أو عدد من الحوادث ارتبطت وقائعها بحياة جماعة توحدت منها الآمال ، وتشابكت المصالح كان لابد من وحدة موضوعية يقوم عليها الفن القصصي ، وتأنق الأحداث معها إلى الحل المنطقي وتتباين مراحل العمل الواحد في تعدد الأناشيد لبلوغ الهدف الإنساني المطلوب. وإذا اختلفت الملحمة عن القصة العادية من حيث أغراضها وأسلوبها فهي لا تقف عن السرد وخلق المتعة الأدبية بل تتخذ من التمثيل ، وما يواكبها من وصف وتشبيه ومن الحوار المسرحي الخطابي سبيلا إلى السيطرة على العقول... وللملحمة موضوع بطولي شعبي . هو صراع بين حضارتين ، صراع من أجل البناء البشرى والوجود الإنساني ، ولذا نجد شعر الملاحم يحوم حول كرامة أمة ، وحماية تراث ، وإثبات حق وتدعيم مصير وحفظ كيان ، وصيانة عقيدة ((وتلك السمات لا تصدق إلا على الشعر الملحمي الإسلامي))

أما ما كان من الملاحم عن التاريخ الإنساني المجرد بما فيه من قيم صالحة وطالحة فهو شعر ملحمي يقوم على خلق الصراع الذي يمتزج فيه الواقع بالأسطورة وتعدد العقائد الممتزجة بالخرافات ، ونجد هذا اللون أكثر بروزا واعم ظهورا عند الأمم الوثنية لتحررها وإيغالها في مجال الأساطير الذي يمليه عليها تعدد ألهتها وتباين عقائدها ولنترك الحديث عن مجال البحث في



ملاحم هذه الأمة لنتبين هل يوجد في الشعر العربي لدى الجاهليين شعر من هذا اللون ؟ إن العرب في جاهليتهم عرفوا الشعر الملحمي ولكنهم لم يعرفوا الملحمة كبناء فني على الرغم من وجود الموضوعات ووفرة العبقريات ، ووجود الأدب اليوناني بينهم ومعرفتهم له ، وخير دليل على معرفتهم له ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين من تحليل وتعليل الفوارق بين شعر الإغريق وشعر العرب وعلى الرغم من وقوفهم على شهنامة الفرس وعلى شيء من أدب الهند فإنهم لم يستسيغوا هذا النوع من الأدب أو من الشعر وهم يقلدوه بل ظلوا في معزل عنه وهذا ما حدا بابن الأسير أحد النقاد القدماء إلى الحكم بالتقصير في النفس الشعري عند العرب على الرغم من أنهم أبناء بطولة وفروسية وفيض شعري ، ونكتفي بالحديث عن العلل والأسباب التي من أجلها تأخر الشعر العربي عند الجاهليين عن طول الشعر الملحمي غير مغفلين ما له من قصائد طوال عرفت بالمسمطات والمطولات والمعلقات والحوليات والمجمهرات لكنها على أي حال لا تصل إلى حد الملاحم المعروفة عند غيرها من الأمم وحين جاء الإسلام ذالك الحدث التاريخي الهام الذي هو وحي السماء إلى الأرض حين جاء ظهر على صعيده أمة ليس لها مثيل في تاريخ الأمم لأنها الأمة الوسط في كل شيء وكان لزاما أن يغير الإنسان في مسار فكرها وأدبها فيخرجه من طلاسم الوثنية والجاهلية إلى صحة المبدأ وسلامة المصير إخراجه لها من ظلام الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان فحل مكان البطولات



والمعلقات والمسمطات والمجمهرات والحوليات قصائد إسلامية عصماء في الذب عن العقيدة والمنافحة عن عرض رسول الله ﷺ ، وحسبنا في ذلك بقصائد كعب بن مالك وكعب بن زهير وشعر حسان بن ثابت ذلك الشاعر الذي قصر شعره على الإسلام ورسول الإسلام ، ومن شعره قصيدته التي يعدها دارسوا الأدب من قبيل الشعر الملحمي الذي صنفه النقاد في عداد المذهبات ، والقصيدة من شعرة في الجاهلية غير أنها تحمل كثير من أبياتها قيم أخلاقية طبعها بطابع الإسلام من هذه القصيدة المطولة قول حسان رضي الله عنه :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ... ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودي

فلا الدهر ينسيني الحبا وحفيظتي ... ولا وقعات الدهر يفللن مبردي

وأكثر أهلى من عيال سواهم ... وأطوى على الماء القراح المبرد

❖❖❖❖

وانى لمزج للمطى على الوجى ... وإنى لتارك لما لم أعود

وإنى لقوال لدى البيت مرحبا ... واهلا إذا ما ريع من كل مرصد

وإنى ليدعونى الندى فأجيبه ... واضرب بيض العارض المتوقد

ويفاخر حسان رضي الله عنه بشجاعة قومه وبطولتهم فيخاطب الشاعر قيسا بن الخطيم قائلا :

فلا تعجلن يا قيس وارجع فإنما ... قصاراك ان تلقى بكل مهند



حسام وأرماح بأيدي أعزة ... متى تلقهم بابن الخطيم تبلد

أسود لدى الأشبال تحمى عرينها ... مداعيس بالخطى في كل مشهد

إلى قوله :

فغن لدى الأبيات حورا قواعبا ... وحجر مآقيك الحسان بأثمد

ومن المطولات ذات المعاني الإسلامية قصيدة النابغة الجعدي تلك التي صنفها دارسو الأدب في عداد الملاحم المسماة ((بالمشوبات)) ومنها :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما احدث الدهر أوذرا

ولا تجزعا إن الحياة قصيرة ... فخفا لروعات الحوادث أوقرا

وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها .. ... قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا

تهيج لذي البخل الندامة بعد أن ... تغير شيء بعد ما كان قدرا

أتيت رسول الله إذ قام بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

خليلي قد لاقيت مالم تلاقيا ... وسيرت فى الأحياء مالم تسيرا

ومازلت أسعى بين باب ودارة ... بنجران حتى خفت أن تنصرا





إلى أن يقول النابغة مفتخرا بقومه :

ومهما يقل فينا العداة فإنهم	يقولون معروفا وأخر منكرا
فما وجدت من فرقة عربية	كميلا دنا منا اعز وانصرا
وأسرع منا أن أردنا انصرافه	وأكثر منا دارعين وحسرا
وأجدر أن لا يتركوا عانيا لهم	فيغبر حولا في الحديد مكفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا	من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا
ونحن أناس لا نعود خيلنا	إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وما كان معروفا لنا أن نردها	صحاحا ولا مستنكرا أن تعقرا
بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا	وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ويروى هذا البيت :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا	وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وأثبتت مصادر الأدب أن النابغة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده هذه القصيدة إلى أن وصل إلى قوله : وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى فقال النابغة : إلى الجنة يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم نعم إن شاء الله لا يفضض الله





فاك . فكان النابغة من أحسن الناس ثغرا، وكان إذا سقطت له سن نبتت أخري، ومن المعاني السامية في قصيدة النابغة هذه قوله:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ولم يزل نغم الشعر الإسلامي الملحمي ينساب في آفاق رحبة، وتدوي أصداؤه منذ فجر الدعوة المحمدية إلى اليوم وقد سمعنا ووقفنا على شيء من شعر الملاحم الإسلامية عند شعراء الإسلام من الرعيل الأول أولئك الذين جاهدوا في الله بأرواحهم وأموالهم ومواهبهم الأدبية فكانوا خير مثال يحتذى في الدعوة والتضحية والفدى للذب عن عقيدة الإسلام ورسول الإسلام وقيم الإسلام وأخلاقياته، وأحكامه العادلة ومثله الرشيدة. ولم ينضب هذا النبع الفياض ولم يتوقف هذا المسار الإسلامي من خلال العطاء الأدبي الثر عند شعراء الإسلام من المعاصرين فهذه ملحمة النصر للشاعر والمفكر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري ، وهذه ملحمة أمجاد الرياض للشاعر محمد العيد الخطراوي تلك الملحمة التي سجل فيها الشاعر بطولات مؤسس الجزيرة العربية الملك عبد العزيز رحمة الله ، وهذه ملحمة أحسن القصص للشاعر خالد الفرج وملحمة نور الإسلام لمحمد الدبل وغير ذلك كثير مما ذخرت به المكتبة الأدبية الإسلامية المعاصرة فلنقف على شيء من مقطوعات متخيرة من هذه الملاحم الإسلامية التي لم يذل شعرائها يحاذرون ويجاهدون بأقلامهم



جنود الباطل موضحين للمجتمع الإسلامي فضائل الإسلام وعدالته وصلاحه لكل زمان ومكان.

يقول الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في ملحمته من قصيدة بعنوان (الهجرة درس الدهر):

يا رسول الله والهجرة خلد من مآثر

هي درس الدهر في الإيمان والعزم المثابر

هي مجد الحكمة القعساء في قهر العواثر

هي مكر الله بالبغي وما كان الله ماكر

يا رسول الله نحن اليوم في شدق المخاطر

فعلى دربك نمضي فلتنر منا البصائر

سائلين الله عونا حينما نمضي نهاجر

هجرة لله يا أمة خير المرسلين

النبي العربي الصادق الثبت الأمين

الأبي المثل العلوي في دنيا ودين

سيد الخلق لسان الحق عدل الشاهدين





من بنى الإنسان بالإيمان بالعزم المكين

أمة الإسلام ما في الأرض من مستخلفين[1]

غيرنا وأضلنا حتام نبقى نائمين

وهذه مقطوعة أخرى من قصيدة (الجنة تحت ظلال السيوف) يقول الأميري:

أمة الإسلام هذى سنة لا كالسنين

نحن في مفترق بين دروب الحائرين

قد نراهم في شماس وحماس خائضين

مكر جبارين والليث سجين في العرين

وطريق النصر ليست ظللا من ياسمين

جنة الرضوان في ظل سيوف الفاتحين

جاهدي والتمسي في السعي نهج الفائزين

وثقي بالله ، وعد الله حتم لا يمين

نصره آت إن طالت طريق الكادحين

يا إله الكون قلد أمره للمسلمين

---

(١) ملحمة النصر / لعمر بهاء الدين الأميري ص ٤٠ وما بعدها .





كن لنا نبعث عهود الخلفاء الراشدين

وأقمنا وأدمنا رحمة للعالمين[1]

ونجتزئ من ملحمة (أمجاد الرياض) تلك المقطوعات التالية تحت عنوان (خلق الصحراء) يقول الشاعر الخطراوي :

أي سحر على ثغور الأقاحي ... صنعته الصحراء عبر البطاح

وغصون العرار داعبها الطل ... فمالت على ذراع الصباح

تلثم الشيح والخزامي وتلقى ... خصر قيصومة بغير وشاح

والزهور الحسان في الرمل تزهو ... كاللآلى على صدور الملاح

إن للبيد فتنة لا تجاري ... وجمالا يعم كل النواحي

وحنانا يفيض طهرا وحلما ... وصفاء ينبض بلارتياح

وسماحا ونجدة واقتدارا ... وإباء وحنكة في الكفاح

ومن قصائد ملحمة الخطراوي تلك القصيدة العصماء في رثاء جلالة الملك فيصل رحمه الله وعنوان القصيدة (الدموع الخرساء)

ما لهذا الوجوه لفعها ... الحزن فباتت مشدوهة السماء

---

(١) ملحمة النصر لعمر بهاء الدين الأميري ص٤٥ وما بعدها / دار القرآن الكريم





تتراءى الآلام فيها سطورا ... داميات من الأسى والبكاء

لونتها الأشجان حتى تبدت ... مثل لون الأترنجة الصفراء

فيصل مات فاندبي يا بلادي ... واغسلي بالدموع جرح الإباء

فاندبي دوحة العروبة شهما ... بذل الروح في دروب الغلاء

من لأرض الجولان في جوها ... الدامي وصد الأعداء في سيناء؟

من لصوت الإسلام يشكو بنوه ... سطوة الكفر في ليالي الشقاء؟

من لغوث الأيتام فى قبضة ... الفقر تزج الأدواء بالأدواء؟

من لدين القرآن يحمي حماه ... في جميع الأرجاء والأنحاء؟

آه سهم الهموم رفقا بقلبي ... ليس لي سلوة ولا من عزاء

وعن كفاح الملك عبد العزيز وبطولاته تقول ملحمة أمجاد الرياض:

شعلة الحق في ضمير الرجال ... تتأبى على القنا والزوال

وتمر الأيام وهي ضرام ... يشعل النور في دروب المعالي

وعلى نورك الوضيء قديما و حديثا يقوم كل نضال

هكذا الحق في فؤادك يعطى مثل المكرمات للأجيال

ونزلت الشقيب ترسم فيه خطة النصر صحبة الأبطال





ومنحت الرياض نظرة صب ... عاشق غاب في وثير الخيال

فرأيت الأسوار تشمخ سكري ... بحيما الأهوال والآجال

والنخيل الكثيف حول حماها ... عارقا في سكينة وجلال

والأصيل الجميل يسكب ذوبا ... من ضياء مضمخ بالظلال

والأماني حوما كعذارى ... يتهادين في الذرا والتلال

ينتظرن العريس يقبل يوما ... من خلال الصحراء فوق الرمال

يمتطى صهوة الجواد عليه ... حلبة الفضل والحجا والكمال(١)

إلى أخر ما سطره يراع الشاعر الخطراوي في ملحمته (أمجاد الرياض)

وهذه مقاطع من ملحمة (نور الإسلام) يستهل الشاعر هذه الملحمة بأبيات عن عظيم قدرة الله في هذا الكون الرحب وما يجري فيه من خلق كثير وأناس فيقول:

(١) ملحمة أمجاد الرياض د / محمد العيد الخطراوي ص٥٥ وما بعدها .



من نسق الكون ؟ من جلي بدائعه

وأرسل الشمس تبرا حين تقراه

من أترع البحر من أجرى مواخره

وأرسل الحوت حيا حين أجراه

وعلم الآدميين المضي إلى عيش الحياه

بسراه وضراه

وأنطلق الطفل بابا في محاولة

وقبل ذلك من في الغيب سراه

واخلف الليل في أعقاب حكمته

بساطع من نهار حين جلاه

أذلك الكون في أعقاب صدفته ؟

بل ذلك الله بالنعما تولاه

فمن يكون إله العالمين سوى

رب الوجود وحقا ذلك الله



وينطلق الشاعر في هذه الملحمة الإسلامية ليرسم صورا وارفة الظلال عن مجد الإسلام وأركان الإسلام وتعاليمه وأحكامه ورسوله ومعجزته وعن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزاتهم وعن المجتمع الإسلامي في ظل الشريعة الإسلامية فمع هذه المقطوعة من الملحمة بعنوان نظام الكون:

تطلع الشمس كل صبح جديد ... تتهادى في سيرها بانشراح

تمنح الكون ما أقامت حياة ... ثم تدنو في افقها للرواح..

فيعم الوجود ليل رهيب ... ساكن الخطو زعزعي الرياح

ثم يتلوه ضوء فجر جديد ... مد عطفيه فالق الإصباح

جاعل الليل للأناسي سكونا ... والنهار المضئ عيش امتياح

يشهد الكون كل يوم حياة ... من دؤوب وكادح سواح

والنظام البديع ما غيرته ... فلسفات الأحداث عبر النواحي

هل تخطى الربيع شهر جمادى ... أو آتى الصوم شهر عيد الأضاحي؟

أو تبدى نهارنا سرمديا ... أو جثى الليل ما له من براح؟

كل شيء بحكمة ونظام ... يتوالى في غدوة ورواح؟[1]

(١) ملحمة نور الإسلام للمؤلف ص٧ و ٢٠ و ٢١ .



وهذا غيض من فيض مما سكبته أقلام الشعراء الإسلاميين عن شعر الملاحم قديما وحديثا.

ولئن بلغ شعر الملام قديما وحديثا مبلغ الجودة فهناك قصائد إسلامية ذات نفس طويل ولا تقل جوده وإبداع عن القصائد الملحمية. ونتخير من هذا اللون قصيدة الشاعر(البوصيري) مع قصائد أخرى لشعراء آخرين.

تشتمل قصيدة البوصيري على ما يقرب من ستين ومائة بيت على حسب ما حرره محقق الديوان محمد سيد كيلاني.

ومطلع هذه القصيدة غزل عذري عفيف نحا فيه البوصيري منحى الشعر الإسلامي حيث الوصف المجرد البعيد عن تسقط العورات وأوصاف المحاسن، والعهر والفحش، غزل يتسم بالإبداع والصور الفنية المعبرة عن تباريح الشوق والهيام من غير إثارة لما لايحسن من تهالك وصبابة تؤدى إلى ما لا يليق بالشاعر المسلم في هذا الغرض من أغراض الشعر، ويبدأ مطلع القصيدة بقوله:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم ؟

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من أضم؟

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟

أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين منسجم منه ومضطرم





لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل	ولا أرقت لذكر البان العلم
فكيف ينكسر حبا بعد ما شهدت	به عليك عدول الدمع والسقم
وأنبت الوجد خطى عبرة وضنى	مثل البهار على خديك والعنم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقني	والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمي في الهوى العذري معذرة	مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وبعد هذا المطلع الرقيق الشفاف يخلص البوصيري إلى النصح واعظا مذكرا بسوءات النفس الإنسانية ما لم يكبح جماحها صاحبها ، وانه إن أطاعها في تلبية ما تشتهي أوردته المهالك وأنه أن جاهدها بالتقوى والحذر سلم وسلم منه غيره.

إني اتهمت نصيح الشيب في عذل	والشيب ابعد في نصح من التهم
فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت	من جهلها بنذير الشيب والهرم
من لي برد جماح من غوايتها	كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوى شهوه النهم
والنفس كالطفل إن تهملة شب على	حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه	إن الهوى ما تولى يصم أو يصم





كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم

وبعد هذه المعاني الإسلامية السامية ذات المثل العليا والقيم الرفيعة ينتهي البوصيري إلى مدح رسول الهدى ﷺ قائلا :

محمد سيد الكونين والثقليـ ... ـن والفريقين من عرب ومن عجم

نبينا الآمر الناهي فلا أحد ... أبر في قول (لا) منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خلق وفي خلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم

فهو الذي تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه – حبيبا – بارئ النسم

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم



كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم

هذه الأوصاف الحسية والمعنوية مما يخلعه البوصيري على شخص رسول الإسلام أوصاف ما تميز بها احد من البشر سواه، ولم يضفها البوصيري إلى شخص محمدﷺ، ولم يأتي بجديد إزاء هذه الأوصاف وذكرها وسردها فإنه معلوم من سيرة محمد النبي الرسول انه صاحب هذه الخصال الحميدة التي شهد بها القرآن الكريم وشهد بها أعداء رسول الله وأحباؤه على حد سواء وهذا ما صدق نبوته وصحة رسالته ﷺ وإنه مزود بالمعارف والفضائل والخصال الحميدة من الإله الواحد الذي اصطفاه من بين الأميين رسولا.

ويستطرد البوصيري في تعداد خصال النبي الكريم من غير إطراء ولا كذب وأنى له أن يكذب على رسول الله ﷺ فيقول عنه ما ليس فيه، ومن هنا ينبغي تنبيه القارئ على شيئين هامين: أحداهما يتعلق بحياة البوصيري العقدية وثانيهما يتعلق بشعره وبخاصة قصيدته (البردة).

أما الشيء الأول: ما اكتنف حياة البوصيري من أخذه وملازمته وتأثره بمنهج الصوفية، ذلك المذهب الملزم الذي نحا بكثير من العلماء والزهاد والعباد إلى إتباع ما لم يؤمروا به مبالغته في الجانب التعبدي من العقيدة.

وأما الشيء الثاني: فهو أن هذا التصوف انعكس على شعر البوصيري فورد في عدد من قصائده وبخاصة قصيدته (البردة) أبيات متناثرة هنا وهناك كلها مبالغة وإيغال وغلو،لا يليق بمقام رسول الله ﷺ ولا يليق بمسلم يتأسى



برسول الله خلقا وإتباعا، لا يليق بشاعر مسلم يقول ليصحح ويعرب ويمحو ما هو فاسد مشين .

تقول أبيات البردة في إكمال سيرها البياني الرائع الجميل : مما لا مبالغة فيه ولا إيغال:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وانه خير خلق الله كلهم

فإنه شمس فضل هما كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

أكرم بخلق نبي زانة خلق ... بالحسن منتظم بالبشر متسم

كالزهر في طرف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدهر في همم

كأنه وهو فرد – في جلالته ... في عسكر حين تلقاه وفى حشم

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتداء منه ومختتم

ومن هذه الرائعة الإسلامية قول البوصيري

دعني ووصفي آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلا على علم

فالدر يزداد حسنا و هو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم

آيات حق من الرحمن معجزة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم

محكمات فما تبقين من شبه ... لذي شقاق وما تبغين من حكم





لها معاني كموج البحر في مدد وفوق جوهرة في الحسن والقيم[1]

وللبوصيري قصيدة همزيه في مدح رسول الله ﷺ منها:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدام الأسماء

لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء

وتولت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء

وتداعى إيوان كسرى ولولا قدره الله ما تداعى البناء

مولد كان منه في طالع الكفر وبال عليهم ووباء......

وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضوئها الأرجاء

وتراءت قصور قيصر بالروم يراها من داره البطحاء

وبعد أن يتوغل الشاعر البوصيري في عرض حياة نبي الله محمد ﷺ فيرسم للأدب والأدباء معاني حية شريفة سامية مما خلده التاريخ لنبي الله وشهد به صديقه وعدوه يلتفت التفاتة الواثق المطمئن الصادق فيما يقول في طائفة من الأبيات ضمن هذه المذهبة الرائعة يحدثنا عن صفات نبي الله محمد ﷺ خلقه وخلقا فيقول..

---

(١) ديوان البوصيري ،ص٢٣٨ وما بعدها .



و املأ السمع من محاسن يمليـ ... ـها عليك الإنشاد والإنشاء

كل وصف له ابتدأت به استو ... عب أخبار الفضل منه ابتداء

سيد ضحكه التبسم والمشـ ... ـى الهوينا ونومه الإغفاء

ما سوى خلقه النسيم ولا غير ... محياه الروضة الغناء

رحمة كله وحزن وعزم ... ووقار وعصمة وحياء

لا تحل البأساء منه عرا الـ ... ـصبر ولا تستخفه السراء

كرمت نفسه فما يخطر ... والسوء على قلبه ولا الفحشاء

عظمت نعمة الإله عليه ... فاستقلت لذكره العظماء

جهلت قومه عليه فأغضى ... وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلما ... فهو بحر لم تعيه الأعباء

شمس فضل تحقق الظن فيه ... انه الشمس رفعة والضياء

معجز القول والفعال كريم ... الخلق والخلق مقسط معطاء

لا تقس بالنبي في الفضل خلقا ... فهو البحر والأنام أضاء[1]

---

(١) المصدر السابق للبوصيري ص٥٠ وما بعدها .





وننتقل مع الشاعر البوصيري في قصائده الإسلامية لنطل على شيء من أبياته الرائعة في قصيدته الرائعة المادحة التي يعزى فيها أحد ولاة المسلمين في عهده قصيدة رائعة تصل أبياتها إلى خمسين ومائه بيت – فهي ملحمة إسلامية حوت كثيرا من المعاني الإسلامية الدفاقة، فلم يقتصر الشاعر البوصيري فيها على تعداد خصال الفضائل لمدوحة ، بل جمع فيها وأوعى من فضائل الإسلام وخصائصه ومثله وأحكامه من هذه القصيدة قول البوصيري.

أخجلت بالحلم سادات الزمان فلم ... يعفوا كعفوك عن ذنب – إذا قدروا

ولم تزل تستر العيب الذي كشفوا ... ولم تزل تجبر العظم الذي كسروا

لو إن ألسنه الأيام ناطقه ... أثنت على فضلك الآصال والبكر

وبعد هذه الأبيات يلتفت البوصيري إلى ذلك الوالي في عاطفة صادقة مشبوبة لولا بعض المبالغات في المعاني.

بنانه من نداه الغيث منسكب ... وسيفه من سطاء النار تستعر

نهته عن لذة الدنيا نزاهته ... وشره النوم من أجفانه السهر

خاف الإله فخافته رعيته ... والمرء يجزى بما يأتي وما يذر

فطهر الأرض من أهل الفساد فلا ... عين لهم بقيت فيها ولا أثر



ودبـر الملـك تـدبيرا يقـصر عـن ... إدراك أيـسره الإفهـام والفكـر

وحـين طـارت إلى الأعـداء سمعتـه ... مـات الفـرنج بـداء الخـوف والـتتر

وكـل أرض ذكـرنـاه بهـا غنيـت ... عـن أن يجـرد فيهـا الـصارم الـذكر

كـأن صـارمه في كـل معـترك ... نـذير مـوت خلـت مـن قبلـه النـذر

يا حسن ما يجمع الدنيا وينفقها ... كالبحر يحسن منه الورد والصدر

لكـل شـرط جـزاء مـن مكارمـه ... وكـل مبتـدأ منهـا لـه خـبر

فما نظمـت مـديحا فيـه مبتكـرا ... إلا أتـاني جـود منـه مبتكـر

مشى صـراطا سـويا مـن ديانتـه ... فمـا يـزال بـأمره الله يـأتمر...

مـشمر في مراعـى الله مجتهـد ... وبالعفـاف وتقـوى الله مـؤتزر

زان الليـالي والأيـام إذا بقيـت ... كأنهـا غـرر في أثرهـا طـرر

وقفـت بـين يديـه مـن مهابتـه ... وقالـت النـاس : ميـت مـسه كـبر

فاقبل- بفضلك مدحا قد آتاك به ... شـيخ ضـعيف إلى تقـصيره قـصر

فما على القوس من عيب تعاب به ... إن انحنـت واسـتقام الـسهم والـوتر[1]

---

(١) المصدر السابق للبوصيري ص ١٣٥ وما بعدها .



ويعارض الشاعر شوقي قصيدة البردة بقصيدته (نهج البردة)وقد أجاد وأبدع شوقي في معارضته ومنها ذلك المطلع الذي استهله بغزل عذري عفيف يتصدر ملحمة شعرية تربو أبياتها على تسعين ومائه بين مطلع ينضح بنبل العواطف مع آسرات ، العواطف مع الظباء الغيد يرتعن في رياض الشعر ، ويسكن قلوب الشعراء فيقول..

ريم على القاع بين البان والعلم … أجل سفك دمى في الأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جؤذر أسلا … يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

لما رنا حدثتني النفس قائلة … يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى

جحدتها وكتمت الجرح في كبدي … جرح الأحبه عندي غير ذي ألم

رزقت أسمح ما في الناس من خلق … اذا رزقت التماس العذر في الشيم

يا لائمي في هواه والهوى قدر... … لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلد

لقد انلتك أذنا غير واعية … ورب منتصت والقلب في صمم

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا … أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

إلي أن يقول شوقي

الحاملات لواء الحسن مختلفا … أشكاله وهو فرد غير منقسم

وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربي … يرتعن في كنس منه وفي أكم



وبعد هذا المطلع المونق الناظر الخلاب يخلص شوقي- رحمة الله- ملقيا باللوم على نفسه لئلا تنزلق في متاهات الحسن متناسية ما يعقبه هذا الانزلاق وأن هذا الجنا والتجني ما هو إلا خيال وتهويمات شاعر يرى الحسن بالبصر والبصيرة في كل شيء فكيف به من خلقن للحسن حسنا .

بيني وبينك من سمر القنا حجب	ومثلها عفة عذرية العصم
لم اغش مغناك إلا في غضون كرى	مغناك أبعد للمشتاق من ارم
يا نفس دنياك تخفى كل مبكية	وان بدا لك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت	كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها	الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
كم نائم لا يراها وهى ساهرة	لولا الأماني والأحلام لم ينم
طورا تمدك في نعمى وعافية	وتارة في قرار البؤس والوصم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه	فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس في خيرها في خير عافية	والنفس من شرها في مرتع وخم
تطغى إذا مكنت من لذة وهوى	طغى الجياد إذا عضت على الشكم

ثم يخلص شوقي رحمه الله إلى الغرض من القصيدة ذلك الغرض الذي هو من أسمى وأجل أغراض الشعر الإسلامي إنه مديح رسول الله صلى الله

عليه وسلم وما أغنى شخص محمد عليه الصلاة والسلام وما أزكى نفسه عن الكثير والقليل من القول ولكنها عواطف المسلم الذي تنم عباراته عن محض الإيمان وخالص المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لزمت باب أمير المؤمنين ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكل فضل وإحسان وعارفة ... ما بين مستلم منه وملتزم

يزرى ويضيء زهيرا حين أمدحه ... ولا يقاس إلى جودي ندى وهرم

محمد صفوه الباري ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسم

سناؤه وسناه الشمس طالعة ... فالجرم في فلك والضوء في علم

لما رآه بحيرا قال نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء والسيم

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ ... فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وظللته فصارت تستظل به ... غمامة جذبتها خيرة الديم

وبعد أن يعدد بعض خصال النبي الكريم يرسم الشاعر لوحة منقوشة بظلال التعابير الموحية ذات الألفاظ الفخمة الجزلة الواضحة مما يتناسق مع الجو الروحاني في غار حراء في أول لقاء ينعقد فيه لقاء السماء بالأرض في موكب إيماني يضم ثلاثة لا رابع لهم إنهم جبريل عليه السلام ومحمد صلوات الله وسلامه عليه وبينهما صوت القرآن يدوى في الوجود بلفظة (اقرأ)

ونـــودي اقـــرأ تعـــال الله قائلـــها لم تتـصل قبـل مـن قيلـت لـه بفـم

هنـــاك أذن للـــرحمن فـــامتلأت أسمـــاع مكـــة مـــن قدسـية الـنغم

فلا تسل عن قريش كيف حيرتها وكيـف نفرتهـا في السهل والعلـم

يـا جـاهلين علـى الهـادي ودعوتـه هـل تجهلـون مكـان الـصادق العلـم

لقيتمــوه أمــين القــوم في صــغر ومـــا الأمـــين علـــى قـــول بمـــتهم

فـــاق البـــدور وفـــاق الأنبيـــاء فكـــم بـالخلق والخلق من حسن ومن عظم

آياتـــه كلمـــا طـــال المـــدى جـــدد يـــزينهن جـــلال العتـــق والقـــدم

يكـــاد في لفظـــة منـــه مـــشرفة يوصيـك بـالحق والتقـوى وبـالرحم[1]

ولـشوقي رحمـه الله مـدائح نبويـة كـثيرة منهـا رائعتـه (ولـد الهـدى) أو الهمزية النبوية ومنها :

ولـــد الهـــدى فالكائنـــات ضـــياء وفـــم الزمـــان تبـــسم وســـناء

الـــروح والمـــلأ الملائـــك حولـــه للـــدين والـــدنيا بـــه بـــشراء

والعـرش يزهـو والحـضيرة تزدهـي والمنتهـــى والـــسدر والعـــصماء

وحديقـة الفرقـان ضـاحكة الربـى بالترجمـــان شـــذيه غنـــاء

(١) الشوقيات لأحمد شوقي ص٢٤٠ وما بعدها .





والوحي يقطر سلسلا من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواء

نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة ... في اللوح واسم محمد طغراء

يا خير من جاء الوجود تحية ... من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا

بيت النبيين الذي لا يلتقي ... إلا الحنائف فيه والحنفاء

خير الأبوة حازهم لك آدم ... دون الأنام واحرزت حواء

هم أدركوا عز النبوة وانتهت ... فيها إليك العزة القعساء

خلقت لبيتك وهو مخلوق لها ... إن العظائم كفؤها العظماء

بك بشر الله السماء فزينت ... وتضوعت مسكا بك الغبراء

وبدا محياك الذي قسماته ... حق وغرته هدى وحياء

وعليه من نور النبوة رونق ... ومن الخليل ونهجه سيماء

يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه بمحمد وضاء

الحق عالي الركن فيه مظفر ... في الملك لا يعلو عليه لواء

والآى تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء

نعم اليتيم بدت مخايل فضله ... واليتيم رزق بعضه وذكاء



ويعد هذه اللآلئ المنظومة في خيطها الدقيق تعبيرا عن فرحه الوجود بنبي الهدى صلوات الله و سلامه عليه. يسترسل شوقي رحمه الله في نظم معتق الشذرات مستلهما من أدب القرآن الكريم أخلاق النبي الكريم تلك الأخلاق النبوية التي لا يضارعه فيها مخلوق فهي فوق إنها خلال حميدة يشترك فيها كل مسلم إلا أنها في جانب شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

سنة يتأسى بها المسلمون قولا وعملا فلم تعد من الأخلاق المكتسبة بمجرد التقليد والمحاكاة.

ولكنها أخلاق يقتدى بها وتتجلى بها ويعمل بها كل مسلم محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ويطبق سنته القولية والعملية والتقريرية

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها	دنيا تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق الكريم شمائل	يغرى بهن ويولع الكرماء
أما الجمال فأنت شمس سنائه	ملاحة الصديق منك إياء
والحسن من كرم الوجوه وخيره	ما أوتي القواد والزعماء
وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان في الدنيا هم الرحماء

وإذا غضبت فإنما هي غضبة ... للحق لا ضغن ولا بغضاء

وإذا رضيت فذاك في مرضاتها ... ورضى الكثير تحلم ورياء

وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى وللقلوب بكاء

وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما ... جاء الخصوم من السماء قضاء

وإذا حميت الماء لم يورد ولو ... أن القياصر والملوك ظماء

وإذا أجرت فأنت بيت الله لم ... يدخل عليه المستجير عداء

وإذا ملكت النفس قمت ببرها ... ولو أن ما ملكت هناك الشاء

وإذا بنيت فخير زوج عشرة ... وإذا ابتنيت فدونك الآباء

وإذا صحبت رأى الوفاء مجسما ... في بردك الأصحاب والخلفاء

وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

وتمد حلمك للسفيه مداريا ... حتى يضيق بعرضك السفهاء

في كل نفس من سطاك مهابه ... ولكل نفس في نداك رجاء

يا أيها الأمي حسبك رتبة ... في العلم إن دانت لك العلماء



وكم هي كثيرة سخية تلك المعاني الإسلامية التي أنعم الله بها على رسوله الكريم. ويعجز بلغاء الكلام عن حصرها وتصويرها وشرحها وبسطها ولقد أربى الشاعر شوقي على كثير من الأدباء والمفكرين في همزيته هذه أربى على كثير ممن أحصى وعدد وبسط وشرح شمائل الرسول الكريم . على الرغم من طول نفس النثر واتساعه للتحليل والتعليل والتدليل وقد كفى الشاعر أحمد شوقي سموا أدبيا قوله في شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الشجاعة التي أخذت مكانها في مواقف اللين كما أخذت مكانتها في مواقف الحزم وصدق اللقاء والغضب في الله وله.

الحرب في حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
الخيل تأبى غير أحمد حاميا	وبها إذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس يعلمون مكانه	وان هيجت آسادها الهيجاء
وإذا تصدى للضبى فمهند	أو للرماح فصعدة سمراء
ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن	أمنت سنابك خيله الأشلاء
إن الشجاعة في الرجال غلاظه	ما لم تزنها رأفة وسخاء
والحرب يبعثها القوى تجبرا..	وينوء تحت بلائها الضعفاء
كانت لجند الله فيها شده....	في أثرها للعالمين رخاء





ويختم الشاعر شوقي رائعته هذه بقول شامل جامع ينفى المآخذ ويقر الصواب في شريعة الإسلام على يد محمد صلوات الله وسلامه عليه ويتجلى حسن هذا الختام في قول شوقي..

أنت الذي نظم البرية دينه ... ماذا يقول وينظم الشعراء

المصلحون أصابع جمعت يدا... ... هي أنت بل أنت اليد البيضاء

مشت الحضارة في سناها واهتدى ... في الدين والدنيا بك السعداء[1]

وإذا مدح الشعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما مدحوا بذكره شعرهم وخلدوه بالثناء عليه مآثر الإسلام والمسلمين فإن في شخص محمد صلى الله عليه وسلم وفي خلقه ، وفي الهدى الذي جاء به في ذلك كله ما يفتح آفاقا رحبة يحلق فيها الشاعر فيبدع في معناه ومبناه ، وما أكثر الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه ، ومن جملتهم الشاعر البحريني احمد محمد الخليفة فقد جاء شعره خفقة إسلامية من خلال عدد من القصائد الرائعة كقصيدته : إسراء محمد، وقصيدته ميلاد محمد، وقصيدته تحية العام الهجري، وقصيدته من وحي الهجرة وقصيدته خواطر في رمضان ، وإليك مواكب المجد ، وإرادة النصر، ولقاء الأشقاء : ومن بدائعه قوله :

يجري الوفاء حنينا في جوانحنا ... والشوق يوضحه من غير تبيان

(١) المصدر السابق لشوقي ص ٢١ وما بعدها .





تلفتوا واحذروا الأنواء إن عصفت ... فالدهر يوقظ دوما كل وسنان

أرى رياح الدياجى تستزيد لظى ... والدهر يذكى سوافيها بنيران

فمن غفا عن عواديها بمقلته ... ونام عن خطبها يمنى بخسران

إلا فتى ساهراً يقضى الدجى خدرا ... يراقب الله في سر وإعلان

إذا رأى شررا في جوف داجية ... سرى وأخمد رياها بطوفان

ما أشبه اليوم بالأمس البعيد إذا ... سرنا جميعا برايات و قرآن

الدين لله والإسلام عزتنا .... لولاه ما رفعت أركان أوطاني

نسير صفا إلى العليا تجمعنا ... إرادة الله في تدبيرها الباني

نبنى ونرفع للأحفاد رايتنا ... فوق الثريا بلا شرح وتبيان

وشمسنا في السماء الحق ساطعة ... تعمى الظليل وعين الحاسد الشاني

إن في شعر هذا الشاعر الإسلامي من المعاني الإسلامية والقيم الرفيعة ما يدل على نضج الشاعرية المتمثلة في صدق العواطف والأحاسيس وسلامة النزعة الإسلامية. ولكن تحوم آراء النقاد المعاصرين حول هذا الشاعر وحول شاعريته فينصفونه حين يكون شاعر الطبيعة ولا تجد لأحد من هؤلاء النقاد أي إشارة إلى شاعريته الإسلامية الفياضة انه لجدير بان يصنف في عمالقة





الشعر الإسلامي والفكر الإسلامي فهو في كثير من قصائده مجاهد بالكلمة الطيبة والفكرة الصائبة والمعنى السامي الشريف .. من ذلك قوله :

أيها الشرق أنت رمز البطولات ومهد الرسالة الغراء

جدد الآن عهدك الغابر الميمون في ظل قادة أوفياء

أطلق النار في صدور الطواغيت وهدم ما شيدو من بناء

واسكب النخوة الكريمة في الآفاق من كل ذروة شماء

أنت يا شرق مهبط الروح في الدنيا ومسرى الإلهام والإيحاء

من ثراك الحبيب ينطلق الإيمان كالوحي سابحا في الخفاء

قوة أنت تلهم الأبد المجهول سر النبوة العصماء

طهر الأرض إنها غرقت في الإثم واستهترت بعدل السماء

وانشر الخير والسماحة والآمال من ضوء فجرك الوضاء

واليك هذه المقطوعة من قصيدته المجاهد المسلم...

رنا فتغنت الدنيا أمامه

بألحان البطولة والشهامة



فـــشب يـــسامر العليــاء طفــلا
ويـــستوحي مـــن المجـــد الـــصرامة

فتـــى في الحـــب أمتـــه تـــسامى
فـــصان بـــلاده وحمـــى ذمامـــه

فـــؤاد مـــستفيض العـــزم ثبـــت
وروح بالمعـــــارك مـــــستهامة

ســـرى للحـــرب في ليـــل الرزايـــا
ومـــل العـــيش في ظـــل الـــسلامة

عـــصامي كـــبير الـــنفس نـــدب
علـــى قـــرن الـــشموس بنـــى خيامـــه

إذا نـــاداه للـــهيجاء منـــاد
جـــرى كالليـــث ممتـــشقا حـــسامه

يـــصون كيـــان أمتـــه بـــسيف
يريـــك بريقـــه يـــوم القيامـــة

تنـــزى مـــشرئبا للأعـــادي



فصوب في مقاتلهم سهامه

إذا ما هب للهيجاء فجرا

رأيت أبا عبيدة أو أسامة

ويطول بنا المطاف مع الشاعر الإسلامي فحسبنا أن نسوق من قصائده الإسلامية وروائعه البديعة بعضا من قصيدته قافلة النون:

هي ادري بدربها فدعوها تتباهى في السير بالارتحال

قصدها طيبة – وطيب ثراها فاح في البيد من وراء الجبال

طيب طه الذي به الله أحيا بالهدى الخلق بعد طول الضلال

كلنا في المدي قلوب هيامى نتملاك في خوافي الأعالي

ائتلق واغمر الدياجي ضياء واجعل الشرق ملعبا للنضال

يسترد الرايات فوق فلسطين ويردى شراذم الاحتلال

واجعل الحق والسلام نشيدا بعد عهد النواح والاقتتال

إن نور الإسلام كم طهر الأرض ونقى بها قلوب الرجال

فإذا الفاتحون في وهج الهيجاء لا يحلفون بالأهوال

يتفانون في الوغى فتراهم كأساطير قصه في الخيال

نهلوا من محمد فإذا هم ... صفوه الملهمين والأبطال

حسبهم أنهم على الأرض حزب الله ... عاشوا لصالح الأعمال[1]

هذه إلهامات شعراء الإسلام الذائدين عنه، وهذا هو عطاء الشعر الإسلامي من عهد حسان في القدماء إلى شعراء الأمة الإسلامية في عصرها الحاضر.

(١) العناقيد الأربعة ديوان الشاعر أحمد محمد الخليفة ص٧ المطبعة الحكومية لوزارة الإعلام البحرين.


شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
NEW & EXCLUSIVE



الخـــاتمـــة









وبعد : فقد طال بنا السير في آفاق الأدب الإسلامي شعرا ونثرا وفي السطور المختزنة يمكن أن نقول كل شيء عن هذا اللون من الأدب فقد بقي في النفس آمال وآلام كان بودي أن أسطرها في ثنايا هذه الدراسة المتقدمة التي اجتزأت فيها بالقليل عن الكثير ، حتى كادت أن تعنى بإيراد النصوص دون التعمق في آفاق هذا الأدب الغائي الهادف ، فهناك أفكار كان ينبغي إن تشخصها هذه الدراسة.

من مثل :

الأدب الإسلامي لماذا ؟ وكيف نكتب تاريخه.

الوجه الحضاري لهذا الأدب.

الأدب الإسلامي والصراعات الفكرية المعاصرة.

الأدب الإسلامي بين البلاغة والتبليغ.

وظيفة النقد في المجتمع الإسلامي .

الأدب الإسلامي وعلاقته بالحياة والناس.

الأدب الإسلامي وفن المتعة والتسلية.

الكون والحياة والإنسان في التصور الإسلامي.

كان من الجدير ذكره أن تعنى هذه الدراسة بمناقشة هذه الأفكار التي أهملها نقاد الأدب وأشار إلى بعضها عدد منهم ممن ينظر إلى العطاء الأدبي بمنظور إسلامي.





ولكن لما رأيت أن عددا آخر من النقاد لم يكتف بالنظرة العاجلة والإشارة السريعة وإنما صال وجال في هذه القضايا كالذي حرره الدكتور/ نجيب الكيلاني في كتابه – ((آفاق الأدب الإسلامي)) وكالذي كتبه الدكتور/ عبد الباسط بدر، وكالذي بسط القول فيه الدكتور عماد الدين خليل والدكتور محمد عادل الهاشمي وغيرهم.

لما رأيت أن هؤلاء النقاد المنصفين قد أجادوا وأفادوا في بسط هذه المسائل حول الأدب الإسلامي ، آثرت أن يكون نصيبي في هذا الاتجاه من الدراسات النقدية لونا تطبيقيا يعنى بدراسة النصوص لطائفة من الخطب والقصص الإسلامية ونصوص الشعر في هذا المسار .

وما ذلك إلا لأن الدراسة المنهجية لهذا اللون من الأدب قد تجاوزت مرحلة المنهج إلى التطبيق ، وأن شداة الأدب قد أصبحوا بحاجه إلى تلمس الخصائص الفنية واستجلاء معالم الإبداع في العطاء الأدبي وبخاصة ما كان من النصوص ذا نزعة إسلامية.

ولا أدعي أنى قلت كل شيء عن بدائع الأدب الإسلامي لان دراسة نص واحد من الخطب أو القصص أو الشعر يستدعى دراسة مستقلة تنهض بخصائص الإبداع في البيت تلو البيت من الشعر وفي الفكرة تلو الفكرة من الخطبة وفي الموقف تلو الموقف والمشهد تلو المشهد من القصة .





وحسبي في هذه الدراسة المتواضعة إنها استطاعت الكشف عن بعض خصائص النص.

والوقوف على مواطن الإبداع بقدر ما وسعته معرفتي المحدودة.

وأن هذه الدراسة استنارت بآراء عدد من النقاد الذين مارسوا الأدب الإسلامي عطاء ونقدا وأنها استطاعت الوقوف أمام آراء بعض النقاد ممن يصفون الأدب العربي في تراثه بالمرتبة الدون لخلوه من اللون القصصي.

والخلاصة أن هذا الأدب هو الدرب الذي يمكن أن يسير على جادته الأديب آمنا من الانزلاق والضياع والهلاك هو الجادة الصحيحة الواضحة التي يمكن أن يقوم على طريقها دراسات أدبيه نقدية من خلالها يبين الرشد للناس وأنه فيما قال الله تعالى وقال رسوله الكريم ، ثم فيما تأسى به الأنبياء بقول الكلمة الطيبة التي تمكث في الأرض فتخصب وتنفع الناس أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين......









الفهرس






شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE







فهرس المصادر والمراجع









المصادر والمراجع	المؤلف	ملحوظات
١- أختاه أيتها الأمل	احمد بدوى	مؤسسة الرسالة
٢- الأدب الإسلامي وصلته بالحياة	محمد الرابع الحسنى الندوي	مؤسسة الرسالة
٣- الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام	د.ذكريا عبد الرحمن صيام	دار النصر للطباعة الإسلامية – القاهرة
٤- أساس البلاغة	محمود بن عمر الزمخشيرى	دار بيروت لطباعه والنشر
٥- أسرار البلاغة	عبد القاهر الجرجانى	تصحيح محمد رشيد رضا
٦- الأسلوب	احمد الشايب	الطبعة السادسة مكتبة النهضة المصرية القاهرة
٧- إصلاح	عزيزة الابراشى	دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع..بيروت
٨- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية	الرافعي	دار الكتاب العربي بيروت الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ

- ب -

المصادر والمراجع	المؤلف	ملحوظات
٩- البيان العربي	د/ بدوى طبانه	مكتبه الانجلو المصرية القاهرة الطبعة الرابعة ١٣٨٨هـ
١٠- البيان و التبيين	الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون

ت

المصادر والمراجع	المؤلف	ملحوظات
١١- تاريخ الأدب العربي	بروكلمان	الطبعة الثانية دار المعارف
١٢- تذوق الأدب طرقة ووسائله	د / محمود ذهني	مكتبه الانجلو المصرية
١٣- التفكير فريضة إسلامية	عباس العقاد	دار الفكر بيروت

- ث -





- ج -

١٤- الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي	د/ زهدي صبري الخواجا	دار الناصر للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ
١٥- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام	أبو زيد القرشي تحقيق الدكتور محمدعلى الهاشمي	مطابع جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية

- ح -

- خ -

١٦- الخطابة	على محفوظ	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الرابعة
١٧- الخطابة في صدر الإسلام	د/ طاهر درويش	دار الكتب العربي بيروت
١٨- الخطب والمواعظ	محمد عبد الغنى حسن	دار المعارف مصر
١٩- دائرة المعارف الإسلامية	إعداد إبراهيم خور شيد وأحمد الشنتناوي والدكتور عبد الحميد يونس	مطابع الشعب القاهرة
٢٠ - ديوان البوصيرى	البوصيرى / جمع وتحقيق	محمد سعيد كيلاني طبع مصطفى البابي الحلبي
٢١- ديوان حسان بن ثابت	تحقيق الدكتور وليد عرفات	دار صادر بيروت
٢٢- ديوان الشافعي	محمد بن إدريس الشافعي تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم	مكتبه المعارف الرياض
٢٣- ديوان كعب بن مالك		
٢٤ — ديوان المعاني	أبو الهلال العسكري تصحيح الأستاذ كرنكو	نشر مكتبة الأندلس بغداد
٢٥ — ديوان النابغة الجعدي		

- ذ -

- ر -



- ز -

الكتاب	المؤلف	النشر
٢٦ – زاد المعاد في هدى خير العباد	ابن القيم الجوزية تحقيق و تخريج وتعليق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط	مكتبة المنار الإسلامية الكويت
٢٧ – زهر الأدب وثمر الألباب	الحصري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . شرح زكي مبارك	دار الجيل بيروت

- س -

الكتاب	المؤلف	النشر
٢٨ – سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجي شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي	مطبعة محمد على صبيح
٢٩ – سنن ابن ماجة	تأليف محمد ناصر الدين الألباني	توزيع المكتب الإسلامي بيروت

- ش -

الكتاب	المؤلف	النشر
٣٠ – سنن الترمذي	الترمذي محمد بن عيسي	الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ
٣١ – شعر الجهاد في العصر الحديث	جمع الدكتور عبد القدوس أبو صالح و الدكتور محمد رجب البيومي	مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
٣٢ – الشعر في موكب الدعوة	د/ صادق عبد الحليم محمد	مطابع النصر الحديثة الرياض الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ
٣٣ – صحيح البخاري	الإمام البخاري	نشر دار المعارف الرياض
٣٤ – صحيح مسلم	الإمام مسلم	نشر محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الأولي ١٣٧٥هـ



٣٥ — الصناعتين — أبو الهلال العسكري
تحقيق على محمدالبيجاوي
ومحمد أبو الفضل إبراهيم

- ض -

- ط -

٣٦ — الطراز — بحبي العلوي تصحيح
سيد بن على المرصفي

- ظ -

- ع -

٣٧ — العقد الفريد — لإبن عبد ربه
تحقيق محمد سعيد العريان

٣٨- العناقيد الأربعة — احمد محمد الخليفة — المطبعة الحكومية وزارة الإعلام البحرين

٣٩- عيون الأخبار — ابن قتيبة — نشر المؤسسة العربية العامة بمصر.

- غ -

- ف -

٤٠- فن الخطابة وإعداد الخطيب — على محفوظ — دار الاعتصام القاهرة

٤١- فن القصة — د / محمد يوسف نجم — دار الثقافة بيروت

٤٢- الفن ومذهبه — د / شوقي ضيف — دار المعارف مصر الطبعة الخامسة





الكتاب	المؤلف	الناشر
٤٣- في رحاب الأقصى	يوسف العظم	المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ
٤٤- فيض القدير	المناوى	دار المعرفة بيروت
٤٥ - قصص العرب	محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى وعلى البجاوي	دار إحياء التراث العربي بيروت
٤٦- القصص في أدب العرب	محمود تيمور دار الفكر بيروت	
٤٧- القصص في الحديث النبوي	د / محمد بن حسن الزير	المطبعة السلفية مصر الطبعة الأولى
٤٨ —القيم الخلقية في الخطابة العربي	د / سعيد حسين منصور	الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ
٤٩- لسان العرب	لابن منظور	دار صادر بيروت
٥٠- من آداب الدعوة الإسلامية	عباس الجرارى	دار الثقافة الدار البيضاء
٥١- المثل السائر	لابن الأثير تحقيق د / بدوى طبانه ود/ احمد الحوفي	دار الرفاعي الرياض
٥٢- المجازات النبوية	الشريف الراضي شرح عبد الرءوف سعد	مطبعه الحلبى مصر
٥٣ —محاولات جديدة في النقد الإسلامي.	د/ عماد الدين خليل	مؤسسه الرسالة بيروت الطبعة الأولى
٥٤- مختار الصحاح	الرازي	دار الكتاب العربي بيروت
٥٥- مسند ألاما م احمد	احمد بن حنبل	المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية



٥٦- مسند الدرامي | عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام | شركه الصباغة الفنية المتحدة مصر

٥٧- مقدمه بن خلدون | عبد الرحمن بن خلدون | دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الثالثة

٥٨- مقدمه لنظرية الأدب الإسلامي | د/ عبد الباسط بدر | دار المنارة للنشر السعودية — جده

- ك -

- ل -

٥٩ - ملحمة أمجاد الرياض | د/ محمد العايد الخطراوى | الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ

٦٠- ملحمة النصر | عمر بهاء الدين الأميري | دار القرآن الكريم

٦١- ملحمة نور الإسلام | د/ محمد بن سعد الدبل | دار المعارف الرياض

٦٢- مناهج من الدراسة الأدبية في الأدب العربي | د/ شكرى فيصل | دار العلم للملايين ببيروت

٦٣- من قضايا الأدب الإسلامي | د / صالح أدام بيلو | دار المنارة للنشر السعودية — جده

٦٤- منهج التربية الإسلامية | محمد قطب | دار الشروق بيروت

٦٥- موسوعة العقادالإسلامية | نشر دار الكتب العربي بيروت

- ن -

٦٦- نابليون في الأزهر | د / نجيب الكيلانى | المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة

٦٧- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد | د / عبد الرحمن الباشا | مطابع جامعه الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ١٤٠٥هـ



٦٨- نحو نظريه للأدب الإسلامي — د / محمد احمد حمدون — دار الفنون للطباعة والنشر جدة

٦٩- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية — د / عمر الساريسى — دار المنارة للنشر السعودية جدة

٧٠- نصوص نقدية لإعلام النقاد العرب — د/ محمد السعدي فرهود — دار الطباعة المحمدية الأزهر الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ

٧١- نقد الشعر — قدامه بن جعفر تحقيق وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي — مكتبه الكليات الأزهرية الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ

٧٢- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز — للرازي تحقيق د/ بكرى شيخ أمين

- هـ -

- و -

٧٣- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد — د / احمد بسام ساعي — دار المنارة للنشر السعودية – جدة

٧٤- وحى القلم — مصطفى صادق الرافعي — دار الكتاب العربي بيروت

٧٥- وفيات الأعيان — لابن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس — دار صادر بيروت





مطبوعات نادي المدينة المنورة

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع	عبد العزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبد الرحيم أبو بكر
٣	شعراء من ارض عبقر ج١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من ارض عبقر ج٢	د.محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د.محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د.محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجى محمد حسن وفوزان الحجيلى
١١	الفيصليات	عبد الحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام	عبد العزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	احمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد اليوسف
١٦	الحفل المسرحي	إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبد الرحمن رفه
١٨	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩	على طلال ارم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقه حفظ القرآن الكريم بالمدينة المنورة	دخيل الله الحيدرى ومحمد وهبه الجبالي
٢١	رسالة إلى ليلى	احمد فرح عقيلان
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	بحث الشيخ محمد بن عبد الوهاب	مسلم الجهني





عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبد العزيز الربيع
٢٦	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابه الجب	على الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبد السلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ط٢	عبد العزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ط٢	عبد العزيز الربيع
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البلهيشى
٣٢	هموم عربية	للأستاذ أبو عبد الرحمن الظاهري
٣٣	المدينة المنورة	للأستاذ محمد صالح البلهيشى
٣٤	لمحات عن حياه الربيع	محمد صالح البلهيشي
٣٥	على ضفاف الذكريات	للشاعر مجدي خاشقجي
٣٦	مبضع الجراح	للأستاذ إبراهيم العياشى
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	للأستاذ محمد عثمان
٣٨	قصص لا تنسى	للشيخ محمد المجذوب
٣٩	تحفه اللبيب	للشيخ محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	للشيخ محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة	للشاعر عبد السلام هاشم حافظ
٤٢	مسيره ٨ أعوام لنادى المدينة الأدبي	محمد صالح البلهيشى
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم عمر طه
٤٤	أيسر التقاسيم ج١	الشيخ أبو بكر الجزائري
٤٥	أيسر التقاسيم ج١	الشيخ أبو بكر الجزائري
٤٦	أيسر التقاسيم ج١	الشيخ أبو بكر الجزائري
٤٧	أيسر التقاسيم ج١	الشيخ أبو بكر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية	د.عبد الله الحامد

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩	السعودية	للأستاذ عبد الله احمد الشباط
٥٠	شاعر الخليج	الشيخ محمد المجذوب
٥١	أدب ونقد	الشيخ محمد المجذوب
٥٢	ردود ومناقشات	للأستاذ على منسي عشكان
٥٣	دعوة سليمان (عليه السلام)	محمد العايد الخطراوى
٥٤	حروف من دفتر الأشواق	للأستاذ حسن مصطفى صيفي
٥٥	دموع وكبرياء	د. حسن فهد الهويمل
٥٦	في الفكر والأدب (دراسات وذكريات)	نادى المدينة المنورة الأدبي
٥٧	دراسات قرآنيه ·المجلد الأول)	الأستاذ ناجى محمد حسن عبد القادر
٥٨	الإخطبوط (قصه)	
٥٩	طيبه في عيون فنان تشكيلي	للأستاذ فؤاد طه مغربل
٦٠	تاريخ معالم المدينة قديما وحديثا	السيد / احمد ياسين الحيارى
٦١	تفاصيل في خارطة الطقس	د.محمد العايد الخطراوي
٦٢	وداعا أيها الحزن — رواية –	الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج
٦٣	نصوص مختارة	الشيخ محمد المجذوب
٦٤	المجموعة الشعرية الكاملة المجلد الأول	الأستاذ محمد هاشم رشيد
٦٥	الولوج من ثقب إبرة	الأستاذ على عبد الفتاح السعيد
٦٦	وقفات علي الماء	إبراهيم صعابي
٦٧	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية – الأنتربول- ودورها في مكافحه المخدرات	النقيب محمد حسن زهير
		د. محمد بن سعد الدبل
٦٨	من بدائع الأدب الإسلامي	

